الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي

المؤرخ الفقيه، ذو القرن



بمناسبة تخرج الدفعة الرابعة والعشرين

شعبان 1432هـ - جويلية 2011 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي

المؤرخ الفقيه، ذو القرن

بمناسبة تخرج الدفعة الرابعة والعشرين

شعبان 1432 - جويلية 2011

معلومات الاتصال بالجامعة :

عنوان الجامعة :

ص.ب 408 حي 20 أوت 1955 – قسنطينة -

الهاتف :

031.92.21.34
031.92.21.99
031.92.26.94
031.92.26.95

العنوان- الإلكتروني : : E-Mail

samaismain@yahoo.fr

موقع الجامعة في شبكة الانترنيت :

www.univ-emir.dz

الدفعة الرابعة والعشرون

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي

المؤرخ الفقيه، ذو القرن

الإشراف العلمي والتقني

- أ. د. إسماعيل سامعي
- المهندس بشير فاضلي
- محمد فؤاد سعد الله
- صبرينة علاق
- نعيمة رواس

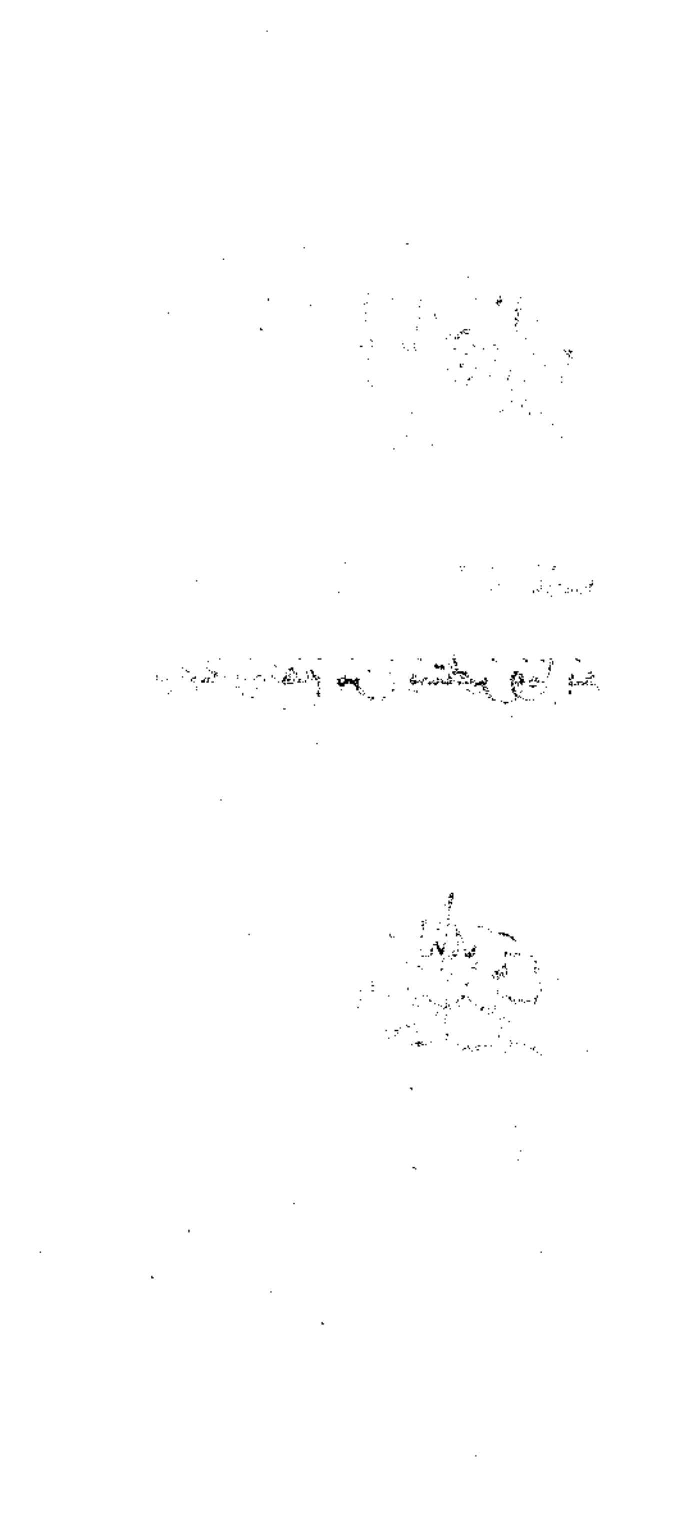


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾

سورة الأحزاب، 23

صدق الله العظيم



أ.د. عبد الله بوخلخال

بســـم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فها هي جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وفيّة بعهدها مع أبنائها المتخرجين كل عام، بتشريفهم بشخصية علمية، يحملون اسمها،

وقد تميز احتفال التخرج هذه السنة (**2010 - 2011**م) بثاني دفعة من النظام الجديد (ل.م.د) والدفعة الرابعة والعشرين من النظام القديم.

إذ تشرفت الدفعتان بحمل اسم أحد أعلام الجزائر المتميزيين الموسوعيين ألا وهو الشيخ العالم والمؤرخ والأديب والإعلامي والفقيه عبد الرحمن بن محمد الجيلالي (**1908 -2010**م) الذي قضى حياته التي تجاوزت المائة عام (**103** سنوات ميلادية – **107** هجرية) في خدمة الإسلام والجزائر. حيث أنار بعلمه وعمله المتواصل آلاف الشموع التي أضاءت دروب الجزائريين في أعز استثمار يمكن لأية أمة أن تستثمر فيه مواردها، وهو الاستثمار في الإنسان والشباب خاصة، فقد أحيا بنشاطه الثقافي والديني والأدبي والتربوي والتاريخي أجيالا من الجزائريين أوشكوا أن ينفصلوا نهائيا عن حضارتهم ولغتهم وتاريخهم وقيمهم الدينية والوطنية.

وبالإضافة إلى تسمية هذه الدفعة باسم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي نظمت الجامعة ندوة علمية تكريما له، شارك فيها نخبة من الأساتذة والباحثين من تلاميذ الشيخ ورفاق دربه في ميادين العلم والمعرفة والوطنية، كما تحمّل كل طالب وطالبة كتابا تذكاريا بهذه الشخصية المتميزة ، وهذا التشريف ليس وليد اليوم أو وليد صدفة عابرة بل هو سنة حميدة سنتها الجامعة وأقرها المجلس العلمي للجامعة منذ سنة **2002**م بتسمية الدفعات المتخرجة بتواريخ ناصعة ورموز وطنية بارزة، ابتداء بـ: الشيخ أحمد حماني(**2002**م) – الشيخ الفضيل الورتلاني(**2003**م)– الرئيس الراحل هواري بومدين(**2004**م) – الأستاذ مالك بن نبي(**2006**م) - الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم(**2007**م) – الأستاذ يحي بوعزيز(**2008**م) - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي(**2009**م) – الشيخ أحمد بن يوسف أطفيش قطب الأيمة(**2010**م).

وها هي الجامعة تختار هذه السنة (**2011**) أحد أعلام الجزائر الكبار وشيخ المؤرخين لمكانته المتميزة.

وهذا ماشهد به جميع الذين عرفوا الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من قريب أو بعيد انطلاقا من تآليفه الكثيرة في فروع معرفية متعددة وأحاديثه الممتعة في الإذاعة والتلفزة وجلساته وندواته ودروسه وغيرها مما يجده قراء هذا الكتاب التذكاري بأقلام

نخبة من الأساتذة والباحثين ورفاق الدرب الذين بينوا الكثير من مكانة الرجل وتفانيه في خدمة أمته بأعماله وأقواله وعلمه الراسخ الموسوعي ومؤلفاته.

ومهما يكن من أمر فلن نفي في هذا التقديم الموجز بمناقب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، وأترك لمن يريد الاستزادة من علم الرجل ومعارفه الرجوع إلى مساهمات الأساتذة الأفاضل من خلال المقالات والبحوث والشهادات المنشورة في هذا الكتاب التذكاري وفي غيرها من مؤلفاته المنشورة وخاصة كتابه << **تاريخ الجزائر العام** >>.

والله ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين.

قسنطينة **20** جوان **2011**

أ.د/ عبد الله بوخلخال
مدير الجامعة

تقديم

أد . إسماعيل سامعي
نائب مدير الجامعة للتكوين العالي
والتكوين المتواصل والشهادات

شخصية عبد الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من الشخصيات المتفردة بسلوكها وأخلاقها، وعطائها العلمي المتنوع ، فالرجل يعد من بقايا رجال العصور الإسلامية المزدهرة الذين أفلتوا من عوائق الزمن ونكبات الدهر، وتميزوا بالموسوعية من جهة التي عكست وجه التطور الحضاري العربي الإسلامي من جهة ، وهو ابن عصره واكب التطورات الحديثة ، واستخدم وسائلها في عطائه وأدائه لرسالة رسم معالمها منذ نعومة أظفاره من جهة أخرى.

فقد أسهم في الحفاظ على ذاكرة الأمة ، وتجديدها وإثرائها بالكتابة عن مآثرها عبر التاريخ وفي مختلف شؤونها ، وبعث رموزها في الأجيال الحاضرة والمقبلة من خلال الكتابة في تراجم أعلامها ، وأرسى دعائم عمرانها مقوما لعلاقاتها الاجتماعية والاقتصادية بالتاريخ والأدب تارة ، وبالفتاوى تارة أخرى، وديدنه الحفاظ على لسانها العربي المبين في لغته ولهجته، وأسلوبه ، وفكره وأدبه.

وإذ نقدم اليوم هذه الشخصية من خلال هذا السفر الذي سهرنا في الجامعة على أن نرد له شيئا من الجميل لجهود رجل خدم الأمة دون ملل ولا كلل، وأن نبلورها لتكون نبراسا يستضاء به في مقبلات الأيام ، وفي البناء الحضاري العربي الإسلامي لهذه الأمة ، ولأمتنا العربية والإسلامية .

لقد شارك ثلة من الأساتذة الباحثين بجهودهم العلمية والفكرية في تصنيف هذا السفر الذي يبلور معالم شخصية الشيخ عبد الرحمن الجيلالي وعطائها المتواصل قرابة القرن،

وذلك بأبحاث ودراسات ، وموضوعات متنوعة بتنوع كتاباته، هذه الأبحاث قدمت ونوقشت في ندوة علمية عقدت لهذا الغرض، كما حملن اسمه الدفعة 24 المتخرجة من الجامعة للسنة الجامعية 2010 / 2011

ونكون بذلك قد كرمنا هذه الشخصية ، وأشدنا بمآثرها، وخلدنا آثارها يأتي كل ذلك في سياق السنة الحميدة التي سنتها الجامعة منذ قرابة العشر سنوات بأحياء وتخليد ذكرى وجهود رجال أعلام خدموا الأمة وحافظوا على كيانها في أحلك الأيام وأصعبها، لتعد بدورها إضافة ضمن تلك الجهود التي تبذل في هذا المجال في وطننا العزيز ، وكل أمنيتي أن يتواصل هذا التقليد ويتطور في الجامعة الجزائرية عموما، وفي جامعة الأمير عبد القادر خصوصا لما لها من خصوصية لاسيما في هذا المجال.

وختاما أتقدم إلى طلبتنا الكرام، وإلى الأساتذة الأفاضل، وكل العمال والموظفين بالجامعة بأحر التهاني بمناسبة نهاية السنة الجامعية ، وتمكن ثلة من الطلبة من جني ثمار سنوات قضوها بالجامعة في التحصيل العلمي والمعرفي متمنيا لهم كل التوفيق والنجاح في الحياتين العلمية لمن تيسر لهم مواصلة الدراسة ، والعملية لمن هم يتوجهون للإسهام في الحياة العامة للوطن والأمة وندعوهم جميعا إلى أن يكونوا رسل الجامعة إلى المجتمع بمختلف فيئاته ومؤسساته، فيسهمون أولا في تنويره، والرفع من مستواه، وثانيا في تحسين أدائه والارتقاء الحضاري به، وذلك بالسلوك الحسن، والعمل المتقن، وأن يبقوا على اتصال بالجامعة.

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ التوبة 105

صدق الله العظيم

حياته وشخصيته

ذو القرن

أ/ **محمد الهادي الحسني – الجزائر**

لا أقصد بالقرن ذلك النتوء العظمي الذي يوجد على رؤوس بعض الحيوانات؛ ولكنني أعني ذلك المدى الزمني الذي يبلغ مئة عام.

وأمّا صاحب القرن الذي أعنيه فهو فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الذي ولد في مدينة الجزائر في 9/ فبراير /1908 م، وعسى أن يكون ممن يشملهم الحديث النبوي الشريف «**خيركم من طال عمره وحسن عمله**».

إنّ أعجب ما في الشيخ عبد الرحمن الجيلالي هو ذاكرته التي استعصت على النسيان، وتحدت الزمان، وأبت أن تفرط فيما وعته من كنوز معرفية ومن حوادث تاريخية، وفيمن عرفتهم من شخصيات علمية.

عرفت اسم الشيخ الجيلالي في عام 1959 م، وأنا لمّا أبلغ الحلم، وسبب هذه المعرفة هو أنني كنت أرى شابا يسكن بجوارنا يجلس أمام بيته ويطالع كتبا فتستبد بي الغيرة وأتمنى امتلاك مثل تلك الكتب ولكن لا سبيل إلى ذلك، لأنني لا أعرف مكتبة تبيع الكتب العربية في مدينة جيجل آنذاك. وذات يوم تجرأت وطلبت من ذلك الجار أن يعيرني كتابا، فدلف إلى منزله ثمّ عاد بكتيب يضم أغاني المطرب عبد الحليم حافظ، فتألمت لذلك وكظمت غيظي ثم توجهت من حي الواحات – حيث كنت أسكن – إلى حي قَلْصَدَا – حيث كان يسكن أستاذي مصطفى عبادة رحمه الله–.

دققت الباب فلمّا رآني الشيخ استغرب مجيئي في ذلك الوقت غير المناسب وسألني عن مرادي من زيارتي له. كنت أسبح في بحر من العرق خجلا مما فعلت، فطأطأت رأسي وقلت في تلعثم: أريد أن تعيرني كتابا.

تبسم الشيخ من قولي وتهللت أساريره، وربّت على كتفي، واستمهلني لحظة، فدخل منزله ثمّ عاد وفي يده كتاب (نسيت اسمه) ولكنني أتذكر محتواه وهو أنّه يضم مجموعة من النصوص النثرية والشعرية لكتاب وشعراء مشارقة.

كان والدي رحمه الله يتهيأ لسفر من مدينة جيجل إلى مدينة الجزائر، وكنت آنذاك على وشك إتمام حفظ القرآن الكريم، فأراد الوالد أن يكافئني على ذلك فسألني عمّا أريد أن يشتريه لي، فقلت له على الفور: أريد كتابا... وما طلبت الكتاب إلاّ ثأرا من جاري الذي اعتبرت تصرفه معي احتقارا لي واستصغارا لشأني.

لم يشتر لي الوالد كتابا واحدا؛ ولكنه اشترى لي كتابين ما يزالان يتصدران إلى الآن مكتبتي وهما «**تاريخ الجزائر العام**» في جزئين للشيخ عبد الرحمن الجيلالي، و«**تاريخ الأمة العربية**» في ستة أجزاء للدكتور محمد أسعد طلس، فكان ذلك أول سماعي بالشيخ عبد الرحمن الجيلالي الذي ما عرفته شخصيا إلاّ في عام 1972 م، عن طريق صديقي الأستاذ سليم كلالشة – رحمه الله- وشاءت الأقدار أن أكون واسطة بين الشيخ عبد الرحمن الجيلالي وبين دار الأمة للنشر والتوزيع التي تشرفت بنشر الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الجزائر العام في ستة أجزاء.

كنت أعلم علاقة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بالشيخ عبد الحليم ابن سماية – رحمه الله- حيث تتلمذ عليه، وأجازه الشيخ ابن سماية بما أجيز به (في رواية صحيح الإمام البخاري، متصلة السند المسلسل بشيوخ العلم والحديث على الطريقة السلفية)[1]؛ فاغتنمت فرصة لقائي بالشيخ فسألته عمّا قيل من تغير حال الشيخ ابن سماية، حيث كما يقول الشيخ عبد الرحمن نفسه: « تغير إلى شبه أحوال من يسمونهم بالمجاذيب ... وكثيرا ما كان ينتزع سيفه فيشهره في وجوه رجال السلطة الحاكمة أو عندما يتأثر ويشتدّ انفعاله مما يراه من تخلف قومه وتقدم عدوه على حساب وطنه، واتخذ بعض الناس ذلك منه دعوة إلى الفروسية، ورمزا لحمل السلاح في وجه الغاصبين، وطالما صرح وهو في هذه الحال بعبارات وتصريحات جارحة في جانب المعمر»[2]، فأجابني الشيخ بأنّ بعض الناس يرد ذلك إلى أسباب نفسية، ولكنني – يقول الشيخ- أرجح أنه كان يفتعل تلك الحال حتى لا تبطش به السلطات الفرنسية التي كان يهاجمها بأقواله وأفعاله، خاصة بعد فشل ثورة

الأمير عبد الكريم الخطابي (سنة 1925 م) التي كان الشيخ يعلق عليها آمالا فساحا، ويرجو أن تتوسع لتشمل المغرب العربي كلّه، فتأتي على الاستعمار وتحرر هذه الأمصار.

ومما يرجح ما ذهب إليه الشيخ عبد الرحمن هو أن الشيخ ابن سماية استمر في إلقاء الدروس حتى آخر أيام حياته التي انتهت في 2/ يناير/ 1933 م، وقد حدثني بذلك جد أولادي لأمهم «الشيخ العربي بو زكري /»، إذ أخبرني أن الشيخ ابن سماية كان يأتيهم إلى زاوية محي الدين — بوسط العاصمة — فيترجل عن حصانه، ويأخذ مكانه ثمّ يملي عليهم الدروس في مختلف الفنون من ذاكرته، ومن حيث انتهى في الدرس السابق...

أرجع إلى كتاب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي «**تاريخ الجزائر العام**»، فأقول: إنّه ثالث ثلاثة كتب ألفت في تاريخ الجزائر قبل أن تستعيد استقلالها، حيث كان أول هذه الكتب هو: «**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**» للشيخ مبارك الميلي، وثانيها هو: «**كتاب الجزائر**» للشيخ أحمد توفيق المدني.

وإذا كان كتاب الشيخ الميلي ينتهي عند بداية العهد العثماني، وكتاب الشيخ المدني ينتهي في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين؛ فإنّ كتاب الشيخ الجيلالي — في طبعاته الآخيرة— يمتد إلى نهاية الاستعمار الفرنسي في الجزائر، حيث أتمّ الشيخ بقية الأجزاء بعد استعادة الاستقلال، وهذه الكتب الثلاثة كانت سلاحا فعّالا واجه به الجزائريون ذلك السيل المنهمر من الكتب الفرنسية التي زيّفت تاريخ الجزائر، فنفت وجود امّة جزائرية، وجحدت وجود ثقافة جزائرية... ولهذا لم تكتف هذه الكتب الثلاثة بالحديث عن الجانب السياسي من تاريخ الجزائر؛ بل تعمّدت الإشارة إلى الجوانب الثقافية والحضارية وإلى الحديث عن بعض الأعلام مما « يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلده، وتمجيد تاريخه اللامع العظيم، والثقة بمستقبله الزاهر النير، مع نفخ روح القومية فيه، وإعداده لوصل حاضره بماضيه، حتى تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة: المحافظة على شخصيته وميزته، وتقدير أسلافه الأمجاد، والتمسك بدينه، والعمل على الإشادة بوطنه»[3].

إنّ كتابة تاريخ شعب من سحيق ماضيه إلى حاضره ليس أمرا سهلا، ويزداد صعوبة ومشقة بالنسبة لتاريخ الجزائر، خاصة في ذلك الوقت، ولهذا فإنّ أعمال الشيوخ الميلي، والمدني، والجيلالي تعتبر من أشق الأعمال، ﮋ ﮕ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮊ [فصلت: 35].

لقد قدر أولو النهى هذه الأعمال حق قدرها لما يعلمون من صعوبتها وجليل أثرها، فقد قال الإمام عبد الحميد ابن باديس للشيخ الميلي بعد صدور كتابه «**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**»: (إذا كان من أحيا نفسا فكأنّما أحيا الناس جميعا فكيف من احيا أمّة كاملة؛ أحيا ماضيها وحاضرها، وحياتهما عند أبنائها حياة مستقبلها، فليس — والله— كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال)[4]، وقال حسّان الحركة الإصلاحية الشاعر محمد العيد آل خليفة للشيخ عبد الرحمن الجيلالي:

إن الجزائر أنجبتك محققا	متحليا بالصدق في الأقوال
عزّت بمثلك في الشاب فأصبحت	مثل اللباة تُعَزُّ بالأشبال
إنّي لأشهد —والشهادة وعرة—	وعلى الرقاب ثقيلة الأحمال
أجهدت فكرك في شبابك باحثا	وعمرت وقتك فيه بالأشغال
متحملا عِبءَ الدراسة معرضا	عن كل لهو شاغل للبال[5]

لفت نظري في الشيخ عبد الرحمن الجيلالي أمرا لم نعهده في الجزائريين خصوصا وفي المسلمين عموما وهو الاعتراف بجهود المرأة والإشادة بها خاصة إذا كان ذلك في الميدان العلمي: فالشيخ عبد الرحمن الجيلالي أرجع الفضل في تأليفه كتابه القيم إلى الله عز وجل، ثمّ إلى العلماء الذين اغترف من بحار علومهم، ثمّ « لربة البيت والعفاف الجليلة الكريمة: قرينتي وشريكتي حياتي ورفيقتي في السير بهذا العمل المتواضع، المنعمة المبرورة أم

غالب – ميمي خداوج– سقى الله ضريحها من المؤازرة العظيمة فيما كانت تمدني به من تحقيقات تاريخية، وبحوث نفسية تستخلصها من مطالعاتها المستمرة وقراءاتها المتتابعة لكتب الإفرنج الباحثين في موضوع تاريخ الجزائر، فكانت رحمها الله تلخصها وتترجمها إلى العربية طيلة أيام إعدادنا لهذا التأليف وجمع شتاته من أوله إلى آخره... فكان من الواجب المحتم عليَّ نحوها أن أنوه باسمها، شاكرا لمساعيها الجليلة، وممجدا لمآثرها الحميدة ...».

لي مع الشيخ الجليل عبد الرحمن الجيلالي ذكريات لطاف منها أنني كنت جالسا إلى يمينه نتناول طعام الغداء في بلدة أولاد سيدي إبراهيم – بوسعادة– وفرغت من الأكل قبله فقلت: الحمد لله، فقال لي الشيخ: إذا كنت في مَلإٍ وفرغت من الأكل قبلهم فلا تجهر بالحمدلة لأنك ستحرج من معك إن كان ما تزال له رغبة إلى الطعام وتُظْهِره في مظهر الشره النهم.

رحم الله الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، وعفا عنه وجزاه الجزاء الحسن.

---

(1) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج4، ص 409، ط بيروت.

(2) المرجع نفسه: ج 4، ص 416.

(3) المرجع نفسه: المقدمة.

(4) مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2.

(5) محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 404-405.

عبد الرحمن الجيلالي: موهبة الحس التاريخي

أ.د. عبد الرزاق قسوم– الجزائر

مقدمة:

يجد الباحث، في حياة العالم الجزائري الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، عناء كبيرا في محاولة الإلمام بمكونات فكره، ومقومات شخصيته.

فالموسوعية التي اتسم بها، والمتضمنة للتنوع المعرفي داخل بنائه العقلي، والجامع بين حفظ القرآن، والثقافة الموسيقية، والولع بالمسرح، مرورا بالفقه، والتاريخ، والأدب، كلها مميزات للاختصاص في معارفه.

كما أن العصامية، التي فرضت عليه التنقل بين مختلف شيوخ العلم، مهما تباعدت أماكنهم، والأخذ من كل واحد منهم نصيبا، جعلت هذا العالم الجزائري كعقاب الجو، يصعب وضعه في قفص معين، أو سجنه ضمن اختصاص معرفي واحد.

لذلك اتسمت حياة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، بفسيفسائية علمية، سواء من حيث اختصاص العلماء الذين تخرج على أيديهم، أو المعارف التي تضلع فيها فأبدع.

ملأ عالمنا، القرن العشرين ببحثه ونشاطه، فكتب في المجلات، وخاصة مجلة الشهاب التي كان يصدرها العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ونشر العديد من الكتب، ككتابه القيم "تاريخ الجزائر العام" في أربع مجلدات، وتاريخ المدن الثلاث الجزائر، والمدية، ومليانة بمناسبة ذكرى تأسيسها على يد بولوغين، وكتاب العملة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، وكتاب ابن خلدون في الجزائر، وكتاب العلامة الشيخ محمد بن شنب، ومسرحيتا المولد النبوي والهجرة، وغيرها من الكتب، وهي كلها مؤلفات تضرب بعمق في تاريخ الجزائر والأمة الإسلامية، مما يرجح غلبة الحس التاريخي كموهبة لديه.

كما كان الجيلالي محاضرا نشيطا في ملتقيات الفكر الإسلامي المعروفة، التي تميز من خلالها بالكشف عن صفحات مضيئة من تاريخ وطننا وأمتنا.

ولا ننسى دوره الفعال في الفتوى، والتي دخل بها إلى كل بيت جزائري بلازمته المعهودة: "المحمود الله جل جلاله، والمصلّى عليه النبي وآله، والمدعو له الوطن ورجاله" وكانت هذه الفتاوي المنضوية تحت عنوان "لكل سؤال جواب" تتسم بالوفاء للمذهب المالكي، وبالواقعية في صياغة الأجوبة، والتسيير على طالبي الفتوى، بما لا يخل بالمصادر الدينية.

فإذا أضفنا إلى كل هذه العوامل المساهمة في صقل شخصية الشيخ، عامل الشيوخ الذين كونوه من أمثال الشيخ المولود الزريبي، والشيخ عبد الحليم بن سماية، والشيخ أبو القاسم الحفناوي، وغيرهم، أدركنا الدعائم التي ساهمت في إنشاء موسوعية الجيلالي، والخصائص التي ولدت لديه حاسة التاريخ، وفجرت موهبته.

1- خصوصيات الحس التاريخي عند الجيلالي:

تظافرت في تكوين الحس التاريخي لدى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، مجموعة من العناصر، فيها العنصر المعرفي، وفيها الذاتي والمجتمعي.

فمن الناحية المعرفية أهّله تكوينه على علماء، متضلعين في تاريخ الثقافة الإسلامية: إلى العناية "بالتاريخ العام" وبروز الحاسة التاريخية لديه، والتي نلمسها – كما سترى- في مختلف جوانب أبحاثه.

أما الناحية الذاتية، فإننا نكتشف فيها أنه بالرغم من عدم إتقانه للغة الفرنسية، واستعانته بالمرحومة زوجته في ترجمة ما يحتاج إليه، فقد وجدناه يستلهم من بعض المفكرين الفلاسفة، بعض أقواله وأحكامه، كما فعل مع ديكارت وغيره، وهو ما ساهم في تنمية الموهبة التاريخية ومنهجية البحث لديه.

على أن الوضع المجتمعي الوطني الذي كان سائدا، والذي فتح عينيه على واقعه المؤلم، قد كان المهماز الذي أيقظ ضميره، ودفعه في رحلة عن التاريخ، متلمسا قواعد البحث، وضوابط المنهج.

من هنا نجده يؤكد على أهمية التاريخ والتعريف به، كما جاء في كتابه تاريخ الجزائر العام، فنقرأ له عن علم التاريخ قوله: "علم تعرف به أحوال الماضين من الأمم الخالية، من حيث معيشتهم، وسيرهم، ولغتهم، وعاداهم، ونظمهم، وسياستهم، واعتقادهم، وآداهم حتى يتم بذلك معرفة أسباب الرقي والانحطاط في كل أمة وجيل"[1].

وتجلى الحس التاريخي لديه أيضا في انشغاله بمختلف أنواع العلوم كالأدب، والفقه، والمسرح، والموسيقى، وتولد الحاسة النقدية في كل ما تقع عليه عينه أثناء القراءة والبحث.

فقد وجدنا الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بحاسة نقده التاريخية، يستوقف قارئه عند أدق القضايا في الثقافة الإسلامية مثل رؤية "الهلال، وأهمية الاستنشاق في المحافظة على صحة الإنسان، والتعليق على محرر الهلال في حديثه عن عد ألفاظ اللغة العربية، وأصل كلمة قبعة، هل هي عربية أو أجنبية، وتعريف كلمة هاته كلفظ إشارة، وغير ذلك.

فعن رؤية الهلال في الصوم، يطرح عالمنا للبحث قضية الرؤية بالعين المجردة، واستعمال الأجهزة التكنولوجية كالتلسكوب، ويتساءل بهذا الخصوص: "ما هو الفرق بين "التلسكوب"، و"المرآة الهندية" المعروفة عندنا بالنظارة "جرميل" ؟

ويضيف والآن: ما قول سادتنا العلماء، وقد ظهرت رؤية بصرية جديدة بواسطة المرآة المسماة باللسان الإفرنجي التلسكوب، وفائدتها تقريب البعيد للبصر، وهي من أهم اختراعات هذا العصر، وأجل مبتدعاته ؟[2]

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط 2، مزيدة 1965، ج 1، ص 23-25، نقلا عن د/ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، ص 303.

[2] عبد الرحمن الجيلالي، سؤال عن رؤية الهلال، الشهاب، المجلد الثاني 2001، دار العرب الإسلامي، ص 896.

وفي مقال آخر له عن "الحكمة في تشريع الاستنشاق"، يستهل مقاله بقوله: " مر علينا حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا، وما ذاك إلا من غفلتنا عن أسرار الشريعة وحكمتها، وهذا هو الباعث على تركها وهجرها بالكلية".[1]

ويمضي في تشخيصه لهذا الواقع فيضيف: "ألم تر إلى بعض الأجانب كيف يبذلون كل وسعهم من "الأموال القارونية"، " والأعمار النوحية" في البحث والتنقيب عن أسرار شريعتنا.. انظر إلى غالب الدكاترة كيف حكموا بعد التجارب المتوالية بأن العلاج المائي نافع في جميع الأمراض، وخصوصا أمراض الأنف من زكام وصداع وغيرها"[2].

ويختم الشيخ تحليله بقوله: "وقد قال العلامة مهاتما غاندي زعيم الهندوس: " قليل من الناس يعرفون القيمة الصحيحة للماء البارد، ويمكن أن يستعمله حتى أضعف الناس بنية، فالتلفف بثوب مبلول بالماء البارد نافع جدا في الحمى، والجذري، والأمراض الجلدية، ويمكن لجميع الناس استعماله على قواعده، بدون أدنى خطر"[3].

أما عن أصل كلمة قبعة Chapeau فقد كتب في عام 1929، أحد أعضاء المجمع العلمي بدمشق، وهو الأستاذ أحمد المغربي، مقالا وذهب فيه إلى أن كلمة "قبعة" أصلها عربي، فيرد عليه الشيخ الجيلالي بهذا الأسلوب قائلا: "فليسمح الشيخ كي أتقدم له منتقدا هذه الفكرة انتقادا أدبيا حرا"[4]، ويضيف الشيخ الجيلالي: "والرأي الذي أراه، وأعتقده، وأسكن إليه أن اللفظة ليست عربية البتة، وإنما دخيلة من لغة أجنبية أعجمية، ألا وهي العبرانية، ولي في صحة قولي هذا حجج كبرى ودلائل ناطقة"[5].

---

[1] الشهاب، المجلد الثالث، ص 72.

[2] المصدر السابق.

[3] المصدر السابق صفحة 73.

[4] الشهاب، المجلد الخامس جويلية 1929، صفحة 564.

[5] الشهاب، المجلد الخامس جويلية 1929، صفحة 566.

هكذا إذن نرى أن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بحسه التاريخي النقدي، يتصدى لقضايا عصره آنذاك فيوسعها بحثا، وبالأسلوب الأدبي، النقدي الهادي، المدعم بالوقائع التاريخية والحجج العلمية، والبراهين الناطقة.

2- مجالات التاريخ عند الجيلالي:

وظف عالمنا مادة التاريخ توظيفا موضوعيا، فعالج تراجم الرجال كما فعل مع العلامة الشيخ المكي بن عزوز، فتتبع مراحل حياته التاريخية، عبر كل البلدان العربية والإسلامية التي انتقل إليها، مستخلصا من ذلك أفضل الدروس.

من ذلك ما يذكره عن البوعث لذلك، إذ يقول:

"ونحن مبعوثون على هذا العمل بباعثين قويين.

الأول: علمنا بأن الرجل جزائري الأصل، جميل الذكر والأثر في أوساطنا، وله من مسلمي الجزائر أنصار عدة، وإخوان كثيرون.

الثاني: موقفنا موقف التعجب ممن يهملون ذكر أسلافهم الصالحين، ورجالهم العاملين، ويلتفتون للأجانب، فيشاركونهم في ذكرياتهم، واحتفالاتهم الساذجة الباردة.[1]

كما تطرق لعلماء آخرين من أمثال العلامة الشيخ محمد بن شنب، الذي خصص له كتابا كاملا، للتعريف به، والإشادة بقدرته العلمية.

ولم يقتصر مؤرخنا الجيلالي على التراجم الرجال في توظيف مادة التاريخ، بل وجدناه يستغلها لأغراض اجتماعية وثقافية، وغير ذلك...

ففي المجال الاجتماعي، وجدناه يخصص بحثا هاما، هو موضوع محاضرة ألقاها في نادي الترقي حول أخطار الخمرة، فيقول مشخصا بموضوعية الواقع الاجتماعي للأمة

[1] الشهاب، المجلد السادس، ديسمبر 1930، صفحة 661.

وقد كذب من قال أن الكحول تمنع العدوى، وتدرأ الأذى، نعم كثيرا ما نقرأ في زجاجات الخمور كلمات إغرائية ومحبذة فيها"[1].

ثم يدعم قوله هذا بمختلف الحجج لتوعية الناس بمخاطره، فيستغل في ذلك الحكمة، والعلم، وحتى النادرة.فهو يستعير في الحكمة من ديكارت مقولته البليغة: "إنما الخمرة لص يدخل من فمك ليسترق منك عقلك".

وعن العلم يقول: " كوّن الأوروبيون جمعية لمقاومة أنواع المسكرات، بلغ عدد أعضائها في سنتها الأولى خمسة وأربعون مليونا نسمة"

ومن النوادر ما ذكره عن أحد المحدثين، وهو ابن أبي الدنيا فيقول في ذلك، مر ابن أبي الدنيا برجل سكران، وهو يبول في يده، ويمسح ببوله وجهه، كهيئة المتوضئ ويقول: "الحمد لله الذي جعل الإسلام نورا، والماء طهورا"[2]. وكل ذلك مبالغة منه في التشنيع على شارب الخمر.

3- مكانة تاريخ الجيلالي ضمن التاريخ الجزائري:

نلتقي بمقومات الحس التاريخي عند الجيلالي في أكثر من مجال، كما لاحظنا ذلك من خلال بعض الأمثلة التي قدمناها. ويجدر بنا بعد هذا أن تخصص وقفة تأملية طويلة لمقال نقدي تاريخي، خصصه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي لكتاب تاريخ الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدني.

ففي مقال بعنوان "كتاب الجزائر تجاه النقد" مهد الجيلالي لعملية النقد التي خص بها كتاب توفيق المدني بمجموعة من الاعتبارات، حول النقد، وأهميته، والمجالات المختلفة التي تناولها فيقول: "وقبل أن ينتشر فن النقد، ويعلن بين العلوم باستقلاله، وأنه الفن الجميل

---

[1] الشهاب، المجلد التاسع، جوان 1933، صفحة 278.

[2] المصدر السابق، صفحة 319.

الذي "جاءت به قرائح الأفذاذ من أسلافنا الكتّاب في هذا الفن كابن قتيبة، والآمدي، وابن خلدون، والقاضي أبي الحسن صاحب الوساطة، وابن رشيق..."[1]

إن هذا النموذج التمهيدي لممارسة النقد، إنما سقناه لندلل به على عمق المرجعية التاريخية التي يغرف منها الشيخ الجيلالي، ولنمر من خلال ذلك إلى تبرير ما سيأتي به من نقد في حق كتاب الأستاذ توفيق المدني.

وفي أدب رفيع هو أدب العلماء يبدأ الشيخ الجيلالي نقده للكتاب، فيستهله لهذه العبارات: "ولا ريب أن الأستاذ توفيق يعلم مزايا الانتقاد هذه، ويتحقق فائدتها العامة، فيتقبل منا مناقشاتنا معه في –كتاب الجزائر– أحسن قبول، ولا أظنه يكون من هؤلاء القوم الذين يزكون أنفسهم، ويرونها وراء أو فوق ما أقرته قوانين البحث وأساليب العلم والتأليف"[2].

وفي هذا السياق يسوق الشيخ الجيلالي ما أخذه على الكتاب من المآخذ التي بلغت 15 مأخذا، على النحو التالي:

1- ننتقد عليه شدة إيجازه لتاريخ الدول الإسلامية بالجزائر والحكم عليها.

2- لم نر الدولة الحفصية بين مصاف الدول المالكة لهذا القطر، وهي من الدول الإسلامية ... التي طالما حكمت البلاد وأخضعت العباد.

3- أطلق المؤلف على بعض الحكومات الإسلامية لقب الدولة، وبعض لقب الإدارة كالأغالبة، والفاطميين والموحدين. فماذا رعى في ذلك ؟ استصغارا منه لهذه الدول التي امتلكت مصر والشام، أم هنالك شيء آخر ؟

4- كان عليه أن يشرح اسم عاصمة الوطن الجزائري القديم "إيكسيوم" بكسر الهمزة وضم الكاف وسكون السين، لشدة مساسه وعلاقته الأكيدة بتاريخ العاصمة، مثل ما شرح بعده الاسم القديم لقسنطينة "سيرتا".

---

[1] الشهاب، المجلد الثامن، ماي 1932، صفحة 264.

[2] المصدر السابق، صفحة 267.

5- ذكر في الفصل الذي عقده لآثار عاصمة الجزائر الإسلامية، الجامع الكبير، ووصفه بالعتيق، والذي هو شائع ومعروف بالتواتر عن عامة الأهالي، وخاصة العلماء، ومنهم شيخنا الدكتور محمد بن أبي شنب، في مقالة له نشرت بالتقويم الجزائري، أن العتيق هو مسجد سيدي رمضان الكائن بالجبل. وهكذا عن إمام المسجد الشيخ أبي يعلى الزواوي.

6- يقول في تاريخ تأسيس الجامع الجديد بالعاصمة، أنه كان سنة 1660 م وهو لا يوافق الواقع من التاريخ الهجري الذي هو مزبور ومنقوش بجدار قبلته من عهد البناء سنة 1070 ه، بل نجده يطابق تماما سنة 1659 مسيحية.

7- يقول المؤلف في صفحة 22 أن الدولة الرستمية دامت 136 عاما، والذي تراه في معتمد كتب التاريخ والجغرافيا أنها لم تجاوز المائة والثلاثين عاما فقط. [راجع كتاب المسالك والممالك للبكري ص 86، وهو عندي من أوثق المصادر التاريخية].

8- عزى المؤلف تأسيس البليدة لسيدي أحمد الكبير بإعانة مهاجري الأندلس في سنة 1553م، بينما نراه يؤرخ وفاة هذا الرجل سنة 1550 م من الصفحة نفسها، فما هذا الاضطراب ؟

9- تكلم المؤلف عن تاريخ الصحافة العربية بهذا القطر، وعدّد ما يصدر فيه من الجرائد والمجلات العربية، اليوم وقبل اليوم، وأغفل مجلة إفريقية، التي كانت تصدر بالعاصمة، تحت إدارة مؤسسها "يودي لوي" سنة 1919 م 1337 ه. كما أنه أغفل عن ذكر بلد جريدة صدى الصحراء – بسكرة.

10- انتقد المؤلف في صفحة 365 أصحاب الموسيقى، اليوم، إدخالهم الآلة المعروفة قيثارة، وشرحها بقوله – السنيترة. وفي الحقيقة أن هذا اللوم لا يرجع إلى هؤلاء الناس، بل يرجع إلى أول من عرف هذه الآلة بثلاثة عشر

قرنا قبل المسيح. وقد عرفها العرب قديما وتغنوا بها... وليست القيثارة – أيضا– هي السنيترة، فإن الأولى يركب عليها إثني عشر وترا، والثانية ثمانية فقط، وهما مختلفتان وضعا، كما أنهما مختلفتان طبعا في ترتيب الأوتار، والأصوات، والاستعمال.

11- علق في صفحة 259 على لفظ "الكركات" بقوله وهذه الكلمة تحريف الحرقات، والحال أنها من لغة دولة مستقلة هي التركية، فمن أين جاءها التحريف ؟ إلا أن يكون الترك قد أخذوها من العرب وحرفوها.

12- أرخ في صفحة 95، وفاة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الدبسي سنة 1325. والصحيح أنه حوالي سنة 1338.

13- أهمل المؤلف في قليل من المواضع، تعيين التاريخ الهجري من المسيحي.

14- كان عليه أن يبين الأصل في وضع بعض المسميات، كاسم "سور الغزلان" مثلا، فينبه على معنى الإضافة الحقيقي فيه، وأنه كان من قبل يدعى "أورزا" بضم الهمزة وسكون الراء وفتح الزاي، وهو اسم لاتيني، ولما جاء العرب قالوا "سورا وزرا" ثم حرفه العامة إلى ما هو عليه الآن.

15- يرى في صفحة 246 تاريخ تأسيس مدينة وهران سنة 902 هجري، والذي تعلمه عن البكري وأضرابه، أنها تأسست على يد محمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين سنة 280هـ[1].

الخاتمة:

مما سبق ذكره، يتجلى لنا العلامة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، في عصامية وموسوعية، باحثا بارعا في كل علم تناوله، ولكنه ضرب أروع الأمثلة في فن التحقيق التاريخي..

[1] المصدر السابق صفحات 267- 268- 269- 270- 271.

ولا أدل على ذلك مما ساق من الملاحظات الدقيقة لكتاب المؤرخ الجزائري الأستاذ أحمد توفيق المدني.

إن هذه الملاحظات تقدم للباحثين منهجية في قراءة الكتاب التاريخي، والتعامل مع المؤلف، حتى من خلال الاختلاف معه، في أدب الاختلاف.

كما يستفيد القارئ لهذه الملاحظات من دقة الحس التاريخي وعمقه، في القضايا ذات الحساسية بالتاريخ الوطني والإسلامي.

ولقد استوقفتني من ملاحظاته عمق ثقافته الموسيقية، إلى جانب الثقافة العامة عنده، وهذا عامل هام في ثقافة المؤرخ.

من هذه الانطباعات كلها، أردنا تسليط الضوء على شخصية العلامة عبد الرحمن الجيلالي، الفسيفسائية الاختصاصات، التنوعية التكوين، وهو ما يجعل منه عالما، يضرب بعمق في نوعية العلماء الموسوعيين الأسلاف في ثقافتنا الإسلامية.

" الشيخ العلامة عبد الرحمن الجيلالي إرثٌ من بركاتِ العصرِ"
- لمحاتٍ من شخصيتهِ العلميةِ وجوانبَ من أعمالهِ -

د/ حسَّــان مُوهُوبــِي

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

إن الاعتراف بالفضل من أهل الفضل ينم على رقي الحس الحضاري والوعي بقيمة العلم والمعرفة، وقد رفع الله من شأن العلم والعلماء فقال تعالى:"يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ"[1]، وفرّق بين العالم والجاهل فقال أيضا:"..قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ"[2]، كما ذكر الماوردي– في"أدب الدنيا والدين"[3]– عن بعض البلغاء قوله :"إن من الشريعة أن تجلّ أهل الشريعة". فكان ذلك دعوة إلى تبجيل العلماء العاملين الذين نفعوا العباد والبلاد وتكريمهم أحياء وأمواتا، فهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان.

و الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي– رحمه الله – علاّمة من الجزائر، قد عرفه الجزائريون – من الناحية الثقافية–: أستاذا أديبا، مؤرخا، وفقيها عالما بأمور الدين، – ومن الناحية الاجتماعية–: معلما، واعظا مرشدا. – ومن الناحية الدينية–: مفتيا مالكيا مقتدرا، عاملا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، نصوحا للأمة، صالحا مصلحا.

بل كان رصيدا زاخرا من النشاط العلمي والتعليمي، ومساهما في ميادين المعرفة قلما وكلمة لما قدمه للأمة من محاضرات و أبحاث قيّمة كان رحمة الله عليه قد شارك بها في ملتقيات الفكر الإسلامي و في غيره من المناسبات. ثم من خلال الدروس و الفتاوى –

---

[1] – سورة المجادلة:11

[2] – سورة الزمر: 09

[3] – الصحيفة رقم (56)

المتميزة بالدقة والاختصار- في الإذاعية الوطنية؛ عبر برنامج رأي الدين في أسئلة المستمعين الذي اشتهر به الشيخ العلامة عند الجزائريين، حيث لعب هذا برنامج – من دون منازع – دورا كبيرا في توعية الناس، وإفادة الناشئة في فترة الربع الأخير من القرن الماضي بحكم اعتماده على نهج الإصلاح، وتبسيطه الدين والفقه المالكي للعامة إلى أن منحته جامعة الجزائر الدكتوراه الفخرية. فالشيخ الجيلالي- رحمه الله - إرثٌ من بركات العصر وبقية السلف الصالح، يجب أن تتناقل الأجيال وتنتفع به حفظا لذاكرتها. ولقد قال ابن الجوزي: "سبحان من منّ على الخلق بالعلماء والفقهاء الذين فهموا مقصود الأمر، ومراد الشارع فهم حفظة الشريعة، فأحسن الله جزاءهم"[4].

شخصية عبد الرحمن الجيلالي العلمية

من يتفحص الأعمال العلمية الحافلة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، سيشده الشوق إلى النهل من معين هذه الشخصية العلمية الجزائرية البارزة، والإفادة من جهودها لما خدم به الناشئة أولا، والأمة ثانية .

فلقد أبان- بكل دقة – عن قدرة في توعية الناس وتفهيمهم كتاب الله تعالى وشريعته، و عن التبليغ بطريقة أدبية فقهية فائقة، وبأسلوب منهجي، موظفا بذلك علمه الديني وثقافته الوطنية، فكان وجوده في زمانه إيجابيا بمعنى الكلمة. كما لم يدخر جهدا في سبيل إعلاء كلمة الوطن، والدين الحق عبر إنتاج علمي في مختلف الميادين (التاريخية، الأدبية، الفنية و الدينية)، كما زوّد المكتبة الجزائرية بالعديد من العناوين المهمة في المجال الأكاديمي وفي غيره، منها:"تاريخ الجزائر العام"، وهو تأليف يعد مرجعا في تاريخ الجزائر لا يستغنى عنه، ثم "كتاب حول المساجد في الجزائر"، و"تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، المدية، مليانة"، و"محمد بن أبي شنب حياته وآثاره"، و"العملة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر" و"ابن خلدون في الجزائر"... ، فضلا عن مقالات كثيرة نشرها

4 - صيد الخاطر، ابن الجوزي، الصحيفة رقم 253

الصحف والمجلات المختلفة ومنها: جريدة الشعب الثقافي، مجلة الجزائر الأحداث، مجلة الثقافة، مجلة هنا الجزائر، ومجلة الأصالة حيث احتوت هذه المجلة – الصادرة عن المجلس الإسلامي الأعلى – على مجموعة من الأبحاث لشيخنا العلامة في مسائل (التاريخ، و اللغة العربية، و الدين) عبّرت عن أصالة ووطنية لديه، مرسخة بذلك مجموعة المبادئ العامة للشخصية الجزائرية التي تكونت في أحضان حضارة عربية إسلامية.

كما كان شيخنا العلامة – رحمه الله – بذلك منبرا للتعبير عن هوية الأمة الجزائرية، وتاريخها الوطني، وانتمائها الحضاري الإسلامي، حين قدم في شتى الموضوعات التاريخية والدينية تلك الأبحاث القيّمة مشاركا بها في ملتقى الفكر الإسلامي وفي غيره من المناسبات الثقافية والدينية.

ففي محاضراته المنشورة في الأعداد التي قمت بقراءتها و تلخيصها، استلهمت تلك المبادئ السامية التي كانت تفصح عن هموم الشيخ الجيلالي في الغالب. فلقد عالجت مجموعة أعماله العلمية و مقالاته البحثية مسائل تاريخية، وأخرى فقهية شرعية ذات العلاقة بعلوم الشريعة وبأصول الحكم في الإسلام.. .

والذي استرعى اهتمامنا بالذات تلكم البصمات الخالدة ذات الصبغة العلمية التي استنبطنا مضامينها من خلال ضروب صريح الإفادة من تلكم المقالات، والبحوث الأكاديمية، والمحاضرات العامة المنشورة بمجلة الأصالة تخصيصا، تقتضبها هاهنا تنويها فيما اتسمت به جهود هذا الرجل التي تُبرز العالم الجزائري، وتميزه كأنموذج لشخصية علمية أكاديمية جزائرية بارزة ببلادنا.

لقد سطر الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي بحوثا شتى في مختلف الفنون والتخصصات العلمية، فكان مما كتب :

1-"من بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين"(مجلة الأصالة العدد 14 سنة 1973) الصفحات 155 إلى 159.

2-"لمحة عن زحف علي بن غانية الميروقي على بجاية 580ه 1184م"(مجلة الأصالة العدد19سنة 1974) الصفحات31إلى 73

3- "تلمسان والقدس الشريف" (مجلة الأصالة العدد 26 سنة 1975) الصفحات 104 إلى 110.

4-"الخلافة وإمارة المؤمنين أوالبيعة ومبدأ الشورى في الإسلام"(الأصالة العدد28 سنة 1975) الصفحات 94 إلى 101.

5- "حول مسجد سيدي بومروان العتيق بعنابة" (مجلة الأصالة العدد 34 سنة 1976) الصفحات 184 إلى 198.

6- "أبو يقوب يوسف الورجلاني وكتابه الدليل والبرهان"(مجلة الأصالة العدد 41 سنة 1977) الصفحات 162 إلى 171.

7- "شخصيات لامعة من الأوراس" (مجلة الأصالة العدد 60 سنة 1978) الصفحات 103إلى114.

8- "هؤلاء التوارك الملثمين" (مجلة الأصالة العدد 72 سنة 197) الصفحات 18 إلى 35.

9- "التجديد والمجددون في الإسلام" (مجلة الأصالة العدد 78 سنة 1980) الصفحات 265 إلى 270.

10 "حاجة البشرية إلى التشريع السماوي" (مجلة الأصالة العدد 79 سنة 1980) الصفحات 43 إلى 55.

11- "الهجرة ودار الندوة: تمثيلية ذات خمسة فصول"(مجلة الأصالة العدد91 سنة1981)الصفحات113 إلى 131.

والمتأمل بعين البحث في تلكم المواضيع والنواحي التي خاض فيها الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بالتأليف والكتابة سيجد شخصيته قد تميزت بما يلي:

أ – الانتماء الحقيقي الحضاري للأمة الجزائرية والتمسك بالهوية العربية الإسلامية.

ب- الصبغة العلمية، والثقافة بالدليل والشرع.

ج- حس في اعتبار المقاصد الشرعية مع الاتكاء الفقهي في التحليل والتوجيه العلمي المنهجي.

وتلك مناهل لا مرية فيها لوطنيته، وثقافته الشرعية المتنوعة.

عبد الرحمن الجيلالي: أنموذج في التواضع وإجلال الغير

وهذا من شيم العلماء الفقهاء، ولا غرو أن يتصف به الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، فلقد ألفيناه في محاضرة تحت عنوان (حول مسجد سيدي بومروان العتيق بعنابة) - يقول: "بعد تقديم أخلص التحيات والتقدير الأوفر لكامل أعضاء هيئة وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، وفي مقدمتهم جناب الأخ الكريم سيادة الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم على حسن ظنهم بهذا العاجز الماثل أمامكم في اقتراحهم عليه إلقاء ما أسموه محاضرة بهذا القصر المنيف مع أنني ليس لي يد بهذا الأمر ولا قبل لي بهن لكنه نزولا عند رغبتهم الملحة سأحاول جهدي في التحدث إليكم الليلة أيها الإخوة الكرام كمحاضر، أو قل كمسامر يطوي هزيعا من الليل في حديث أعده لإخوة له أوفياء يحوم حول التاريخ والفن المعماري... و لقد اخترت الكلام حول هذا الموضوع لما يربط بين وزارتنا الموقرة هذه وبين المسجد بصفة عامة من الاتصال الوثيق: روابط متينة وأواصر ثابتة، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالتعليم الأصلي والشؤون الدينية مصدرهما واحد، وذلك المصدر هو المسجد".[5]

ثم في المحاضرة أخرى - ألقاها بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة بتاريخ 1979/06/11- بعنوان (حاجة البشرية إلى التشريع السماوي) - حيث يقول: "أتقدم بالشكر إلى هيئة المركز الثقافي الإسلامي، حيث أنها لاحظت في أخيكم هذا حسن ظنها

[5]- مجلة الأصالة: العدد 34 سنة 1976 الصفحات 185/184 في محاضرة للشيخ تحت عنوان، (حول مسجد سيدي بومروان العتيق بعنابة)

وأنه يلقي محاضرة، أسمتها محاضرة وجعلت الموضوع دينيا باقتراح منها، وإن شاء الله نكون عند حسن ظنها". [6]

عبد الرحمن الجيلالي ذو هويّة وطنية إسلامية

يجدر بنا التنويه ههنا ابتداء بما تضمنته تلك المقالات والمحاضرات و الأبحاث ذات الطابع التاريخي من لطائف العلم وحكمه ودرره، بحيث لم يتوانى لسان الشيخ عن توعية الجزائريين بأهمية تاريخهم الوطني والتأكيد على هويتهم العربية الإسلامية.

فمن درر كلمه قوله: " لا جرم في أنّ التاريخ هو أكبر عامل على الروح الوطنية، حتى ليصح لنا أن نقول بأن الوطن هو تاريخ الوطن، ولا حياة لأمة إلاّ بإحياء ماضيها". [7]

بل وحيث كتب – رحمه الله – بعد ذلك عن أهالي القطر الجزائري والشمال الإفريقي عبر التاريخ ، من خلال دراسته الماتعة الموسومة "هؤلاء التوارك الملثمين"،– وهي من أطول المقالات المنشورة بمجلة الأصالة –، إذ كان يقول: "ومن بين القبائل التي عمها الإسلام في تلك المنطقة الصحراوية، قبيلة (تاركة)... وهم القبائل الملثمون الساكنون بيلادهم التي سماها لنا ابن خلدون (هكارة) وهي المعروفة اليوم باسم (الهكار) بالجيم أو الكاف المنطوق بها قافا معقودة...، – إلى أن يقول في الأخير نقلا عن البكري والإدريسي وابن خلدون في سياق سردهم لحوادث فتوحات عقبة بن نافع بالمغرب–: ...وفيما يعود إلى تاريخ العقيدة الإسلامية والتدين بالإسلام عند هؤلاء الملثمين، نرى فيما تذهب إليه بعض الروايات أن فتوحات عقبة بن نافع الفهري في دورته الثانية 62هـ/682م أن عقبة أول من حمل أهل اللثام على الإسلام، ثم اتصل بهم بعد ذلك موسى بن نصير (86هـ/705م) فدعاهم إلى الإسلام مرة أخرى فأقبلوا عليه ودخلوا فيه". وقال: "وإنما

---

[6]– مجلة الأصالة الصحيفة 43 العدد 79 سنة 1980

[7]– قالها في محاضرة بعنوان: (حول مسجد سيدي بومروان العتيق بعنابة) ألقيت بالمركز الثقافي الإسلامي بتاريخ 6 ربيع الأول 1395هـ الموافق 19 مارس1975م ونشرت في مجلة الأصالة العدد 35/34 سنة 1976: الصفحات 185/184 في عدد خاص عن تاريخ وحضارة عنابة عبر العصور.

الأمر الذي نتحققه بشأن ازدهار الإسلام في هذه المنطقة الصحراوية النائية، هو منذ حل بها الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين الجزولي صحبة زعيم قبيلة (كدالة) الأمير يحيى بن إبراهيم (430هـ/1039م)، فمنذ يومئذ أخذت الدعوة للإسلام تنتشر بتلك البقاع من صحراء إفريقيا، وعمها للإسلام. وكان لهؤلاء الملثمين فضل تعميمه ونشره بجنوب صحراء القارة الذي هو يشمل اليوم عشر دول إسلامية مجاورة مستقلة" أهـ.[8]

ومن قوله أيضا: "ولم يقتصر تأثير الفتح على نشر الدين الإسلامي بين هؤلاء الأقوام بل جلب معه إليهم أساليب جديدة في رعاية الماشية وتكاثرها وفي صنع الأسرجة، وفنون العمارة والبناء، والألبسة، والغدارة والتنظيم، وظهر أثر الإسلام في كل مناحي الحياة، وصار الانتساب إلى الأب هو القاعدة بعد ما كانت الأم هي المرجع في نسب الأسرة، وقام الإسلام بدور كبير في تغيير الأنظمة السياسية والاجتماعية".[9]

---

[8] – مجلة الأصالة العدد 72 سنة 1979 الصفحات 18إلى35)

[9] مجلة الأصالة العدد 72 سنة 1979 الصحيفة 35

أما وهذا الشأن فألفيناه من ضروب النظر ودقة التحليل لديه في مجال الدراسات الإسلامية و جزئيات المسائل التاريخية والشرعية. حيث ذهب رحمه الله إلى تقرير وجهة نظره فيما حاصل في الأمة حول موضوع ((الخلافة وإمارة المؤمنين، أو البيعة ومبدأ الشورى في الإسلام))، مُبديا بنبرةٍ مهمومٍ يائسٍ رأيه الخاص، معتبرا الخوض في هذا الموضوع جدلا عقيما لا معنى له عنده اليوم ولاطائل منه.. .

فبعدما سرد الخلاف الحاصل بين الفرق والطوائف الإسلامية قاطبة– حول مقولة ((الخلافة والإمامة العظمى)) قال– رحمه الله تعالى –: ["وهكذا نجدهم في خلاف مستمر لا يستقرون على رأي أو مذهب. وإني لست هنا بصدد مناقشة كل هذه الآراء ونقدها وتمحيصها وتمييز صحيحها من غيره...، وكذلك لا أحب أن أعزو أيا من هذه الأقوال ثبت لطائفة أو فرقة معيّنة من الفرق الإسلامية التي خاضت في هذا الموضوع، بل يكفينا منها أنها مسلمة. إذ أنه لا يكاد يسلم النقاش في هذا الموضوع من الوقوع في معارضة شديدة وتصلب في الرأي، وتعصب للمذهب وللسياسة أيضا.(كل حزب بما لديهم فرحون) وهذا ما أشار إليه إمام الحرمين في الإرشاد حيث قال: إن الكلام في هذا الباب يعتريه نوعان محظوران عند ذوي الحجاج: أحدهما ميل كل فئة إلى التعصب وتعدي حد الحق" ...،

وكما قال أيضا: "وإنما حسبي أنني أشرت هنا إلى مبلغ دقة موقف علماء الإسلام وتقصيهم في البحث في هذا الباب وشدة الخلاف في ذلك. وهنا وقع الكثير من أرباب الطوائف والفرق، والمذاهب الكلامية والفلسفية في مزالق حرجة ومسالك شائكة، وقانا الله شرها"[10].

[10] – مجلة الأصالة: العدد 28 نوفمبر / ديسمبر1975 الصحيفة 97

و قال أيضا: "والخلاصة -عندي- ولاسيما بعدما تطور نظام الحكم اليوم عند جميع الشعوب الإسلامية، حيث ولا حدود تقام، ولا تطبيق لأحكام القرآن في المعاملات، ولا نظام لبيت المال، ولا نظام للصدقات، والزكاة، و العشور، ولا للخراج، ولا للجهاد، ولا للبيوع و القراض و الإجارات..إلخ ، كل ذلك دخله التحريف والتبديل والتغيير والحذف، فلم يبق مع ذلك لمقام أمير المؤمنين أي حرمة ولا هيبة، وعليه فلا أرى حرجا في أن يتلقّب من شاء اليوم بلقب أمير المؤمنين، ولْيَدّعِيه من شاء، فلا معنى له عندي اليوم. وما هو إلا كما قيل: مما يزهدني في أرض أندلس + أسماءُ معتصم فيها و معتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها + كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

وليتسم به من أحب، فهو عندي لا يزيد عن من يسمى اليوم بسيف الدين وسيف الإسلام، أو محيي الدين وعضد الدين أوركن الدين، فهو مطلق علم أو (اسم يُعيِّنُ المُسمى مطلقا). وكان من فضل الله علينا وعلى الناس أن كانت مسألة منصب الإمام ليست ركنا يعتقد في الدين، ولا هي من أصول الاعتقاد كما قال إمام الحرمين في الإرشاد" أهـ][11].

وهو كما قال شيخنا عبد الرحمن الجيلالي - رحمه الله -، فلقد سبقه إلى ذلك التوجّه العلامة إبن خلدون أيضا إذْ صرّح: "إنه لم يبق من الخلافة بعد زوال سلطان العرب إلاّ اسمه.."[12] فرحمة الله على الجميع .

عبد الرحمن الجيلالي فقيها بالواقع المعيش

و النموذج في ذلك محاضرته (التجديد والمجددون في الإسلام) وهي محاضرة قيّمة في المجال الشرعي أنبأت عن فقه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بالواقع المعاصر، إذْ قدم من خلالها حدودا لمعنى الاصطلاح الشرعي للتجديد، وعبر خطابٍ عقلي رصينٍ خاطب به الأمة

---

[11] - من بحث الشيخ عبد الرحمن الجيلالي تحت عنوان "الخلافة وإمارة المؤمنين أو البيعة ومبدأ الشورى في الإسلام" منشور بمجلة الأصالة العدد 28 سنة 1975 الصفحات 101/100

[12] - مجلة الأصالة : العدد 28 سنة 1975 الصحيفة 101

حُكاما ومحكومين. بل حرر مفهوم التجديد في الدين وهو يطرح السؤال: فماذا يُراد من معنى التجديد في الدين؟... . ثم يجيب ويقول: [..."فالتجديد هو كما نرى يحقق لنا استمرار حيوية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، ومسايرته للتقدم والرقي على مر الأوان، . ويقول: فإلى التجديد إلى التجديد أيتها النخبة الرشيدة، ولا سيما في فروع المعاملات المبنية على مصالح كانت تليق بزمن مضى ولا تتوافق الزمن الحاضر، فدينكم دين الفطرة، ومن معاني الفطرة الخلق والإبداع والاختراع، وأن فيما وضعه لنا العلماء من القواعد العامة الهامة في التشريع مثل النظر في المصالح المرسلة، وفي القياس، والنظر لإلى العرف والاستحسان والاستصحاب، وقواعد الحضر والإباحة، وأحكام الضرورة، وقولهم ما ضاق شيء إلا واتسع كما يقول الغمام الشافعي. إلى ما هنالك من موافق للشريعة جاء فيها فتح باب الذرائع لا سده – وذلك نظرا لما يترتب على سده من الضرر وعلى فتحه من النفع. وحيثما كانت المصلحة فيما لا يعارض النص أو تعاليم الإسلام ومبادئه العامة فثم حكم الله...، ففي هذا متسع رحب ومجال فسيح للتجديد..."،

ويقول:"فلنسر على ضوء هذه المبادئ الإسلامية السامية حتى لا نضطر إلى استعارة أو استيراد قوانين وأحكاما أجنبية عنا ودخيلة على ديننا فنعود بها إلى الخضوع وسيطرة الاستعمار بأنفسنا، وفي ذلك إعراض منا عن الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي الثري..."،

ويقول:" ويكفي لمعرفة ما للتشريع الإسلامي من منزلة رفيعة وفضل عظيم على قوانين وشرائع العالم أجمع أن نسمع لقول حجة الفقه المقارن وعمدة علم الحقوق بأوروبا في العصر الحاضر وهو الأستاذ (إدوار لامبير) حيث يقول لتلامذته:"إن لديكم في الفقه الإسلامي كنزا مخبوءا ينتظر من يجلوه لعالمنا المعاصر ليهتدي بهديه، ويسترشد بمنطقه في

الخبرة المدهمة التيب أعجزت عالمنا الآن على التمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وصرفته عن التوفيق الحكيم بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع"].[13]

عبد الرحمن الجيلالي مطّلعا في ما يكتب و يبحث

وكان رحمه الله تعالى كشأن الباحثين الأكاديميين واسع الإطلاع بمصادر العلم، ملتزما بالمنهج الأكاديمي من حيث التوثيق للمعلومة التي يريد أن يكتب فيها أو يحاضر. فلقد وجدناه يقول في نفس محاضرته (التجديد والمجددون في الإسلام): "وقد لقيت فكرة التجديد هذه عند القدماء عناية كبرى، فاهتم بها كبار العلماء فألفوا فيها كتبا نفيسة ومنظومات مفيدة ... فكان منها: كتاب(التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة) للجلال السيوطي. كما أن له نظما في الموضوع تحت اسم (تحفة المهتدين في بيان أسماء المجددين) وعلى هذا النظم شرح للمراغي الجرجاوي أسماه (بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين). وقبلها وضع الحافظ ابن حجر كتابه (الفوائد الجمة في من يجدد الدين لهذه الامة)، وفيها يجد القارئ والباحث ذكر أسماء المجددين على رأس المآت خلال هذه القرون الأربعة عشر التي عاشها الإسلام..."[14]

عبد الرحمن الجيلالي: ناشرا للوعي

كما لم يدخر شيخنا الجيلالي وسعا في اغتنام فرص المحافل العلمية للإفصاح عن توجهاته الفكرية وتبليغ قناعاته الشرعية للأمة الجزائرية ولأولي الأمر فيها. وهو ما تجلى في مداخلته (التجديد والمجددون في الإسلام) من قوله: "وأنتهز هذه الفرصة لألفت نظر أولي الأمر منا،(هنا عندنا في الجزائر) إلى أنه لم يبق لنا من أحكام شريعتنا الإسلامية الغراء داخلا في حيز التطبيق إلا مسائل طفيفة من أحكام الأحوال الشخصية، أو ما يعبر عنه بقانون الأسرة – ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وإنا لله وإنا إليه راجعون. فالله الله في بقية

---

[13] – مجلة الأصالة :العدد 78 سنة 1980) الصفحات 265 و 269 من محاضرته التجديد والمجددون في الإسلام".

[1] – مجلة الأصالة :العدد 78سنة 1980) الصحيفة 269 من محاضرته التجديد والمجددون في الإسلام".

الباقية فلا تتركوها لتعبث بها يد التحريب والتشويه، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته،(وفقوهم إنهم مسئولون)" [15]

عبد الرحمن الجيلالي: محققا، ناقد تزييف المستشرقين

لم يكن الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي - رحمه الله - غافلا عما يجري في الساحة الثقافية والعلمية من آراء أو أحكام تخص التاريخ الإسلامي، أو علوم الشريعة، وإنما كان أيضا متابعا لما يصدر من الدراسات عن الإسلام وتاريخه من قِبَلِ الغربيين وخصوصا المستشرقين منهم. فلقد تناول ما قد خاض فيه بعضهم بالنقد والتحقيق مُبرزًا تحريف وتزييف أولائك للحقائق.

ومما جاء في ذاك قوله في محاضرة علمية قيّمة تحت عنوان (من بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين) قوله:["ومنهم من وقع في أخطاءَ لم تكن متوقع من مثله ممن اشتهر بالتحقيق والإمعان في البحث، وسعة الاطلاع والتطلع من الثقافة الشرقية والغربية، وخذ إليك مثلا العلامة (بروكلمان) المستشرق الألماني الكبير، ألف كتابا في تاريخ الشعوب الإسلامية، ورغم ما احتوى عليه هذا الكتاب من الفوائد الجمة واستيعابه للتاريخ الإسلامي من مبدأه إلى العصر الحاضر فإن صاحبه وقع في أخطاء، ولا أدري أهي عن عمد أو عن غفلة وقلة مبالاة ؟؟.."،

ثم بالقول: "تعرض لتاريخ إنشاء المنبر في الإسلام، فذكر أن هذه المؤسسة الإسلامية وقعت من عمال الأمصار الذين كانوا يؤمون الناس في أيام الجمعة في الصلاة العامة بأنفسهم، فهم أول من اصطنع هذا المنبر. ولم يصبح – حسب زعمه – في الناس عادة شائعة إلا في المائة الثانية للهجرة "...، "والواقع بخلاف ذلك. فإن علماء التاريخ الإسلامي مجمعون على إنشاء المنبر وتأسيسه للخطابة بالمسجد كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ابتداء العمل به كان سَنة سبع أو ثمان للهجرة، وقد شوهد عليه

---

[15] - مجلة الأصالة :العدد 78 سنة (1980) الصحيفة 270 من محاضرته التجديد والمجددون في الإسلام".

الصلاة والسلام يخطب وهو واقف على المنبر بمسجده في المدينة. وكان هذا المنبر يشتمل على ثلاث مراق – درجات أو درج – إلى زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان وكان الوالي على المدينة مروان بن الحكم (42-49 هـ) فزاد فيه هذا ست درجات. ولقد استمر هذا المنبر الشريف بمكانه من المسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ومنه كان يلقي الخلفاء خطبهم ..، فكيف يصح بعد هذا أن يقال أن المنبر هو من صنع عمال الأمصار؟؟.. وأنه لم يصبح ارتقاء المنبر للخطابة في الناس عادة شائعة إلاّ في المائة الثانية للهجرة؟؟ .."،

ثم بالقول:"ومن ذلك أيضا قول هذا المستشرق في نفس الكتاب... بأن النظر في المظالم والحكم بين المتخاصمين، وهي مهمة لم تكن يُعيّن لها رجال مخصوصون حتى أيام مؤسس الخلافة الأموية..، فأين هذا مما هو مشهور من ولاية القضاء في التاريخ الإسلامي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فقد بعث عليًّ بن أبي طالب إلى اليمن ليقضي بينهم، وعلّمه كيف يقضي فقال له: ((إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضي بينهم حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبيّن لك القضاء...))[16]. كما أنه عليه السلام عيّن معاذ بن جبل لقضاء الجند، وكان أبو موسى الأشعري قاضيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان القضاء على عهد النبي مشتركا بين عمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا موسى

[16] – للحديث طرق عن علي رضي الله عنه، ولفظه عند أبي داود (3582) كتاب الأقضية، باب كيف القضاء. الجزء 301/3 بسنده (عن عمرو بن عون، قال أخبرنا شريك، عن سماك، عن حنش، عن علي– رضي الله عنه– قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى اليمن قاضيا. فقلت: يارسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء ؟ فقال: "إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء ". قال: فما زلت قاضيا أو ما شككت في قضاء بعد). وأخرجه الترمذي مختصرا (1331) 619/3 وقال: حديث حسن. و النسائي في ((خصائص علي)) ص 9. والبيهقي 86/10 وغيرهم... وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل 228/8: "وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه حسن على أقل الاحوال".

الأشعري، وشريح الكندي كان قاضيا على عهد عمر بن الخطاب بالكوفة.. إلى غير ذلك من مسائل شتى طرقها هؤلاء المستشرقون دون أن يعيروها أدنى تحقيق..."،

ثم بالقول أيضا:"وهذا لا يمنعنا من أن نعترف لهم بالفضل في بذل جهود جبارة في التحقيق المخطوطات النادرة وطبعها طبعة علمية مفهرسة بفهارس مفصلة مع ترجمتها ونقدها والتعليق عليها بتعاليق مفيدة وشروح فريدة وتوضيحهم لكثير من المسائل العلمية وتبديد ما تراكم عليها من غبار الأوهام والشكوك، فلهم منا على ذلك مزيد التقدير والاحترام."]أهـــ[17]

هكذا رأينا إرث الشيخ العلامة عبد الرحمن الجيلالي من خلال تلكم الملامح المقتضبة ههنا من بركات شخصيته: ((عالما، ومؤرخا محققا ومدققا، وباحثا منتقدا مقتدرا)). وإنه لا يسعنا في الأخير إلاّ أن نُذكّر أنفسنا- أفرادا وأجيالا في بلادنا الجزائر- بحق هذا العلامة علينا في الترحّم عنه، فليس كفاء عمله اليوم أن يجلّه الأفراد، ولكن كفاءه أن تجلّه الأجيال وتفتخر به رحمه الله، وغفر له، ورضي عنه .

---

[17]- مجلة الأصالة : العدد 14سنة 1973الصحيفة 159، من محاضرته "من بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين".

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي- حياته وآثاره -

أ.د. بلقاسم شتوان

جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة

توطئة : نقدم للباحثين والقراء علما من أعلام الجزائر، وعالما من علمائها الأعلام العاملين وفارسا من فرسان القلم والكلمة الطيبة ، وحافظا من حفاظ الأمة الإسلامية إنه الشيخ العلامة عبد الرحمن الجيلالي:

تشاطات الشيخ العلمية والدينية:

تمكن الشيخ عبد الرحمان الجيلالي من إنتاج عشرات الأعمال في مختلف الميادين الدينية، والأدبية، والفنية والتاريخية، جعلته يتحصل على أوسمة استحقاق من مؤسسات علمية متخصصة.كما حاز عضوية المجلس الإسلامي الأعلى غداة الاستقلال في لجنة الفتوى التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد حماني رحمه الله. وقد عمل الشيخ عبد الرحمان الجيلالي مع نخبة من العلماء على إنشاء وتنظيم نِظَارات الشؤون الدينية بمختلف ولايات القطر، كما ساهم في تأسيس:" مجلة الأصالة" الصادرة عن المجلس الإسلامي الأعلى والتي ساهمت مساهمة إشهارية فعّالة في الترويج لملتقى الفكر الإسلامي، والتي كانت منبرا هاما لنشر الثقافة العربية الإسلامية والدينية.من خلال طبعاتها الأربعة عشر.والتي قدم فيها الشيخ محضرات علمية قيمة.كما أنه ساهم في تزويد المكتبة الجزائرية بالعديد من العناوين المهمة: منها "كتاب تاريخ الجزائر العام" والذي يعتبر مرجعا لا يمكن لدارسي تاريخ الجزائر الاستغناء عنه، وهو الآن في طبعته الثامنة. ومن كتبه أيضا كتاب تاريخ المدن الثلاث{ الجزائر، المدية، مليانة} وكتاب خاص بذكرى العلامة الدكتور بن أبي شنب، وكتاب حول العملة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، وكتاب ابن خلدون في الجزائر

دور الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في الإذاعة:

كان الشيخ عبد الرحمان الجيلالي رحمه الله تعالى يرى أن للإذاعة دورا كبيرا في التربية والتوجيه فالتحق بالإذاعة الوطنية وقدم برامجه المجيبة على تساؤلات المستمعين الدينية، وقد اشتهر ببرنامج:" لكل سؤال جواب" الذي كان يركز فيه على مفاخر التاريخ القومي الإسلامي، فاستحسنته الجماهير ونال رضاها، وبسبب نجاحه قررت إدارة الإذاعة إنتاج برنامج آخر بعنوان:" رأي الدين في أسئلة المستمعين" الذي لعب دورا كبيرا في توعية الناس بحكم اعتماده على نهج الإصلاح الديني، ثم تحولت أحاديثه إلى دروس ونشريات دقيقة مباشرة، مكتوبة بأسلوب متميز سهل الفهم بعيد عن التعقيد. ومع الأيام تحولت الإذاعة بفضل الشيخ الجيلالي إلى مدرسة للتربية والتوجيه، تصلها يوميا عشرات الرسائل، حتى أصبحت برامجه أسبوعية دائمة يجد فيها المستمعون الإجابة عن تساؤلاتهم الدينية والدنوية على أساس شرعي معتدل. وقد ابتدأ برامجه تلك منذ سنة 1940م ويحتفظ أرشيف الإذاعة الوطنية له بكمية هائلة من تسجيلات تلك البرامج إلى اليوم.

فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجلالي: قدم الشيخ أثناء مسيرة حياته الطويلة المتمثلة في طلب العلم ونشره بين طلابه بالدرس في المدارس والمساجد، والمحاضرات في الملتقيات العلمية والبرامج الإذاعية التي اختار لهما عنوان : " لكل سؤال جواب" ." ورأي الدين في أسئلة المستمعين " والذي قدم من خلالهما فتاوى كثيرة إجابة على أسئلة المواطنين. فالشيخ يعد بحق مفتيا للديار الجزائرية لمعرفه المواطنين له عبر الأجيال على مستوى ربوع الجمهورية الجزائرية بل وحتى خارجها.

فمن خلال الكم الهائل من الفتاوى التي قدمها الشيخ عبر زمن طويل والتي كانت تتميز بالشمولية لما يحتاج إليه المسلم المعاصر في حياته من عقائد وعبادات ومعاملات ودماء.

وعليه فإننا نختار بعضا منها والتي يحتاجها المسلم الجزائري المعاصر وتتميز بقوة الدليل وعمق الاطلاع والاعتدال وعدم التشدد : {كالحجاب، ومصافحة المرأة الأجنبية،

والدعاء والفاتحة عقب الصلوات المكتوبة، واللعب بالشطرنج}وغيره كثير من الأمثلة التي نذكر منها الآتي :

أ ــ سئل رحمه الله تعالى على الحكم الشرعي للدعاء والفاتحة عقب الصلوات المكتوبة فأجاب رحمه الله تعالى: ورد الداء في صحيح مسلم بشرح النووي عن أبي أمامة قال : يارسول الله أي الدعاء أسمع قال: (جوف الليل ، ودبر الصلوات المكتوبات) وقال على المسلم أن يدعو ويفتّح .[1]

ب ــ سئل رحمه الله تعالى عن الحكم الشرعي للحجاب. فأجاب: أنه فرض على كل امرأة مسلمة بالغة عاقلة وأنه معلوم من الدين بالضرورة ودلّل عليه بآيات من سورة النور والأحزاب وحديث أسماء حين دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها أثواب شفّافة فقال :(يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض فلا يجوز أن يرى منها إلا هذا ..الوجه واليدين) وعليه فإن الحجاب واجب على المرأة المسلمة في حياها اليومية وفي صلاها وأنه معلوم من الدين بالضرورة"[2]

جــ ــ سئل رحمه الله تعالى على الحكم الشرعي لصلاة المدخن . فأجاب بأن الدخان من الخبائث ويجب على المسلم اجتنابه . وأما حكم صلاة المدخن فإنها تقع منه صحيحة إذا توفرت أركانها وشروطها"[3]

د ــ سئل رحمه الله تعالى على الحكم الشرعي لمصافحة وملامسة المرأة الأجنبية. فأجاب بعدم جواز المصافحة والملامسة. قائلا: إذا كان المصافح أو الملامس يستغل إثارة الشهوة

---

[1] ــ فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مسجلة بالإذاعة الوطنية

[2] ــ فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مسجلة بالإذاعة الوطنية

[3] ــ فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مسجلة بالإذاعة الوطنية

يترتب عليه نقض الوضوء الأصغر. وإن أمنى فعليه الغسل سواء أكان ذكرا أم أنثى. وأرجع ذلك كله إلى القصد" [4]

هـ ـــ سئل رحمه الله على الحكم الشرعي عن اللعب بالشطرنج , فأجاب إذا كان القصد القمار فحكمه الحرمة سواء أكان الملعوب به شطرنجا أم غيره من الألعاب ، وأما إذا لم يكن القصد منه القمار فاللعب مباح [5]

و ـــ سئل رحمه الله على الحكم الشرعي للإجهاض . فأجاب : " بأنه ممنوع شرعا وتجب فيه الكفارة والفداء ، ويختلف بحسب صاحبه والحال والزمان " [6]

والخلاصة إن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي كان واعيا وعارفا بما يقدمه من الفتاوى المعاصرة التي يحتاجها المسلمون في حياتهم اليومية المتصلة ببيئتهم والحضارة التي تحيط بهم مثل الأمثلة التي أوردناها وكاللحوم المستوردة وغيره كثير. ونلاحظ أيضا أن فتاواه تتسم بقوة الدليل من الكتاب والسنة وأقوال الفقهاء مع عدم التعصب والانحياز وإثارة الفتن. فكان يجمع ولا يفرق رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

تكريم الشيخ :

فبتوصية من الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، كرمت جامعة الجزائر الشيخ عبد الرحمان الجيلالي بمنحه "شهادة الدكتوراه الفخرية" وقد عبر عن غبطته وابتهاجه الكبير بهذا التكريم الذي اعتبره من أهم محطات حياته في سلسلة عمره الطويل والذي قال العلماء الحاضرون فيه يوم ذاك: .

---

[4] ـــ فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مسجلة بالإذاعة الوطنية

[5] ـــ فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مسجلة بالإذاعة الوطنية

[6] ـــ فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مسجلة بالإذاعة الوطنية

1 ـــ الأستاذ أبو عمران الشيخ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى: "إن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي يستحق ثلاث دكتورات، الأولى في الفقه والثانية في الأدب والثالثة في التاريخ لإتقانه وإبحاره المتعمق في هذه العلوم الثلاثة" كما أنه أشار إلى ضرورة مواصلة الجيل الحالي جهاد القلم والكلمة الذي أسس له مشايخنا أمثال ابن باديس والجيلالي مذكرا بداوم الاستماع لفتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ودروسه منذ سنة 1948، ومؤكدا على أنه له تأثير سحري بأسلوبه ومنهجه الخاص المتميز بـــ"الدقة والاختصار" وأضاف أنه استفاد من دروسه التي يلقيها عبر أثير الإذاعة أكثر مما تعلمه وهو يتتلمذ على يده مباشرة في المعاهد والحلقات، مشيدا بالاختيار الذكي للشيخ الجيلالي بإلقاء دروسه عبر وسيلة إعلامية لتعميم الفائدة كما دعا رئيس المجلس الإسلامي الأعلى إلى ضرورة التعريف بعلماء ومشايخ الجزائر من خلال تكريمهم وإعادة طبع كتبهم ونشر مقالاتهم وآرائهم على صفحات الجرائد لتعميم الفائدة، مؤكدا أن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي نشر علمه عبر كامل التراب الوطني ووصلت فوائده وحكمه إلى جميع الجزائريين وغير الجزائريين بفضل وسائل الإعلام التي لها تأثير كبير على المتلقين، فضلا عن إيصالها لرسالته للملايين في وقت واحد.

وأوضح أبو عمران الشيخ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى أن للشيخ الجيلالي جهودا كبيرة في مجال التاريخ التي أثمرت لنا كتاب "تاريخ الجزائر العام" الذي أنقذنا من سموم المستشرقين وكتاباتهم التي غزت الجامعات والمعاهد والمكتبات الجزائرية والعربية، وشكر الشيخ الجيلالي على مساعدته له في بداية مشواره العلمي في دراسة حول "محمد بن شنب" ـــ أول جزائري تحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الإنسانية ـــ حيث وجدت عنده دراسة شاملة لسيرة هذا الدكتور "بن شنب" الذي وافته المنية في 1929. كما وصف رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الشيخ الجيلالي بالعالم الكبير المتواضع غير

المتكبر، وهذا ليس غريبا عنه، على حد تعبيره، الذي أكد أن على وسائل الإعلام والسلطات مسؤولية تكريم والتعريف بـــهؤلاء الرموز والشموع.

2 ـــ الأستاذ الشيخ عبد الرحمن شيبان : " قدم الشيخ عبد الرحمن شيبان، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ووزير الشؤون الدينية الأسبق، صورة رمزية على العلامة الداعية الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، معدّدا مناقبه ومواقفه التي ميّزت حياته، متأسفا في الوقت ذاته عن تهميش العلماء ورموز الأمة وتكريم من خذلوا البلاد وخانوها قائلا :إن العلامة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي هو شخصية لها فضائل كثيرة في مجالات مختلفة :{ أديب ومؤرخ وفقيه، ومن الناحية الاجتماعية،

هو مثقف ومعلم ومرشد} أما من الناحية الدينية، فهو متق لله وعامل بسنة المصطفى وصالح ومصلح ونصوح للأمة. ومن الناحية السلوكية، فهو لطيف يألف ويؤلف .كما أشار رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى حادثة جمعته مع الشيخ الجيلالي، حيث بعد أن نشر الشيخ شيبان مقالا بعنوان : " الجهاد والاجتهاد" في جريدة البصائر سنة 1948م داعيا فيه للجهاد ورافضا للإدماج إبان الثورة التحريرية ليسانده الشيخ الجيلالي بمقال نشر في العدد الموالي يدعم فكرة الشيخ شيبان وينبهه لضعف سند حديث نبوي استشهد به الشيخ شيبان في مقاله.

كما أنه أشار إلى الناس الذين خدموا الجزائر في ذاك الوقت مهمشين، في حين يُكرّم اليوم من خذلوا البلاد في أوقات المحن.

وقد بادر المدير العام والشيخ عبد الرحمن شيبان إلى إلباس الشيخ رحمه الله تعالى "برنوسا" هدية من جريدة الشروق اليومية مع مجموعة من الهدايا. وقال "أنا الذي جئت لأكرّمكم وأكرّم الجريدة" ودعا لهما بمزيد من النجاح والرفعة وأن يزيدها الله من التألق والإشراق ما لا نهاية له. ودعا الشيخ للشعب الجزائري بالهناء والعافية والسلام والهدوء والاستقامة، ووصف تكريم الشروق بالإحسان الذي لا يصدر إلا من أشخاص محسنين. وقد جاء هذا

التكريم على خلفية بلوغ الشيخ سن المائة، حيث ارتأت الجريدة جمعه بثلة من المشايخ والأساتذة وبقية من رفاق دربه في النضال بالقلم والكلمة.
وعبّر المدير العام لمؤسسة الشروق الأستاذ علي فضيل في كلمته الافتتاحية عن فرحته وفرحة كل طاقم "الشروق اليومي" باستضافة علماء الجزائر الأجلاء في مقر الجريدة، كما عبر عن عميق سعادته وهو يستقبل الشيخ عبد الرحمان الجيلالي، فقال إنه بركة ورمز شامخ من رموز الجزائر الخالدين، لأنه قضى حياته ينفع الجزائريين بعلمه ويفقههم في شؤون دينهم ودنياهم وفق أصول الشرع السليم المعتدل الخالي من التعصب، كما ساهم بشكل كبير في تنمية الوعي الديني لدى المواطنين الجزائريين في كل مناطق الوطن وعاد السيد المدير بذاكرته إلى الوراء إلى سنوات الخمسينيات والستينيات، حيث تتلمذ الناس على يدي الشيخ عبد الرحمان الجيلالي من خلال سماعهم الدائم لبرامجه الإذاعية الهادفة، فدخل قلوبهم وأنار عقولهم، واستطاع أن يحول الإذاعة إلى مدرسة للتربية والتوجيه، وقال أيضا إن أبناء جيله كانوا يتشوقون لسماع صوته الجهوري المتميز مثل شوقهم لظهوره في ليلة ترصد هلال رمضان حتى أصبح جزء من مخيال الجزائر الثقافي.
وفي ختام كلمته ألح على ضرورة الكشف على الجوانب غير المعروفة في حياة الشيخ عبد الرحمان الجيلالي وأن يتناوله الدارسون بالبحث وأن يعرّف الإعلام به وبفكره وإرثه الثمين حتى تتناقله الأجيال وتنتفع به.
3 ــ الأستاذ محمد الهادي الحسني: أشادالأستاذ محمد الهادي الحسني بالشيخ عبد الرحمن محمد الجيلالي الذي عرفه من خلال كتابه"تاريخ الجزائر" قبل أن يعرفه عام **1970** بجامعة الجزائر وكان أول موضوع ناقشه معه هو حقيقة فقدان الذاكرة الذي أصاب الشيخ عبد الحليم بن سماية، حيث أخبره أنه كان يفتعل تلك اللوثة (الحالة) حتى لا تطاله يد السلطات الفرنسية لأنه كان يؤذيها بلسانه، خاصة لأنه كان يشيد بثورة عبد الكريم الخطابي بالمغرب، وكان يتمنى امتدادها إلى تونس والجزائر وقال الأستاذ: إن تاريخ الشيخ

في كتابه المشهور "تاريخ الجزائر" هو عمل تنوء به العصبة أولي القوة، خاصة وأنه تناوله بكل عمق ولم يكتف فيه بتاريخ الناحية السياسية للجزائر بل كان يختم كل مرحلة بالمشاهير الذين عاشوا فيها.

وردّ الأستاذ الدكتور عن بعض المغرضين الذين انتقدوا كتابة الشيخ للتاريخ وهو ليس من المؤرخين بأن أغلب من كتبوا التاريخ في العالم لم يكونوا من المؤرخين، وقال إن الشيخ كتب تاريخ الجزائر وحمّل نفسه ما لا طاقة له به لأنه كان يراه نوعا من الجهاد.

وكان للدكتور الفضل في إعادة طبع الكتاب مرة أخرى بدار الأمة، قائلا أحمد الله أنني كنت همزة وصل بين الشيخ ورئيس دار النشر.

وختم الأستاذ حديثه عن مناقب الشيخ أنه لبى رغبة زوجته الفاضلة في التكتم على دورها الكبير في تأليف كتاب تاريخ الجزائر، كخطوة من خطوات التواضع ونكران الذات ولم يفصح عنه إلا بعد وفاتها.

13 ــ وفاتــــــه: توفي الشيخ عبد الرحمن الجيلالي رحمه الله تعالى صبيحة يوم الجمعة 6 ذي الحجة 1431هـ الموافق 12 نوفمبر 2010م بمستشفى عين طاية عن عمر يناهز 102 سنة بالجزائر العاصمة، وصلى عليه الأستاذ الدكتور عمار طالبي في مسجد النجاح بالمحمدية في جمع غفير من الناس.وشيّع جثمانه عصرا ليدفن بمقبرة سيدي أمحمد، وسط جو مهيب، بعد أن ألقى عليه أفراد عائلته وأصدقاؤه من الأئمة والمثقفين وعامة الناس،النظرة الأخيرة بدار الإمام بالمحمدية.

14 ــ الخاتمة : فالشيخ عبد الرحمن الجيلالي قطب من أقطاب العلم ، وعلم من أعلام العصر، وحافظ من الحفاظ في العلوم الشرعية، ومؤرخ خبير بعلم التاريخ وعارف بثقافة العصر ، عالما عاملا مجاهدا منضبطا، لين الأخلاق هشا بشا محبا للناس ولوطنه عارفا بقضايا أمته، دقيقا في مواعيده شاهدا على القرن كريما معطاء، درس على يد أئمة أعلام بالجزائر العاصمة، اقتفى درب أساتذته في التربية و التعليم والكتابة والتأليف. أشتهر

بكتابه "تاريخ الجزائر العام" الزاخر بالمعلومات التاريخية الجزائرية قديما وحديثا والذي قال فيه : " الواقع أن دراسة التاريخ تعتبر أعظم درس ممتع لتتبع أحوال الماضي خدمة للمستقبل ــ فهي تعطينا أمثلة واقعية تطبيقية عن سير جميع شخصيات الماضي ــ ويعرفنا على الأخطاء التي ارتكبها الأشرار من الأسلاف تعطينا هي كذلك دروسا نفسية عميقة البحث تبعث فينا داعي العبرة فنتجنب الوقوع في مثل تلك الأخطاء حاضرا ومستقبلا ....كما أن التاريخ وحده هو الذي يعطينا فكرة واضحة جلية عن سير المدنية والثقافة التي مربها هذا الوطن خلال العصور ، فهو نعم الأستاذ في تنمية الأفكار وتوسيعها، وحبذا الملقن والواعظ لبث الأخلاق الفاضلة ونشرها بين الناس وتثبيتها :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[7]

فالشيخ عبد الرحمن الجيلالي يعد واحدا من الذين كوّنوا أجيالا من العلماء والمجاهدين، ويكفيه فخرا أنه تتلمذ على يده الشهيد ديدوش مراد العظيم. وهكذا عاش الشيخ الجليل رحمه الله تعالى وفيا لدينه ووطنه الجزائر وأمته الإسلامية يشيد بشهادة الحق يحترم العلماء وأصحاب الأقلام الحرة التي تمجد الحرية وتدعو إلى قيام العدل ونشره بين الناس ، وقد شهد له أقرانه من العلماء العاملين وكل من درس عليه وسمع فتاواه من خاصة الناس وعامتهم ودعوا له بالرحمة والمغفرة .

فالشيخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي علامة الجزائر ومفتي ديارها بلا منازع ، والمدرس المربي لأبنائها ، والمؤرخ المترجم لأعلامها.

إنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الأستاذ الدكتور العالم المحيط بالأخبار العامة الغابرة، العارف بتراجم الماضين من السلف، وبالأخص ما تعلق بتاريخ الجزائر وأعلامها، كما

---

[7] ــ عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ج1 ص 4

دلت على ذلك أبحاثه المنشورة ومحاضراته القيمة التي شارك بإلقائها في الملتقيات والندوات الوطنية والدولية ، فإنه من غير شك يصدق فيه قول أبي العلاء المعري:

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف[8]

رحم الله الشيخ وأسكنه فسيح جنانه .والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم



[8]ــ جمعت معظم هذا المقال من الإنترنات وتصرفت فيه بالزيادة والنقصان وذلك لشح المعلومة

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي
بين عصامية التكوين ومنهجية التدوين

أ. ميسوم بلقاسم – أ. شلبي شهرزاد
جامعة محمد خيضر– بسكرة

تمهيد:

يعتبر الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من أوائل المؤرخين الجزائريين الذين رفعوا أقلامهم للتأريخ للجزائر خلال فترة التواجد الاستعماري برؤية وطنية وذلك ردا على أطروحات المدرسة التاريخية الفرنسية ،وظهر ذلك في كتابه تاريخ الجزائر العام الصادر سنة 1953؛ وفي مقامنا هذا سنحاول عرض حياة الشيخ وأبرز شيء هو عصاميته في التكوين ومنهجيته في تدوين "التاريخ".

1-التعريف بشخصية عبد الرحمن الجيلالي (1908– 2010) : عصامية التكوين

هو عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، وأمه مونية بنت الحاج إبراهيم ابن الجبار، ولد يوم 09 فيراير 1908/محرم 1326هـ بمدينة الجزائر، من عائلة متوسطة الحال، ومتمسكة جدا بالإسلام. حفظ القرآن الكريم، ولم يكن قد تجاوز سن الرابع عشر على يد معلّمه محمد بن البشير البوزيري .

بعد وفاة والده امتهن وهو شاب التجارة الداخلية، والخارجية، وخاصة تجاه اسبانيا وفرنسا، ثم تفرغ لطلب العلم، ولا سيما علوم الدين من تفسير وفقه وأصول، وعلم الكلام وما يتصل به، والأدب من بلاغة وبيان، وعروض.

وقد أخذ عن مشايخه بالعاصمة ومنهم: المولود الزريبي، الحفناوي أبا القاسم صاحب <<تعريف الخلف برجال السلف>>، ومحمد بن أبي شنب [1] .

وكانت دراسته بالجوامع والمدارس التالية : الجامع الكبير والجامع الجديد، وجامع سيدي رمضان، وجامع السفير، وفي مدرستي الإحسان والهداية .

ثم تولى الجيلالي مهنة التدريس في مدرسة الشبيبة الإسلامية وذلك خلال الثلاثينات من القرن العشرين [2] .

إن دراسة الشيخ لم تكن نظامية، ولم يسافر خارج الجزائر إلى الزيتونة أو إلى القرويين للتعلم، ولم يدرس بالمدارس الفرنسية ولا الحرة، بل كان تكوينه عصاميا [3]، أي كوّن نفسه بنفسه، وخاصة في الميدان الديني، فهل يكون لهذا التعليم الخاص بالدين وقضاياه من أثر على اهتمامات الجيلالي المستقبلية؟ ويبدو أن المؤثرات التي صقلت شخصيته وأثّرت في تكوينه العلمي تكمن في نتاج المدرسة الإسلامية، وهو متأثر بالمؤرخ الشهيد عبد الرحمن بن خلدون .

وكان لاحتكاك الجيلالي ببعض أفراد الجمعية الصوتية للمدائح الدينية (القصّادين) [4] دوره في اهتمامه واطلاعه الواسع على الطرب الكلاسيكي، فالتفت إلى فن النغم والموشحات والأزجال الأندلسية، وتمكن من هذه الفنون وأدرك أصولها حق الإدراك [5] .

وقد شغل عدّة مناصب علمية خلال عهد الاستعمار، فعمل أستاذا في جمعية الشبيبة الإسلامية، ودرّس في الجامع الحنفي الجديد، والجامع الكبير، وجامع السفير، وجامع سيدي رمضان،كما درّس بالمدارس الحرة، كمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة خلال سنتي1943،1942

وبما أنه فقيه جيد في المسائل الدينية، فقد دخل الإذاعة للرد على أسئلة المستمعين ذات الطابع الديني التاريخي من خلال برنامج <<لكل سؤال جواب>> ثم نشط في برنامج آخر هو <<رأي الدين في أسئلة المستمعين >> .

لقد شارك من خلال هذه البرامج من أجل الإصلاح الديني وتوعية الأهالي، واستمرت الحصة الأخيرة من سنة 1940 إلى ما بعد الاستقلال .

كما أسندت للشيخ قراءة القرآن وترتيله بالجامع الجديد الحنفي، وأسندت إليه وظيفة تدريس صحيح الإمام البخاري رواية بسنده المتصل .

وكان خطيبا وإماما بجامع سيدي رمضان إثر وفاة الشيخ أبي يعلى محمد السعيد الزواوي سنة 1952، وأثناء كل هذا كان يلقى دروسا بصفة تطوعية في الفقه، وعلم الكلام، والعروض، والحديث، والتفسير، والأصول، واللغة في مختلف مساجد العاصمة [6] .

تحصّل الجيلالي على إجازات عدة، والمقصود بالإجازة تلك الشهادة التي يمنحها شيخ لتلميذه، وتكون عادة بطلب منه، وتسمى في المصطلح استدعاء، ويقوم الشيخ بإجازة تلميذه بعد القراءة عليه، وحضور دروسه لمدة معينة[7]، وحصل على الإجازات من طرف شيوخه الآتية أسماؤهم : المولود الزريبي، وعبد الحميد بن سماية، الحفناوي بن الشيخ. وكانت في صحيح البخاري والفنون الإسلامية الأخرى، منها مجموع المتون في آداب اللغة العربية والفقه الإسلامي[8]

ونظرا لتعدد ما أنتجه في مختلف المواضيع الأدبية والفنية مركزا خاصة على الفنيات المعمارية والصناعية، استفاد من بحوثه كتّاب تناولوها في دراساتهم وأبحاثهم وجعلوا منها شواهد في مؤلفاتهم. وبمناسبة تعيين المستشرق مرسي (George Marçais) وتنصيبه رئيسا للإدارة ومجلس الأكاديمية، قرّر مجلس الأكاديمية وباقتراح من رئيسه الجديد تكريم نخبة من رجال العلم والآداب والفن الجزائريين، بمنحهم وسام المعارف برتبة الاستحقاق ومن ضمنهم الجيلالي تقديرا لجهوده في البحث[9] ، وذلك سنة 1950.

وبعد الاستقلال وظّف أستاذا محاضرا بالجامعة المركزية في علوم الحديث، وكذلك في معاهد وزارة الشؤون الدينية والأوقاف حيث درّس عناصر الفقه المالكي، كما كان يعمل باحثا في المتحف الوطني لدراسة وتحقيق ما كان من آثار وتراث تاريخيين.

وقد حج الشيخ الجيلالي وزار الحرمين الشريفين مرتين، كما زار القدس الشريف، ومصر وتونس وسوريا ولبنان والعراق والكويت، وتركيا وفرنسا وإيطاليا وبولونيا واسبانيا .

كتب أول مقال وعمره أقل من خمس عشر سنة في جريدة (الإقدام) للأمير خالد. ثم نشر عدّة مقالات بجرائد الشهاب [10] والبلاغ الجزائري والتلميذ . كما كتب بعد الاستقلال مقالات في مجالات مختلفة منها :

الثقافة، الأصالة، التاريخ، هنا الجزائر، والجرائد اليومية كالسلام ... وشارك في ملتقيات الفكر الإسلامي، وكان محاضرا ومناقشا في أغلبها. كما شارك في الملتقيات المختلفة : الثقافية، الأدبية، الفنية، والتاريخية والفقهية ...إلخ.

وبصفة عامة، فإن مواضيعه تتضمن مختلف العلوم والفنون أهمها التاريخ، وعندما تأسس المجلس الإسلامي الأعلى تمّ انتخاب الجيلالي عضوا بهذا المجلس، وعيّن في لجنة الفتوى التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد حماني.

وذكر الشيخ الجيلالي أنه رغم انتخابه عضوا إلا أنه لم يلتحق بالمجلس، ورفض ذكر أسباب ذلك، وترك الأمر للتاريخ على حد تعبيره [11].وقد شغل منصب العضو العامل بلجنة الفتوى بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف، وعرض عليه في 2001 رئاستها، ولكن ظروفه الصحية وتقدم سنه منعاه.

وللشيخ الجيلالي آثار ضخمة، وما هو منشور منه قليل جدا مقارنة بما يتحفظ به من مخطوطات وبحوث غير منشورة ، ومن أهم آثاره المطبوعة والمنشورة نذكر[12] :

أ-في التاريخ :

-ذكرى الدكتور محمد بن شنب، المطبعة العربية 1933، ويعد الجيلالي أوّل من اهتم بحياة هذا الرجل وبأعماله، وهو من معاصريه والمقربين منه، يعرف عنه الكثير وخاصة ما يتعلق بحياته العلمية.

-تاريخ الجزائر، المدية، مليانة (الجزائر 1972)، صدر بمناسبة عيدها الألفي، ويشمل الكتاب على دراسات وأبحاث عدة باحثين منهم: عبد القادر حليمي، يفر Yver ،مولاي بلحميسي...

ب- في الدين:

- الحج إلى بيت الله الحرام، 1947.

- المولد والهجرة، (مسرحية) 1949.

أما آثاره المخطوطة فلا يمكن ذكرها كلها لكثرتها، ونكتفي هنا بذكر بعض من تلك الكتب المخطوطة :

-الثقافة والحضارة والعمران بالجزائر عبر العصور.

-فن التصوير والرسم عبر العصور الإسلامية .

-المستشرقون الفرنسيون والحضارة الإسلامية .

-عناصر الفقه المالكي.

-فنون الطلاسم.

-جامع سيدي رمضان .

-المسكوكات الإسلامية الموجودة بمتحف باردو .

-الجامع الكبير علميا وأثريا

-العلائق الثقافية والسياسية بين (المغرب والأندلس)

2- دواعي كتابة " تاريخ الجزائر العام" :

أدرك الجيلالي بأن تاريخ الجزائر مجهول، وبما أنه باشر التعليم الابتدائي في الجمعيات والمدارس السابق ذكرها، فقد وجد أن تدريس مادة التاريخ ممنوع ومحرّم فيها، إلا ما يتعلق بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان المعلمون فيها يحاولون جهد المستطاع تدريس المادة خفية من غير الإعلان عنها [13]. وكانت كتب التعليم الفرنسية لا تحتوي تاريخ الجزائر، ولا تذكر ما هو مجيد فيه، مما جعله يطرح هذه الأسئلة :

أين كتب تاريخ الجزائر؟ كيف كان حالها؟ وكيف حال علماء الجزائر وأعيانها ومثقفيها؟ لقد كان كل ذلك مجهولا [14]. وكان ذلك من بين دوافعه إلى إيجاد كتاب للمدارس الابتدائية في جزء واحد يقدّم للتلاميذ. وعندما شرع في الكتابة وجد نفسه في موج بحر

[15]. ذلك لأن الجيلالي عندما انطلق في تحقيق مشروع الكتاب الموجه لتلاميذ المدارس وجد المادة غزيرة ومجال البحث أرحب وأوسع، وفراغ المكتبة أكثر إلحاح على سد بعض النقص، بإيجاد كتاب يشتمل على تاريخ الجزائر من أقدم العصور، فتحوّل بذلك مشروع الكتاب المدرسي إلى مشروع ذو مستوى عال .

هذا وقد وجد أن تاريخ الجزائر لم يدرس دراسة شاملة ولا موضوعية، ويظهر أن الكتب التي ألّفها الميلي والمدني من قبل الجيلالي لم تكن موضوعية من جهة، وغير شاملة لكل العهود من جهة أخرى، ولذلك كان مشروع الكتاب كتابة تاريخ الجزائر من القدم إلى سنة **1954** .

فحرص على أن يظهر أن لهذه الأمّة تاريخا تستطيع أن تفخر به [16]، تاريخا يفنّد ادّعاءات المستعمر الكثيرة والقائلة بأنّ الجزائر فرنسية، وغير ذلك من الادّعاءات التي كذّبها التاريخ. وما شجّع الجيلالي على إنجاز مشروعه هو الدعم الذي لقيه من طرف أصدقائه[17]، وقد وضّح المؤلّف الغاية من كتابه بقوله : << لحمل الشباب المسلم الجزائري على احترام بلاده، وتمجيد تاريخيه اللامع العظيم، والثقة بمستقبله الزاهر النيّر، مع نفخ روح القوميّة فيه، وإعداده لوصل حاضره بماضيه، حتّى تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة : المحافظة على شخصيّته وميزته، وتقديس أسلافه الأمجاد والتمسّك بدينه، والعمل على الإشادة بوطنه>>[18].

فهدفه من التأليف كان وطنيا مثل الميلي والمدني، ولعلّ الشيخ كان يهدف أيضا بالتأليف في تاريخ الجزائر إثبات وجود الشخصيّة الجزائريّة، خاصّة وأنّ بعض الجزائريين شكّكوا فيها مثل فرحات عباس الذي صرّح قائلا :

<< لن أضحي بحياتي من أجل الوطن الجزائري، لأن ذلك الوطن لا وجود له، لقد سألت التاريخ، والأموات والأحياء فلم يخبروني عنه ...>> [19].

وقد ردّ عليه ابن باديس مؤكّدا وجود هذه الأمّة، ثمّ جاء الجيلالي بكتاب ليثبت بأنّ الجزائر لها شخصيّتها العربيّة الإسلاميّة، وأن الواجب يفرض التمسّك بذلك، وقد أكّد

اهتمامه بالعصور الإسلاميّة، لكونه رأى الخصم < فرنسا> يعمل على محاربة الإسلام عقائديًا وأدبيًا فركّز الكتابة عن هذا العصر[20] .

وقد اعتبر الجيلالي الجزء الأكبر من التاريخ الإسلامي المدوّن من طرف الميلي والمدني غير كاف[21] . فالأول من مجموع 359 صفحة في الجزء الأول خصّص 313 صفحة للحقبة ما قبل الإسلاميّة، أي ما يعادل 8/7 من الجزء، أمّا المدني فبحث في الحقبة العربيّة في كتاب قرطا جنة... ضمن 13 صفحة فقط، أمّا في كتاب الجزائر فكان جدّ مختصر لاهتمامه بالفترة المعاصرة، ولذلك ارتأى الجيلالي أن يخصّص اهتماما أكبر بالفترة الإسلامية، وقد قيل أنّ المسلمين عندما يكتبون عن وطنهم، يكونون أقرب إلى الصدق من الأوربيّين[22] .

ونختم دواعي كتابة تاريخ الجزائر العام بما قال الشيخ :< لقد كنت عاجزا عن حمل السلاح فرفعت القلم>[23] .

3- مفهوم التاريخ عند الجيلالي :

التاريخ عنده هو الذي يثبت وجود الأمّة، من ماض وحاضر وآمال مستقبليّة، دفاعا عن وحدتها ومجتمعها وموطنها المقيمة فيه، ومستقرّها حيث وجدت [24] .

وعرّف التاريخ في المصطلح بأنّه << علم تعرف به أحوال الماضين من الأمم الخالية،من حيث معيشتهم وسيرتهم ولغتهم وعاداتهم ونظمهم وسياستهم واعتقادهم وأدبهم حتّى يتمّ بذلك معرفة أسباب الرقي والانحطاط في كلّ أمّة وجيل >>[25] . ويرى بأنّ صلة الحاضر بالماضي وثيقة وقويّة، خاصّة وأنّه مؤمن بأنّ التاريخ يعيد نفسه . ومنه، فتتبّع أحوال الأمم السابقة من صميم خدمة المستقبل، فالماضي يعطينا أمثلة واقعيّة تطبيقيّة لسيرة شخصيات من الماضي،ولا يستثني الجيلالي حتّى الأخطاء التي ارتكبها الأشرار من الأسلاف، والهدف هو أخذ الدروس والعبر النفيسة والعميقة الباعثة في الأمم صفة الأخذ بالعبرة تجنّبا للوقوع في مثل تلك الأخطاء حاضرا ومستقبلا .

ومن التاريخ يمكن لنا معرفة سير المدنية والثقافة التي عاشها هذا الوطن خلال مختلف العصور، فهو نعم الأستاذ في تنمية الأفكار وتوسيعها .

أما شروط المؤرخ في رأيه : << العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك... والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي سقوطها وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث واقفا على أصل كل خبر >> [26].

من خلال ما أورده، نجد أن تعريفه للتاريخ يستند إلى مبادئ ابن خلدون في التاريخ والعمران[27]، ولكنّه ينظر إلى الأساليب الحاضرة ومقاييس المعرفة .

وإذا كان قد قدّم هذا التعريف وما يشمله من شروط للمؤرخ، فهل اتبع ذلك في تأليفه، وهل نهج خطّة مطابقة لما شرحه ؟ ذلك ما سنعرفه عند التعرّض لمنهجيّة الكتاب

4-منهجية الكتاب :

صدر من تاريخ الجزائر خلال مرحلة الدراسة جزءان، الأول سنة 1953 ويحتوي على 340 صفحة، والثاني سنة 1955 وفيه 402 صفحة ، وتزامن ذلك مع اندلاع الثورة التحريرية، وقد أعيد طبعه بعد الاستقلال سبع مرات، والثامنة صدرت مؤخرا (2008)، وكانت كل طبعة مزيدة ومنقحة، حتى أصبح في خمسة أجزاء [28]، وعندما قارنا هذه الطبعات مع الطبعة الأولى كدنا نقول بأنه كتاب جديد، ولذلك فإن اعتمادنا سوف يكون على الطبعة الأولى .

وعن النهج أو الطريقة التي اعتمد عليها، فهو يقول بأنه سوف يبتعد عن كل تعقيد أو إبهام، لتيسير الفهم واستيعاب المعلومات، ومعتمدا طريقة الجمع، أي البحث في الكتب التي تتوفر عنده عن كل ما يهم الجزائر فيخرجه، ويقوم بعملية الربط والتنسيق بين النصوص ووضعها حسب مواضيعها المختلفة (سياسية، اقتصادية، دينية، ...)، وذلك

على نسق ما سطّره من خطّة، لأنّ هدفه كان جمع ما هو مشتّت في الرفوف وعلى صفحات الكتب.

وفيما يتعلق بالفترات التي أراد جمع معلوماتها وترتيبها، فقد رأى عدم الحاجة للعهد القديم خلال تلك الظروف التي صدر فيها الكتاب[29]، فمن مجمل هذا الأخير خصّ ذلك العهد بـــ 88 صفحة وفي المقابل أسهب في العصور الإسلامية وفصّل فيها القول .

وحسب ما أورده في المقدّمة يظهر أنّه جمّاعة للأحداث وناشر لها، فقال : <<... جامعا فيه ما لا يسع جهله ولا يحسن إغفاله >>[30] ، ثمّ قال :<<حيث أنّي لم أجيء فيه بشيء جديد أو مبتكر حديث وإنّما هو جمع وتدوين... >>[31].

أمّا الفئة التي وجّه إليها الكتاب فهي من الهواة بالدرجة الأولى، وعن موقفه من القضايا التاريخية فقد أكد على الصراحة في الحكم متحاشيا كل انحياز أو امتياز .

انطلاقا مما ذكره نرى بأنه جامع وناشر للتاريخ وليس مؤرخا محترفا، بل هاو!

غير أننا لا نجزم بالحكم النهائي، إلا بعد الغوص في ثنايا الكتاب ودراسته شكلا ومضمونا حتى يتهيّأ لنا تقييمه، والحكم عليه وعلى صاحبه.

يظهر أن الجيلالي استفاد كثيرا مما ألّفه مبارك الميلي و أحمد توفيق المدني، ليس من المعلومات فحسب، ولكن في احتياطه مما وقعا فيه، سواء من حيث المضمون التاريخي أو من حيث الطابع الشكلي المنهجي للكتابة، ولا نرجع كل الفضل للجيلالي، ولكن الفضل لمن سبق وانطلق، ومن واجب الثاني أن يعرف عوامل النقص والتقصير فيتفاداها.

لقد حرص كل الحرص على إتباع خطة واحدة في التأريخ لكل حقبة، فسار على مخطط واحد تقريبا، متضمنا فقرات معنونة.

درس الأحوال والأطر التاريخية التي مرّ بها هذا الوطن في كل عهد، وخاصة خلال الفترات الإسلامية، متعرضا لمختلف أوجه الحياة، وكانت الخطة في كتابه على هذا

الشكل :

الدولة ونشأتها، وحدودها، ونظام حكمها، ووضعيتها الدينية والثقافية والحضارية والعمرانية والاقتصادية، وأسباب ازدهار كل دولة في وقت ما، وأسباب انحطاطها في وقت آخر، ولكل دولة في آخر الحديث عنها جدول للملوك والأمراء، وآخر جامع لأهم الأحداث التي جرت على عهدها، وجدول ثالث لأشهر الحكام والشخصيات، وكانت نهاية الكتاب في طبعته الأولى عند العهد العثماني، ولكن لم يتعرض لكل هذا العهد، وتوقف عند نهاية عصر الباشاوات (995هـ/1069م. 1659/1587).

هذا وقد ذكر في تقديم الكتاب أسباب ودوافع تأليفه، ونوعية المواضيع المتطرق إليها ومنهجية ذلك وتعريف التاريخ، وأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها، بذكر العنوان، واسم المؤلف، ودار الطبع، وسنة ذلك، مرتبة ترتيبا هجائيا، ومصنفة، أي العربية وحدها، والفرنسية وحدها.

وكان في بعض المواضع يحيل القارئ إلى الهامش الذي يضمنه الحديث على مصدر ما أورده، بدون أن ينسى ذكر ما يخص الكتاب من عنوان، واسم مؤلفه، وطبعته، وعندما يستدعي الأمر التوضيح فإنه يخصص للشرح والتحليل هامشا، ولا يهمه إن أطال، فمثلا عند حديثه عن المصحف الشريف خصّص أكثر من صفحتين للحديث عنه في الهامش[32].

واحتوى الجزء الأول على صور توضيحية تتمثل في ست خرائط (عن القطر الجزائري، المعادن والمناجم، الجزائر الفلاحية، الجزائر الوندالية، المغرب العربي في القرنين 3،2 هجري، المغرب العربي في القرنين 6،4 الهجريين) وعلى ست لوحات مصورة عن الآثار المختلفة.

أما الجزء الثاني ففيه خريطتان تاريخيتان وأربع لوحات.

وكان يضع عنوان الخريطة ومقياس رسمها، كما كان يعنون الصور. وفي آخر الجزء الأول صحّح بعض الأخطاء بذكره للصفحة والسطر والخطأ وصوابه، وفعل نفس الشيء في الجزء الثاني .

وعند حديثه عن أشهر الشخصيات نجده يأسف على فقدان بعض من كُتبهم والتي يذكر عنوالها فقط، كما انه يعطي من حين لآخر عناوين كتب وأرقام تواجدها بالمكتبات سواء داخل الجزائر أو خارجها، فمثلا عن محمد بن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1378م) ذكر بأن له ثروة علمية عظيمة أودعها بطون مؤلفاته، ولكن لم يبق لنا اليوم منها سوى قائمة أسمائها،منها المسند الصحيح في محاسن مولانا أبي الحسين، توجد نسخة منه بمكتبة الأسكوريال قرب العاصمة مدريد تحت رقم 1616[33].

ولم يكتف بالحديث عن الجزائر فقط، بل وسّع المجال إلى شمال إفريقيا، وثبت فهارس تاريخية أخرى عن مناطق أخرى مثل ذكره للخلفاء الأمويين والعباسيين... إن فائدة الجداول التي وظفها المؤلف ضرورية جدا ومهمة، خاصة وأن الجزائر عرفت حقبا مختلفة وأحداثا أكثر اختلافا، كما عرفت ملوكا وحكاما محليين، وأوربيين ومشارقة، فالباحث المتخصص يفترض فيه الاطلاع على كل شيء يتعلق بتخصصه، أما القارئ العادي فيكتفي بمعرفة الإطار العام لتاريخ البلاد .

إن تلك الجداول المقيدة لأهم الأحداث التاريخية وأشهر الشخصيات تسهّل المعرفة التاريخية بدون شك .

ويتفق الجيلالي مع الميلي في توظيفهما الاستشهاد بالنصوص التاريخية المختلفة حتى الطويلة منها [34] . غير أن الجيلالي كان يحيل إلى مصدر استشهاده. ولم يكتف بالنصوص التاريخية فقط، بل وظّف نصوصا أدبية ونثرية وشعرية. ومن ذلك الأبيات التي نظمها الشاعر ابن حميدس الذي وصف عصر المنصور بن ناصر[35] في قصيدة طويلة جدا، شملت 48 بيتا[36].

إن الاعتماد على الشعر دعم لما يكتبه المؤلف، ومصدر مهم في التأكيد على ما أورده الباحث، فالأدلة والشواهد في التاريخ بمثابة الركائز الأساسية للبناء القوي، وقد تنبه الجيلالي إلى ذلك ولم يهمله .

إنّ كتاب الجيلالي لم يتناول القضايا السياسية والعسكرية فقط، بل عالج حوادث أخرى مثل الميدان الفكري والحضاري، حيث أرّخ للحركة الفكرية في عهد الدولة الحمادية، وما تميزت به من صناعات فنية كالتصوير والنحت والنقش والزليج [37]، وذلك يدل على شساعة أفق المؤلف.

وإننا نجد في كتابه الدقة في ضبط التواريخ لدرجة أنه أحيانا يذكر حتى اليوم والشهر، ولم يكتف بتاريخ واحد بل استعمل الهجري والميلادي لحدث واحد.

وتعتبر ترجمته لأشهر الشخصيات إحياء للتراث الجزائري، ودعما لعمل الحفناوي صاحب <<تعريف الخلف برجال السلف>>. وإن كان الجيلالي قد أتمّ تنسيق المعلومات وحررها وأصدر كتابه في الطبعة الأولى، وتناوله القراء، إلا أنه في باقي الطبعات ابتداء من الطبعة الثانية (1965) كان يرجع ليضيف في كل واحدة منها معلومات إضافية وبمصادر ومراجع أخرى كاعتماده على بعض كتابات صلاح العقاد التي ظهرت متأخرة .

وعن التنقيح والزيادة يقول الشيخ بأنه وقع له ما وقع للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، الذي كتب إلى صاحبه العماد الأصفهاني معتذرا عن كلام استدركه عليه حيث قال : <<... رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غيّر هذا لكان أحسن ولو زيد لكان يستحسن ولو قدّم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل... وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر >>[38].

إلا أن صاحب <<مؤرخي الشرفاء>> يرى أن تلك التغيرات التي تلحق الكتاب بعض تبييضه وإخراجه للناس هي من أهم أسباب عدم توفر الوحدة في الكتب التاريخية [39].

ويبد وأن بروفنصال كان يقصد الكتب التي تتناول القضايا التاريخية المحددة زمانا ومكانا، أما بالنسبة للجيلالي فكتابه في التاريخ العام، ومهما أضاف لا يعد سلبيا، بل توسعا وتثمينا لعمله السابق، وتلك المعلومات يستحسن إضافتها .

إن أي بحث لا يخلو من الصعوبات، فإن الصعوبات التي واجهها الجيلالي: هي تشتت الموضوع، وانتشاره في عدة مراجع حاضرة ومفقودة، عربية وفرنسية، ثم أن زوجته السيدة <أم غالب> هي الوحيدة التي ساعدته، وأما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فلم تقدم له أي عون، أو مساعدة [40]، ومن ثمة لم يكن لها فضل في عمله.

ويظهر أن ذلك كان بسبب كونه غير عضو فيها لعدم رغبته الغوص في المسائل السياسية. وما يؤكد أن الجمعية لم تهتم بكتاب الجيلالي، اهتمامها بالميلي والمدني، بحيث أنها كانت من حين لآخر، وبمناسبة صدور أي كتاب إلا وسارعت بالإعلان عنه في الجرائد (خاصة في البصائر والشهاب) ثم أن الجمعية كانت تقيم حفلات تكريمية للميلي والمدني.

ومن أهم الصعوبات التي اعترضت الجيلالي متابعة الإدارة العسكرية له، ولم يدافع عنه سوى بعض الأصدقاء الذين أكدوا لها بأنه يكتب في تاريخ قديم لا يمس الحاضر ولا يهدد وجود فرنسا[41].

5- المصادر والمراجع :

نجدها متنوعة، وخاصة العربية منها، والتي ركز عليها الجيلالي أيما تركيز وعددها واحد وستون عنوانا، في مقدمتها القرآن الكريم، وما ألّفه الميلي والمدني. كما اعتمد بصفة خاصة على كتاب عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ-1406) المسمى كتاب العبر، وخاصة على المقدمة .

وعلى كتاب <البيان المغرب في أخبار المغرب > لابن عذاري المراكشي (ت706هـ-1307م) ويحتوي هذا المؤلف على وقائع تاريخية وأخبار تتعلق بالوضعية الاقتصادية وطبيعة المجتمع والعلاقات بين الحكام، وخاصة في الفترة التي عايشها، إلا أنه من حين لآخر كان يختصر المعلومات[42]، غير أن أهمية الكتاب لا يمكن نكرانها ولا الاستغناء

عنها، فهو يحتوي على تسجيل لوقائع الفترة الإسلامية الأولى ببلاد المغرب منذ أن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سنة 21هـ/641م وذكره لما وقع أيام الفاطميين .

ومما رجع إليه الجيلالي كتاب نيل الابتهاج بتذييل الديباج، لصاحبه أحمد بابا التنبكتي (ت1036/1627) وهو أهم ما كتب بحيث تعرض فيه لترجمة ثمانمائة (800) شخصية من المذهب المالكي. وكان هذا الكتاب مصدرا مهما لأعلام المغاربة[43].

وما تميز به الجيلالي عن سابقيه هو اعتماده على المخطوطات وعددها ثمانية، منها تاريخ بلد قسنطينة [44] لأحمد بن العطار (ت1287هـ/1870)، ورغم صغر حجمه (38 صفحة) إلا أنه يحتوي على معلومات جادّة عن مدينة قسنطينة، وهو نوع من الآثار والتاريخ والذكريات العامة والأحداث المهمة التي عرفتها قسنطينة في العهد العثماني.

كما اعتمد على مخطوط (الرحلة القمرية) لابن زرفة، والحقيقة أنه ليس برحلة، بل هو في سيرة الباي محمد الكبير وجهاده، فهو مهم للفترة العثمانية.

إضافة إلى اعتماده على مخطوط <<الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة >> لمحمد بن يوسف التلمساني (ت1194/1780) . ومن الملاحظ أنه يحتوي على مادة مهمة عن العهد العثماني وخاصة عن الاعتداءات الأوربية الخارجية على الجزائر سنة 1775 .

أما المراجع الفرنسية فقد اعتمد بصفة خاصة على شارل أندري جوليان، في كتابه تاريخ إفريقيا الشمالية الذي صدر في سنة 1931 [45] والذي اهتم بماضي المنطقة، فله أهمية خاصة، كونه يعطي نظرة عامة وشاملة. وللكتاب دور تاريخي، فلا يزال إلى يومنا هذا المرجع المعتمد لدى المغاربة (المغرب الأقصى، الجزائر، تونس) خاصة وأن جوليان أظهر شجاعة نادرة عندما أصدر كتابه على وقع الاحتفالات المئوية، وحسب عبد الله العروي فإنه لا يوجد أحد يستطيع أن ينوه بالكتاب التنويه اللائق بشجاعة جوليان [46].

وعلى الرغم من التحيز الذي أظهره في أحكام غير موضوعية، إلا أننا عندما نقارنه بالكتاب الذي أصدرته الإدارة الفرنسية حول <<تاريخ ومؤرخي الجزائر>> يتّضح لنا مدى ما اتصف به جوليان من جدّة، فهو يقف على أرضية إصلاحية. أي إصلاح وضعية الأهالي وتحسينها، ويناقش منظري الاستعمار انطلاقا من مسلماتهم، ويحاور قزال وغوتيه وأوجين البيرتيني محاولا إقناعهم أن نتائج بحوثهم هي التي تحتم إعادة النظر في مستقبل شمال إفريقيا وتغيير السلوك السياسي فيها .

ونجد الجيلالي ينوه بالمؤرخ الفرنسي ستيفان قزال Stephane Gsell ويصفه بالمؤرخ الكبير، أما كتابه التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية فيصفه بالحافل .

وبصفة عامة فالمراجع المعتمد عليها لا بديل عنها آنذاك، ثم أنها مهمة لأي باحث في تاريخ شمال إفريقيا عامة، والجزائر خاصة، ويظهر جليا أن المادة العلمية عند الجيلالي عرفت تحسنا وتطورا كبيرين مقارنة مع الميلي [47].

6- الترجمة والأسلوب

لم يكن الجيلالي يعرف الفرنسية إلا قليلا [48]، ولا يختلف في هذا كثيرا عن الميلي، وفي الطبعة الأولى لم نجد أي إشارة توحي إلى اعتماد الجيلالي على تراجمة أو مساعدين، ولكنه في الطبعة الثانية (1965) أقر بما هو مدين به : للكتب ومؤلفيها، وهم الذين ذكرهم في صدر الكتاب منوها بأسمائهم، ثم بما هو مدين به لزوجته السيدة : <<أم غالب>> <<ميمي خداوج>> التي توفيت سنة قبل صدور هذه الطبعة (1964).

فهو يقول عنها بأنها قدّمت له مؤازرة عظيمة بما حققته من مواضيع تاريخية، وبحوث مهمة، استخلصتها من قراءتها المتواصلة لكتب الأوربيين الذين اهتموا وكتبوا عن تاريخ الجزائر، وقال بأنها كانت تلخصها وتترجمها [49]، طيلة الفترة الخاصة بإعداد البحث، أي نحو ستة (16) سنة، منذ بداية الحرب العالمية الثانية[50]، فكانت خير معين له. وهي الوحيدة التي كانت تساعده في الترجمة، وقد كان عمله مرهونا بما كانت تترجمه له.

ولم يغفل الشيخ الجيلالي في الطبعة الأولى عن التنويه بها، ولكنها هي التي رفضت ذلك، لتواضعها وخجلها وتنازلها عن حقها.

وإن تقديم الزوجة يد المساعدة لزوجها ليست غريبة لا ماضيا ولا حاضرا، فأبو القاسم سعد الله نجده ينوه بزوجته في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، والذي قال بأنها كانت تدفعه كلما اعتراه سأم أو مرض، وأملت عليه معظم فصول الجزء الأول، كما أنها دلّته على مراجع ومسائل لم يكن قد اهتدى إليها [51].

غير أن ما احتاجه سعد الله يختلف عن الذي احتاج إليه الجيلالي، فهذا الأخير عمله كان مرهونا ومتوقفا على مدى عطاء زوجته بما تستطيع أن تترجمه .

وامتاز أسلوبه في الكتابة بالسلاسة والسهولة، والوضوح، وعدم الإكثار من المحسنات البديعية والتنميق، مما جعله أقرب إلى الأسلوب العلمي منه إلى الأدبي، وهو الأسلوب المناسب في الكتابة التاريخية .

الخاتمة :

قال مالك بن نبي :"وفاة المفكر حياة لأفكاره" ،وعليه فإن وفاة الشيخ الجيلالي – رحمه الله– من صميم السنن الكونية ولكن للشيخ أفكار وأبحاث ومخطوطات لم تنشر،وآن أوانها للنشر وإننا على يقين بأن هناك من يتولى ذلك .

الهوامش :

1– لقاء مع الجيلالي بمدينة الجزائر، في بيته يوم 2001/01/25 .

2–نفس اللقاء.

2– 3–لقاء مع الجيلالي ببيته يوم 2001/07/27، 06 جمادى الأولى 1422 هـ

3– الهاشمي العربي، تصدير لكتاب تاريخ الجزائر العام للجيلالي، ط8، تحت الطبع (صيف 2001).

4- -تاريخ الجزائر الثقافي، 09ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1 1998، ص54.

6-كانت هذه الفرقة تعقد بمسجد ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي حلقات للذكر بإشراف الشيخ بوقندورة مفتي الحنفية بالجزائر العاصمة، وهو أستاذ محي الدين باش تارزي، عميد الحركة المسرحية بالجزائر .

7-الحاج محمد حشلاف، عبد الرحمن الجيلالي، بطاقة تعريف، مطبعة هومة، الجزائر، جويلية 1999، ص08.

8- لقام يوم 2001./08/10

9-اطلعت على هذا الوسام عند زيارة الشيخ ليوم 2001/07/27 وهو إطار ممضى من طرف مرسى سنة 1950، وفي 05 جويلية 1987 قدّم له الشاذلي بن جديد وسام استحقاق واعتراف وتقدير جهوده.

10- -نشر بها مثلا <<كتاب الجزائر تجاه النقد>> سنة .1932

11-لقاء يوم 2000./01/25

12- منحني السيد / صدّيق مخيوبة مشكورا كل ما كتبه الجيلالي حسب المواضيع، ومشيرا إلى بعض أماكن نشرها .

13-لقاء مع الجيلالي يوم 2001/07/27

14-محمد دحو / لأني رأيت تاريخ الجزائر مهمشا- لقاء مع الشيخ الجيلالي/يومية السلام : الجزائر، ع8، الأربعاء 27 ربيع الثاني 1411 14 نوفمبر 1990، ص.04

15-نفس اللقاء السابق .

16- دون إمضاء /تاريخ الجزائر العام/في /المنار، الجزائر، س3، ع45، الجمعة 29 شوال 1372/

10 يوليو 1953: ص.2

17-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 2ج، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1272هـ/1953، ج1، ص5.

18-نفسه، ص6.

19-FERHAT ABBAS,/ LA FRANCE C'EST MOIS/ IN/ LA DEFENSE , ALGERIE, N° 95, VENDREDI 1936, P01.

20- لقاء مع الجيلالي، يوم 2001/08/10 .

21- BEN CHENEB (SAADEDDINE)/QUELQUES HISRORIENS ARABES MODERNES DE L'ALGERIE /IN/ REVUE AFRICAINE, JOURNAL DES TRAVAUX DE LA SOCIETE HISTORIQUE ALGERIENNE, ALGER, VOL100 , 1956, P496

22- -بروفنصال (ليفي)، مؤرخو الشرفاء، ت عبد القادر الخلادي ؛ دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397/1977 ص23 .

23-لقاء يوم 2001/07/27؛ 06 جمادى الأولى 1422 هـ.

24-نفسه .

25- الجيلالي، المصدر السابق، ص.18

26-نفسه ، ص.21

27-لمعرفة ذلك، انظر، عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تقديم عبد الهادي بن منصور وآخرين، (في فصل علم التاريخ...) موفم للنشر، الأنيس، الجزائر 1995، ج1،ص13.

28- ظهر الجزء الخامس مع الطبعة السادسة، ويحتوي فهارس الأعلام البشريّة والجغرافيّة، وفهارس القبائل ومشاهير الاعلام والحوادث، لجميع الأجزاء، يقع هذا الجزء في 268 صفحة .

29-الجيلالي، المصدر السابق، ص.8

30-نفسه، ص.5

31-نفسه ، ص.6

32- الجيلالي، المصدر السابق، ص ص 116، 118 (الهامش) رقم 01 .

33- نفسه،ج2، ص 106 .

34-نفسه، مثلا في حديثه عن الحركة الاقتصادية للدولة الحمادية، نقل عن الادريسي 11 سطرا. ص391 .

35-تولى الحكم سنة 481 هـ/1089 على عهد الدولة الحمادية، 405هـ،547هـ/1014م-1145م.

36-الجيلالي، المصدر السابق، ص ص، 333،332،331 .

37-نفسه، ص 329 .

38-نفسه، الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت، ص.01

39-بروفنصال، المرجع السابق، ص64.

40-لقاء يوم 2001/08/10 .

41-لقاء يوم 2001/07/27 .

42-من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1 1999، ص.138

43-نفسه، ص.322

44-تصحيح وتقديم ، نور الدين عبد القادر، منشورات المدرسة التطبيقية للدراسات الإسلامية، المطبعة الرسمية، الجزائر، الجزائر 1952

45- أعيد طبعه في جزأين، سنة1951 طبعة منقحة بإشراف كورتوا وروجي لوتورنو .

46-المرجع السابق، ص31.

47- ابن شنب، المقال السابق، ص.498

48-نفسه، ص .497

49-الجيلالي المصدر السابق، ط2i 1965، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ج1، ص.9

50-المنار، المقال السابق .

51-ج1، ص08.

التكوين العلمي والفكري للشيخ عبد الرحمن الجيلالي

د. بوبكر بعداش
جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة

مقدمة:

نشأ الشيخ العلامة عبد الرحمن الجيلالي في بيئة علم وأدب وثقافة وفكر، فقد كان التعليم في تلك الفترة من القرن الماضي جزءا أساسيا من حياة الناس، وكان المعلم والمتعلم موضع تقدير واحترام، وحب العلم كان جزءا هاما من العبادة، لدى أهالي المدن العريقة كالجزائر وقسنطينة وبجاية، وتلمسان، وحتى في الأرياف والقرى البعيدة؛ ومدارس العلم بالعاصمة لوحدها كانت تفوق المائة مدرسة قرآنية عند الاحتلال، وكانت المساجد آنذاك حافلة بالأساتذة والعلماء والتلاميذ، وكذلك الزوايا بالقرى لم تزل جامعة للمشايخ والطلبة وكلهم يبذلون جهودهم في الإلمام بالعلوم ونشرها بين الجماهير. في هذا الوسط العلمي عاش الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، ونهل من ينابيع الفكر والمعرفة.

ولكن البعض شككوا في تتلمذه على العلماء والشيوخ، وزعموا بأنه عصامي التكوين؛ بمعنى أنه كون نفسه بنفسه ولم يعتمد في العلوم والمعارف على شيوخ أو أساتذة، كما هو شأن أصحاب الجامعات والمعاهد الدينية.[1]

والحقيقة أن هذه تهمة باطلة قيلت عن الشيخ -عليه رحمة الله تعالى- وذلك لتعدد مواهبه، وتنوع معارفه وثقافته.

---

[1] العصامي في عصرنا هو الشخص الذي يحصل تعليمه وثقافته بالاجتهاد الشخصي، معتمدا في ذلك على نفسه وعلى إرادته وعزيمته الصادقة في الوصول إلى هدفه المنشود دون التتلمذ على المشايخ والعلماء: كبعض الأعلام في العصر الحديث.

فالشيخ قد ألتحق منذ صباه بالكتاتيب والزوايا والمساجد التي كانت تزخر بها العاصمة في ذلك الوقت، فلازم رجال العلم والمعرفة. الذين أسندت إليهم مهمة تدريس العلوم بالمساجد، كالجامع الكبير، وجامع سيدي رمضان، ومسجد ضريح عبد الرحمن الثعالبي، فكان واحدا من الذين تلقوا تعليمهم الديني والشرعي منها، على يد فطاحل العلماء في تلك الفترة.

1- أسباب الزعم بأنه عصامي التكوين

قيلت تهمة العصامية عن الشيخ وأمثاله، ممن عاشوا في تلك الفترة الزمنية لأسباب كثيرة منها الذاتية الشخصية، والموضوعية العلمية:

أولا: الأسباب الذاتية

- يعود إلى قدرة ذلك الرعيل على تحصيل معارف وعلوم شتى بإرادة ذاتية وصبر جلد، وقد كان العلامة عبد الرحمن الجيلالي واحدا من ذلك الطراز الفريد. فقد جمع بين علوم شتى وتعمق فيها كعلوم القرآن وعلوم الحديث، والأدب والتاريخ والفقه الإسلامي حتى صار مفتيا على أمواج الإذاعة الوطنية لفترة طويلة.

ومهما يكن من أمر فإن شيخنا عبد الرحمن الجيلالي عصامي الروح والإرادة، نظامي التكوين والاتجاه، فقد كان يتردد على شيوخ المساجد والزوايا، التي كانت العاصمة تزخر بهم في تلك الفترة الغنية بالنشاط الثقافي والديني الذي قاده أعلام من الفقهاء والأدباء والكتّاب، وقد يتحدث هو عن نفسه بقول: «أجمل ذكريات حياتي هي تلك الفترة التي قضيتها بالمدرسة الابتدائية القرآنية مع شيخي عبد الحليم بن سماية،...».[1]

---

[1] مقابلة أجرتها صحيفة الشروق اليومي مع الشيخ قبيل وفاته، ليوم الأربعاء،2008/09/10.

- إضافة إلى أن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي لم يتحول عن الجزائر إلى غيرها من الحواضر العلمية؛ كالزيتونة والقرويين والأزهر، كما هو شأن طلبة العلم في ذلك الزمن، بل ظل الشيخ بالجزائر، وربما طاف ببعض الولايات، ولكن المؤكد أنه لم يخرج إلى باقي الدول العربية لطلب العلم.

ثانيا: الأسباب الموضوعية

- محاولة الغض والنيل من قدر العلماء الذين أسندت لهم مهمة التدريس في المساجد والزوايا، وأنهم لم يقدموا شيئا يذكر، وهذه نظرة تحقيرية لعلماء تلك المرحلة.

- نقائص التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، وهو انعدام مؤسسة قارة وقوية للتعليم الإسلامي ذات إشعاع وطني، مثل القرويين في فاس والزيتونة في تونس والأزهر في مصر.[1] فكانت دروس التعليم الثانوي والعالي مبعثرة في الجزائر وليس لها منهج أو مراحل تقطعها. وكانت اجتهادية وظرفية، فهي خاضعة لمهارة وشهرة المدرسين ومناسبة الظروف السياسية والاقتصادية.[2]

ورغم ذلك فإن جل العلماء في تلك الفترة يباشرون التدريس في المساجد، لإرشاد الشعب ولتكوين من يخلفهم في وظيفتهم من تبليغ الأمانة إلى من بعدهم سالمة غير منقوصة، فكانت الدروس بجميع المساجد في أيام معلومة

---

(1) والحمد لله فقد تحققت أمنية ذلك الجيل في مركز قار وقوي لتعليم العلوم الإسلامية في الجزائر، وهو ما تم بالفعل سنة 1984م؛ حيث دُشنت وافتتحت رسميا جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وهي تضاهي في سمعتها ومكانتها الأزهر الشريف ولا ينكر ذلك إلا مكابر.

(2) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، 57/3.

وأوقات مضبوطة؛ حتى يمكن للطالب التنقل من جامع إلى جامع بدون أن يفوته الدرس الملقى في الجامع التالي. وكان التعليم منظما مستوفيا، والطالب في ذلك العهد يتلقى الدروس ويقرأ الكتب المذكورة كما يلي:

- في النحو: متن الأجرومية، بشرح الكفراوي، والشيخ خالد الأزهري، ثم متن القطر (أي قطر الندى) بشرح مؤلفه ابن هشام وحاشية السباعي، ثم ألفية ابن مالك بشرح الماكودي وشرح ابن عقيل والأشموني.
- في الصرف متن الزنجاني بشرح سعد الدين التفتازاني ولامية الأفعال بشرح بحرق وحاشية ابن حمدون.
- في اللغة: مقامات الحريري وقطع مختارة من الشعر والنثر.
- وفي العروض: متن الكافي بشرح الدمنهوري والخزراجية بشرخ الأخضر.
- في البيان: الجوهر المكنون بشر الدمنهوري و السمرقندية بشرح العطار.
- في التفسير: الجواهر الحسان في تفسير القرآن لسيدي عبد الرحمن الثعالبي.
- وفي القراءات: الشاطبية وغيث النفع لسيدي النووي
- في التوحيد: المنح الفكرية على متن الجزرية وحاشية زكرية الأنصاري.
- في الحديث: موطأ الإمام مالك بشرح الباجي والزرقاني وصحيح البخاري بشرح القسطلاني.
- وفي مصطلح الحديث: متن البيقونية بشرح الزرقاني.
- في الفقه: المرشد المفيد بشرح ميارة، متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني بشرح أبي الحسن ومتن الخليل بشرح الدردير وشرح الخرشي
- في أصول الفقه: متن الورقات لإمام الحرمين بشرح الحطاب وتنقيح الفصول في الأصول للقرافي.

- في أصول الدين: رسالة السنوسي بشرح البيجوري والجوهرة للقاني بشرح ولد عبد السلام ومتن الاخريدة بشرح الدردير والعقائد النسفية بشرح التفتزاني.

- في علم الفلك متن السنوسي بشرح المؤلف وشرح الورزيزي ونظم السراج بشرح مؤلفه ومفيد المحتاج للأخضري.[1]

فهذه أهم المقررات التي كانت تقدم لطلبة العلم في تلك الفترة الزمنية، وهي تدل على المستوى العلمي الرفيع الذي كان عليه التعليم في زمن الشيخ الجيلالي.

2- شيوخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي

تتلمذ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي على يد علماء وشيوخ أخذ عنهم العلم حتى تمكن فيه، شأنه في ذلك شأن طلبة العلم في كل عصر، وقد ذكرهم هو بنفسه في كتابه تاريخ الجزائر العام، في الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان: من مشاهير الجزائر، فذكر منهم:

- عبد الحليم بن سماية

عبد حليم بن علي بن عبد الرحمن بن حسن خوجة (1283هـ-1866م/ 1351هـ-1933م)، ترجع أصول أسرته إلى الأتراك، اعتنى به والده الذي كان متشبعا بثقافة عربية إسلامية، ومشرفا على التدريس بجوامع مختلفة كجامع السفير، والجامع الجديد بالعاصمة، أشرف على تربية ابنه-عبد الحليم

---

[1] إسماعيل العربي: الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص76-77، نقلا عن سعد الدين بن أبي شنب: «النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري»، مجلة كلية الآداب جامعة الجزائر، ع1، السنة الأولى 1964، 44-66.

بن سماية- تربية أساسها الدين والأخلاق، ومبادئ العلوم، فأخذ اللغة وقواعدها والفقه والتوحيد عن والده، كما لازم مشايخ عصره كالشيخ علي بن الحاج موسى، والشيخ القزداري، والشيخ علي ابن الحفاف والشيخ ابن طاهر الوتري المدني، وحضر دروس محمد سعيد ابن زكري، والشيخ علي بن حمودة، وكان ممن أخذ عنهم أيضا من كبار العلماء علامة القطرين الشيخ محمد المكي بن عزوز حينما كان يتردد على الجزائر. فأخذ عن هؤلاء الكثير من العلوم والفنون؛ كاللغة وآدابها وعلوم الشريعة وفنونها، كما تلقى علم الحساب والفرائض، وعلم الفلك و التوقيت، وعلم الإسطرلاب.

وإلى جانب التجارة اشتغل عبد الحليم بن سماية بالتدريس بالمدرسة الرسمية، فأدخل نظام إصلاح التعليم العالي بالجزائر، بقراءته لكتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، وتلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني، والبصائر النصيرية في المنطق لابن سهلان، والمفصل في النحو للزمخشري، وغيرها من الكتب المعتبرة عند أهل الخبرة والعلم. كما كان أول من أهتم بتدريس رسالة التوحيد للإمام محمد عبده فختمها في ظرف سبعة أشهر، لشغفه وحبه للإمام.

ولما زار الإمام محمد عبده الجزائر في صيف 1903م كان من بين مستقبليه والمحتفين به، حيث لازمه أثناء إقامته بالجزائر، ومدحه في قصيدة يفوق عدد أبياتها الخمسين بيتا، أرسلها له وهو في القاهرة، وتولى محمد رشيد رضا نشرها في مجلة المنار والثناء على صاحبه.

واشتهر الشيخ عبد الحليم من بين أساتذة عصره بالصلابة في الدين، والقوة في الحق، فكان يدفع شبه المعارضين للإسلام -وأغلبهم من الأساتذة الإفرنج بالجامعة الجزائرية- بما يستنبطه من الأدلة اليقينية، فيتصدى بالمناقشة والحوار

العلمي حتى يدحضها بناصع برهانه وصحيح استدلاله. ويقف في وجه رجال السلطة الحاكمة منتقدا ومنددا بأساليبها الظالمة الجائرة.

وللشيخ إلمام باللغة الفرنسية فهو يتحدث بها أحيانا عند اللزوم، كما كانت له معرفة باللغة العبرانية، واطلاع على ما بيد أهلها من نصوص العهد القديم والجديد من إنجيل وتوراة وتلمود، وكثيرا ما كان يجادل أصحابها في دينهم ويناظر أحبارهم ورهبانهم، ويسوق لهم الأدلة والنصوص، فيقيم عليهم الحجة من كتبهم وبلسانهم.[1]

وفي 15أكتوبر1900م أسندت إليه خطة التدريس بالجامع الجديد الحنفي مكان والده علي بن سماية، فما كان من الشيخ إلا أن شمر عن ساعد الجد والاجتهاد، فشرع في تدريس علوم اللغة والشريعة والمنطق، وبما أنه كان حنفي المذهب فقد كان يقتصر في دروس الفقه على كتب المذهب كالشُّرُنْبُلالي[2] والقُدُوري[3] والطحاوي[1]وابن عابدين[2] والنسفي[3]،

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،411/4.

[2] هو حسن بن عمار بن علي بن يوسف الوفائي المصري، الشُرُنْبُلالي نسبة إلى شُبرى بلولة (بالمنوفية)، فقيه حنفي، ولد سنة 994هـ- 1069م، وتوفي سنة 1585-1659م؛ جاء به والده منها إلى القاهرة وعمره ست سنوات، فنشأبها ودرس في الأزهر، وله في الفقه نور الإيضاح في الفقه الحنفي، والتحقيقات القدسية وتعرف برسائل الشُرُنبُلالي وعددها 48 رسالة. انظر: خير الدين الزِرِكلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت،ط15، 2002م، 208/2.

[3] هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان البغدادي، المشهور (بالقُدُور)، الفقيه الحنفي، ولد سنة 362هـ وانتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق، وتوفي ببغداد سنة 428هـ. من تصانيفه: مختصر القدوري، وشرح مختصر الكرخي. انظر: عمر رضا

وعندما يستشار من طرف العامة في اختيار كتاب لهم في الفقه، فإنه يشير عليهم دائما برسالة أبي محمد بن أبي زيد القيرواني المالكي.[4]

يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: «وكان فيما أخذناه عنه وتلقينا منه من الكتب التي اقرأها في تدريسه بالمسجد خلال سنوات (1343-44-45 هـ الموافق لـ:1924-25-26م): ورقات إمام الحرمين الجويني في الأصول، وشطرا من تنقيح الفصول للقرافي، ورسالة العضد في علم الوضع، وشرح السجاعي على المقولات العشر، والجوهر المكنون في البلاغة للأخضري بشرح مؤلفه المخطوط، ونظم الخزرجية في العروض، وقطر الندى في النحو، وتفسير سورة

كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 66/2-67.

[1] هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الازدي، الحجري، الطّحاوي (نسبة إلى طحا قرية بصعيد مصر)، الفقيه الحنفي ولد سنة 229هـ، وبلغ رتبة الاجتهاد وتوفي بمصر سنة 321هـ، من تصانيفه: المختصر في الفقه الحنفي، وأحكام القرآن، الاختلاف بين الفقهاء. انظر: عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، 107/2.

[2] وهو حاشية رد المحتار على الدر المختار (المسمى حاشية ابن عابدين) من تأليف ابن عابدين محمد أمين بن عمر.

[3] هو أحمد بن عمر بن محمد النسفي، الفقيه الحنفي، توفي سنة 664هـ، من تصانيفه: المنافع في فوائد النافع في فروع الفقه الحنفي. انظر: عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، 34/2.

[4] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،410/4. وانظر: أيضا: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الأسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980، ص187-188.

البقرة بالجواهر الحسان للثعالبي، ودروسا في كتاب البصائر النصرية في علم المنطق لابن سهلان، بتعليقات الشيخ محمد عبده».[1]

ثم يعتز الشيخ الجيلالي بالإجازة التي تحصل عليها من شيخه في رواية صحيح البخاري متصل السند بشيوخ العلم فيقول: «وإني لمعتز وفخور بما أتحفني، بل وشرفني به من تفضله علي بكتابة إجازة بخطه فيها بما أجازه به والده وجمع من مشايخه في رواية صحيح الإمام البخاري متصلة السند المسلسل بشيوخ العلم والحديث على الطريقة السلفية».[2]

فهاهو الشيخ يعتز بهذه الإجازة العلمية، التي تدل على مدى ملازمته الشديدة لشيخه العلامة عبد الحليم بن سماية.

- أبو القاسم محمد الحفناوي:

وهو الشيخ المحقق الأستاذ أبو القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الملقب والمعروف بابن عروس بن الصغير، ولد سنة (1266هـ-1850م) بقرية (الديس) قرب مدينة بوسعادة، ونشأ في بيت علم وفقه، فقد كان كل أقربائه وذويه يحفظون القرآن الكريم مع ما لا بد منه من علوم الدين وقواعد اللغة، أما والده فكان من أعيان علماء عصره في اللغة والأدب والتوحيد، وإليه كانت المرحلة في طلب النحو والصرف، والتوحيد، والمنطق، والفقه والحساب، وعلوم البلاغة والعروض. وعنه أخذ الحفناوي مبادئ العلوم. وكان ذا قريحة وقادة مع سرعة في الحفظ، ثم ارتحل في طلب العلم فاتصل بمشيخة كبار الزوايا ومعاهد العلم الشهيرة في عصره، وحصل في كل واحدة منها على إجازة عن تحصيله وإذن على تعليمها؛ فنــزل بزاوية طولقة

---

(1) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،410/4.

(2) عبد الرحمن الجيلالي: المرجع نفسه،410/4.

ببسكرة، واستقر بها مدة أربع سنوات، فأخذ فيها العلم عن مؤسسها الحفناوي بن الشيخ علي بن عمرو، والشيخ مصطفى بن عبد القادر، ثم رغب في الاستزادة من العلم فرحل إلى زاوية ابن أبي داود بتاسيلت بآقبو فأخذ علوم القرآن مع دراسة الفقه والفلك، بينما أخذ التفسير والحديث الشريف عن مؤسس زاوية الهامل محمد بن أبي القاسم الشريف الهاملي.[1]

كما أخذ الربع المجيب بأرجوزته، وعلم العروض عن ابن أخته الإمام محمد المكي بن عزوز أثناء زيارته للجزائر قادما من تونس.

وقد دفعه شغفه للبحث والمطالعة إلى التنقل للعاصمة أين تعرف على ثلة من العلماء كالشيخ علي بن الحفاف المفتي المالطي، والشيخ محمد القزداري مدرس الجامع الكبير، الشيخ حسن بريهمات مدير المدرسة الرسمية، الذي اقترح عليه التحاق بها معلما، لكن تدريسه بها لم يزد عن خمسة أشهر بعد وفاة مديرها، لكنه ما إن عاد إلى دياره بالديس حتى عاد من جديد إلى العاصمة بعد تلقيه دعوة رسمية من الولاية العامة، أين قدم للتحرير بجريدة المبشر الرسمية. الأمر الذي دفعه إلى تعلم قواعد اللغة الفرنسية عن العالم المستشرق أرنو رئيس المترجمين بالجريدة.

كما شغل الحفناوي أيضا منصب التدريس بالجامع الكبير في العاصمة منذ 1897م، ومنصب المفتي المالكي بعد إلحاح الكثير من العلماء سنة 1925م.

وقد أثبت العلامة عبد الرحمن الجيلالي ملازمته للشيخ الحفناوي الذي نهل عنه الكثير من العلوم أثناء تدريسه بالجامع الكبير بقوله: «فتقلده الشيخ [التدريس بالجامع الكبير] بالإضافة إلى عمله الإداري وشرع من حينه في تدريسه علوم الشريعة و الأدب، فاقرأ الفقه و التوحيد والنحو والصرف

---

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص121.

والحديث واللغة والمنطق والفلك والحساب، وأخذنا نحن ذلك عنه، وكان وئيدا في إلقاء الدرس لا يتسرع كثيرا، متعمقا في البحث مع كثير من التأمل».[1]

وفيما يرجع إلى نشاطه في ميدان التأليف والتصنيف فإننا نراه مؤلفا بارزا وكاتبا لا معا فيما حرره في كتابه الحافل، (تعريف الخلف برجال السلف) من جمعه لتراجم طائفة من علماء الجزائر وخيرة أدبائها، الذين لولاه لما عرفهم التاريخ، ولذهبت عنا أخبارهم مع الأيام، ولولا هذا السفر البديع لضاع منا كثير من تاريخ الحركة العقلية والفكرية بالجزائر في العصر الحديث. يقول الشيخ الجيلالي عن الجو الروحي والنفسي لتأليف الكتاب: «وذكر لي أنه كتبه كله وهو عن طهارة كاملة، إلى حد أنه كان يقلل جهده من شرب الماء حتى لا يضطر إلى النهوض عن العمل لإسباغ الوضوء».[2] وهذا ربما تيمنا بالإمام البخاري الذي كان يتوضأ ويصلي ركعتين قبل أن يثبت حديثا في كتابه الصحيح.

وقد بذل الشيخ الحفناوي جهودا جبارة في مطالعة كتب التاريخ ملتمسا منها كل ما يتعلق بماضي الجزائر، ليعرف الجزائريين ما كان لهم من العلم والعلماء فيما مضى من الأيام، فقال في مقدمة كتابه: «الظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أساليبه، وأتاه من سائر أبوابه، ووقف على معقوله ومنقوله، فتمكن من أصوله وفصوله، وكان لعلوم وقته جامعا لرايتها رافعا مثل أخويه المغربيين الأقصى والأدنى، فظهر في الأقاليم

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،429/4.

[2] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،433/4.

بدورد وأشهر في التاريخ قدره بعلماء بنوا تآليفهم على أركان التحقيق وحصنوها بأسوار التدقيق، فكانوا في عصرهم نجوم اهتداء وأئمة اقتداء».[1]

3- الشيخ المولود الزريبي الأزهري:

وهو المولود بن محمد بن عمار الزريبي، وهي قرية عربية واقعة في الزاب من دائرة بسكرة، من فقهاء المالكية كان من رواد الإصلاح في منطقة أوراس، ولد في زريبة الوادي (جنوب شرق العاصمة) سنة 1315هـ الموافق لـ 1897م، ودرس على العالم المصلح سيدي حامد العبيدي في الزاوية الحفناوية التي تبعد عن الزريبة بسبعة أميال، ثم ألتحق بجامع الأزهر فأكمل دراسته خلال أربع سنوات، يتردد على دروس علماء الكلية الأزهرية، ومن أشياخه فيها الشيخ محمد بخيت قاضي الإسكندرية، والعلامة الشيخ محمود الخطاب. نال شهادة العالمية، وأجازه إجازات منوها فيها بعلو كعبه واتساع اطلاعه في المعقول والمنقول، ومشاركته بتدقيق وتحقيق في كثير من الفنون. ثم عاد إلى بلده وأشغل بالتدريس والوعظ والإرشاد والإصلاح الاجتماعي في بلدته الأوراس، ثم تحول بعد ذلك إلى الجزائر العاصمة فتولى تحرير جريدة (الصديق) التي أصدرها محمد بن بكير التاجر اليسجني المزابي سنة 1920م، والتي تعد من أوائل الصحف الجزائرية في محاربة البدعة والدعوة على النهوض. كما تولى التدريس بالجامع الكبير، أين أخذ عنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ولازمه في الطلب، فقد درس بالجامع المذكور النحو والفقه والتوحيد، وكانت حلقة درسه تكتظ بالحاضرين في درس الموطأ لسماع تقارير وتلخصات طال زمان وداعها، ثم سمي إماماً خطيبا بمسجد قرية بوفاريك، إلى أن وافاه الأجل سنة

---

[1] الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1325-1327هـ/1905م، 2/1.

1897هـ/1925م، ومن آثاره (شموس الأحلام أو بدور الأفهام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام) مطبوع و(شرح على قدسية الأخضري) و(شرح على كتاب البيوع من مختصر خليل) و(كتاب الأخلاق) لم يتمه، وله شعر جيد منثور في الصحف والمجلات.[1]

4- محمد بن أبي شنب:

وهو محمد بن العربي بن محمد أبي شنب، ولد عام 1869م في مدينة المدية بناحية (تاكبو عين الذهب)، وكان والده من أهل اليسار وأعيان الزراعيين مشتغلا بأراضيه وأملاكه الخاصة. وكان جده لأبيه من رجال الجندية أيام الدولة العثمانية بالجزائر ثم تقاعد في أواخر حياته إلى أن توفي سنة 1840هـ ا وإن من المعروف عن تاريخ أجداده أنهم يعودون في المنشأ والجنس لأتراك بلدة بروسة من إيالة الأناضول وقد اشتهروا فيها بالشرف العظيم والمجد المؤثل.

نشأ محمد بن أبي شنب في حجر والديه موقرا مقدما على إخوانه وأقرانه معتنى به من قبل أهله وذويه، ولما بلغ سن التميز ألحقه والده مع شقيقه أحمد بالمكتب القرآني فأخذ القرآن عن شيخه أحمد بأرماق، ثم أشتغل بعد ذلك بالدرس وتعلم اللغة الفرنسية بالمكتب الابتدائي بالمدية إلى أن حصل على شهادته فارتقى منه إلى (الكوليج college المدرسة الثانوية.

ثم سافر الشيخ منفردا بنفسه من المدية إلى العاصمة سنة 1886م، فالتحق وسلك في مسلك طلبة المدرسة العادية l'école normale، ثم مدرسة المعلمين ببوزريعة من أرباض الجزائر. فلازم أساتذتها بالأخذ عنهم والانكباب على المطالعة وعدم التخلف عن الدروس، إلى أن أتقن كل ما يدرس في سائر

---

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر،ص 158-159. ومقال: د.عبد الله بوفولة من الأردن: عن مدونات مكتوب، انظر: موقع دليل المثقف العربي، http://mouth9af.ahlamontada.com.

أقسامها وطبقاتها فتخرج أستاذاً في اللغة الفرنسية، مجازا بإجازتها في المعلومات العامة، ولما عين معلما بالمكتب الرسمي في قرية سيدي علي قرب المدية، فدرس وعلّم فيه أربع سنين إلى سنة 1892م، فعينته الدولة معلماً بمكتب الشيخ إبراهيم فاتح الرسمي بالجزائر فانتقل إليه وسكن فيه، ثم التحق بالمدرسة العليا lycée (الليسي)، لأخذ اللغة الايطالية. ودرس علوم البلاغة والمنطق والتوحيد على يد الشيخ عبد الحليم بن سماية.

وعندما آنس من نفسه الكفاءة التامة، والقدرة العلمية الجيدة، تقدم للامتحان بالجامعة الجزائرية الفرنسية، فنال شهادة في اللغة العربية، diplôme d'arabe وذلك في سنة 1894م، وفي نفس السنة ناب عن الشيخ أبي القاسم بن سديرة في دروس العربية بالجامعة فمكث في هذه النيابة عاما كاملا. وفي سنة 1896م حصل على شهادة البكالوريا الأولى، ثم درس اللغة الاسبانية والألمانية واللاتنية، فبرز فيها، ثم درس الفارسية والعبرانية، حتى أتقنهما، كما أتقن اللغة الانكليزية.

ثم عين في سنة 1898م أستاذاً بالمدرسة الكتانية بقسنطينة، خلفا عن شيخها العلامة الأستاذ عبد القادر المجّاوي، عندما انتقل هذا الأخير إلى المدرسة الثعالبية بالجزائر، فاقرأ بها الشيخ ابن أبي شنب النحو والصرف وعلوم الأدب مع الفقه، وفي سنة1901م عين مدرسا بالمدرسة الثعالبية في مقام الشيخ عبد الرزاق الأشرف، فعاد الشيخ إلى العاصمة ودخل المدرسة فتلقاه الأشياخ والأساتذة والمديرون بحفلة تكريمية كبيرة.

وكان يدرس بها اللغة والنحو والمنطق والعروض والبيان وغيرها، ثم أضيفت له دروس أخرى يلقيها بالجامعة في علم العروض وترجمة الرسوم الشرعية والبحث في اللغة الدراجة (العامية)، فاجتهد الشيخ في أداء الواجب بالمدرستين معا على خير وجه.

وهناك بالثعالبية نهل الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من هذا المعين الخصب، والمورد العذب وتتلمذ على يد الشيخ ابن أبي شنب. ولازمه في مساجد العاصمة لا يتخلف عنه، يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: «وفي حوالي سنة1904م أسندت إليه دراسة صحيح البخاري رواية (الحضور) بجامع سفير بالعاصمة، وفي سنة 1908م ارتقى إلى رتبة أستاذ محاضر بالجامعة، فعمر هذه الرتبة وقام بها حق القيام». [1]

وظل الشيخ ابن أبي شنب يترقى في المناصب العلمية والأدبية ويباشر التدريس بالجامعة والثعالبية. وفي سنة 1920م، تقدم لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، فأحرزها بدرجة ممتاز، وكان مبرزا متفوقا في علوم اللغة والآداب.

وفي سنة 1924م عيّن أستاذا رسميا بكلية الآداب الكبرى في العاصمة، فتخلى يومئذ عن المدرسة الثعالبية بعدما قضى فيها 23 وعشرين كلها جهاد في سبيل العلم والمعرفة.

وكانت له بالجامعة دروس خاصة يلقيها على التلاميذ الرسميين في الكلية، وله فيها أيضا دروس أخرى عامة يلقيها على التلاميذ غير الرسميين، يتم الإعلان عنها في الصحف اليومية، فترى الناس على اختلاف طبقاتهم يتسابقون لمقاعد الدرس بالجامعة قبل الوقت المحدد للمحاضرات. يحضر الكثير من أساتذة الجامعة نفسها وغيرهم من أصحاب المدارس الحكومية والعلماء الأحرار. [2]

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي: محمد بن أبي شنب حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص18.

[2] عبد الرحمن الجيلالي: محمد بن أبي شنب حياته وآثاره،ص 19.

ولم يزل الأستاذ سائرا على منهاجه في التعليم والتدريس، إلى أن أصابه المرض وأعياه، فتوفي معلولا في 5 فيفري سنة 1929م، عن ستين سنة فرحمه الله رحمة واسعة.

فعن هؤلاء وأمثالهم من العلماء الكبار، تخرج الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، ونبغ في علوم ومعارف شتى، يضاف إلى ذلك جهوده الخاصة ومطالعاته الذاتية، التي رشحته لهذه المرتبة العالية، حتى صار شيخ المؤرخين، وإمام النحويين، ومفتي المفتين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جهوده في
الكتابة التاريخية

دراسة نص للأستاذ المرحوم عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي عنوانه: فتح المغرب الأوسط- الجزائر

أ. د. محمد بن عميرة
-جامعة الجزائر2- بوزريعة-

جاء في هذا النّص أنّ «مسلمة بن مخلد.... (انتصب) على ولاية إفريقية و(× تحتها) يومئذ مدينة مصر، وقد جمع له الخليفة، في ولايته هذه، ما بين مصر وإفريقية والمغرب والصلاة، فشقّ عليه القيام بجميع هذه الأعمال الهامّة كلّها، فبعث بمولاه أبي المهاجر دينار إلى المغرب وقال: "إنّ أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير ميل (نيل)، فنحن نحبّ أن نكافئه". فلم يلبث دينار أن أصبح أميرا على إفريقية سنة 55هـ، واستمرّ على ولايتها مدى سبع سنوات، تنتهي سنة 62هـ/ 674- 682م)».

خرج عُقبة من إفريقية مُهانا من طرف أبي المهاجر فذهب إلى الخليفة بالشّام....

اتّصل أبو المهاجر بإفريقية وأسّس بها مركزا هو غير قيروان عقبة ولكنّه بجانبه على مسافة ميلين "تيكروان" وسار في خطّته غربا إلى المغرب الأوسط أو بلاد الجزائر، حيث يُخيّم مَلِكُ البربر "كسيلة" بجبال أوراس، فاتّخذ مسلكه إلى هناك بوابة بسكرة المنخفضة التي تمثّل فجوة في الأطلس فتمكّن من الانتصار على أعمال قسنطينة سنة 59 هـ/ 678 م، وجعل مركز قيادته العليا مدينة ميلة، فابتنى بها دار الإمارة وجعلها ملاصقة للجامع، كما شهدها البكري بنفسه، ومكث الأمير بها سنتين، وقد حظيت الجزائر بذلك - طيلة هذه المدّة - بشرف إمارة إفريقية الإسلامية، وبذلك كان أبو المهاجر أوّل أمير مسلم وطئت خيله المغرب الأوسط، وأوّل من حمل الإسلام إلى هذه الدّيار الجزائرية؛ ومنها تقدّم في فتوحه إلى أحواز تلمسان فقضى بها زمنا طويلا احتفر فيه آبارا لجنده تسمت باسمه "عيون أبي المهاجر" وهناك ظفر بخصمه كسيلة فحمل عليه حملة شديدة،

وعرض عليه الإسلام فاعتصم به، وحينئذ خلّى عنه الأمير وأبقاه معه، ثمّ كان بعد ذلك حصار الرّوم بقرطاجة فنزلوا له عن شبه الجزيرة "شريك".

اتّفق المؤرخون لأعمال أبي المهاجر، في الفتوح، بأنّها كانت على جانب عظيم من الأهمية والخطورة، فإنّه أوّل من جعل غايته الأخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب والإسلام فيها، فهو لم يعاهد الرّوم على أن ينصرف على قرطاجنة، كما فعل غيره ، لقاء فدية من المال، وإنّما طلب إليهم أن يتنازلوا له عن جزء من البلاد، وإنّ سياسته كانت ترمي إلى تقريب البربر وكسبهم بالمودّة وحسن المعاملة"[1].

والمعروف عن صاحب هذا النّص، عبد الرحمن الجيلالي، أنّه كان معلّما في مدارس جمعية العلماء المسلمين، وإماما بجامع سيدي رمضان، بقصبة الجزائر العاصمة، كما كان له نشاط أسبوعي في إذاعة الجزائر يجيب فيه مستمعيها على بعض الانشغالات الفقهية، حسب المذهب المالكي.

وقد أقدم الشّيخ الجيلالي على تأليف كتابه الذي يتضمن النّص، قيد الدّراسة، تلبية لرغبة بعض أصدقائه الذين ألحّوا عليه، كما ذكر في تقديمه، في وضع كتاب موضّح لتاريخ الجزائر، جامع لحقائق تاريخية محرّرة، آت بذكر تفاصيل الوقائع، معلّلة بأسبابها ونتائجها، منذ أقدم العصور إلى بداية الستينيات من القرن العشرين مع اشتراطهم عليه أن يكون ذلك في أسلوب سهل وتعبير حرّ ونظام عصري وطريقة واضحة[2].

وحاول، أثناء قيامه بهذا العمل، كما يقول، أن يحكّم "فيه الرّوح العلمية والأمانة التّاريخية المحضة متجرّدا...من كلّ تحمّس أو انفعال... جامعا فيه ما لا يسع الإنسان جهله... مكتفيا في بعض المواضع بالإشارة الخاطفة إلى أبرز الوقائع وأهمّها وذلك لضيق المجال عن التّفصيل أو لقلّة فائدته..."[3].

---

(1)- تاريخ الجزائر العام، الطبعة الثانية، بيروت، 1965، الجزء 1، ص. 169- 170.

(2)- أنظر: تاريخ الجزائر العام، المصدر السابق، جـ. 1، ص. 7.

(3)- نفس المصدر، ص. 8.

وساعدت الأستاذ الجيلالي، في إنجاز مهمّته، زوجته، المرحومه أم غالب "ميمي خداوج" (ت. في 11 شوال 1383هـ/ 24 فبراير 1964م)، وقد أشاد كثيرا بمساعدتها له عن طريق مطالعتها وتلخيصها لما كتبه بعض الفرنسيين في تاريخ الجزائر.

المهمّ أنّ الشّيخ عبد الرّحمن الجيلالي تطرّق في نصّه إلى أربعة أفكار جزئية، عالج في أوّلها التي تنتهي بتاريخ 62 هـ (674- 682م)، (تعيين أبي المهاجر دينار في ولاية إفريقية).

وتطرّق في ثانيها من "خرج عقبة إلى... ما بعد وفاته": إلى ما يمكن اختصاره في (عقبة يشكو عزله أمام الخليفة).

وتناول في ثالثها من "اتّصل أبو المهاجر... إلى "شبه الجزيرة «شريك»".: (نشاط أبي المهاجر في إفريقية والمغرب).

وتحدّث في رابعها، من "اتّفق المؤرّخون... إلى ... آخر النّص" عن (تقييم المؤلّفين لأعمال أبي المهاجر).

وستقتصر هذه الدّراسة على الفكرتين الثّالثة والرّابعة، لارتباطهما المباشر بعنوان النّص "فتح المغرب الأوسط" أمّا الفكرتان: الأولى والثّانية فمن الأفضل تركهما جانبا، لأنّهما تتحدّثان عن ظروف تعيين أبي المهاجر في ولاية إفريقية وعن الشّكوى أو الاحتجاج الذي قدّمه عُقبه للخليفة معاوية بسبب تنحيته من منصبه.

وعند إمعان النّظر في النّقطة الأولى من الفكرة الثّالثة والتي جاء فيها أنّ أبا المهاجر "اتّصل... بإفريقية وأسّس بها مركزا هو غير قيروان عقبة ولكنّه بجانبه على مسافة ميلين "تيكروان". يتبيّن أنّه لخّص فيها الكلام الكثير الذي أوردته المصادر في شأن سوء معاملة أبي المهاجر لعقبة، أثناء عزله، ومن بينها أنّه كره أن يترل الموضع الذي اختطّ به مدينته فترل خارجها "ومضى خلفه بميلين، مما يلي طريق تونس (فيما بعد)، فاختطّ بها مدينة، وأراد أن يكون له ذكرها، ويفسد عمل عقبة. وأخذ في عمرانها، وأمر النّاس أن تُحرق

القيروان ويعمّروا مدينته"[1] التي أطلق عليها البربر تسمية قيروان أو تيكروان[2] أو تاكروان[3].

أمّا ما بعد ذلك من كلام، بدءا من القول بأنّ أبا المهاجر «سار في خطّته غربا إلى المغرب الأوسط أو بلاد الجزائر، إلى آخر الفقرة أو الفكرة... "شريك"» فإنّه يتطلّب نقاشا طويلا: ذلك أنّ المعلومات التي وردت في مصادر هذا الموضوع تختلف تماما مع ما ورد في نص الشّيخ الجيلالي: فالمالكي ذكر أنّ أبا المهاجر دينار، عندما عيّنه مسلمة بن مخلد، للمرّة الثانية، على ولاية إفريقية سنة 57 هـ/ 676- 677م، مكان عقبة بن نافع الفهري، "صالح بربر إفريقية، وفيهم كسيلة الأوروبي، وأحسن إليه، وصالح عجم إفريقية، وخرج بجيوشه نحو المغرب، ففتح كلّ ما مرّ عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر" نحو تلمسان..."[4] وقد اقتبس كلّ من الدبّاغ وابن ناجي هذه الرّواية من المالكي لكنّهما جعلاها في إطار ولاية وحيدة لأبي المهاجر على إفريقية، و لم يحدّدا لها تاريخا[5].

كما ذكر ابن خلدون أنّه زحف من مقرّ ولايته إلى رئيس قبيلة أوربة كسيلة بن لمزم «ومرادفه سكرديد بن رومي اللّذين أسلما "لأوّل الفتح، ثمّ ارتدّا عند ولايته...»، واجتمع إليهما البرانس، (فمضى)... حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم، وظفر بكسيلة

---

(1) - ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفانسال، ط. بيروت، جـ. 1، ص. 22.

(2) - Conquête de l'Afrique septentrionale par les musulmans et histoire. En-Noweiri de ce pays, sous les émirs arabes, dans Ibn- Khaldoun, histoire des berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, traduite de l'Arabe par le Baron de Slane, Paris 1968, T. 1, P. 330.

(3) - الدبّاغ وابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ط. الثانية، مكتبة الخانجي بمصر 1968، جـ. 1، ص. 47.

(4) - رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبّادهم ونُسّاكهم و...، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1951، جـ. 1، ص. 21.

(5) أنظر معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، جـ. 1، ص. 46.

واستبقاه"[1] ويؤكّد نفس المصدر، في مكان آخر، أنّ أبا المهاجر "لمّا نزل... تلمسان سنة خمس وخمسين (55هـ/ 674- 675م) كان كسيلة... مرتدّا في المغرب الأقصى،... فظفر به أبو المهاجر، وعرض عليه الإسلام فأسلم، واستنقذه وأحسن إليه وصحبه[2].

وتُبيّن المقارنة بين كلام المالكي وبين كلام ابن خلدون أنّ الأوّل يفيد أنّ أبا المهاجر صالح بربر إفريقية، وفيهم كسيلة، في إفريقية، أي الجزء الشّرقي من بلاد المغرب، قبل انطلاق حملته إلى تلمسان. أمّا الثاني فيقول: إنّ كسيلة الذي أسلم، مع مرادفه، سكرديد بن رومي، لأوّل الفتح، كان مرتدا، على رأس قبيلة أوربة البرنسية بالمغرب الأقصى، عند وصول أبي المهاجر إلى مقرّ ولايته، فسار إليه في حملة، وصل فيها إلى عيون تلمسان وهناك اشتبك معه فهزمه وعرض عليه الإسلام ولّما أسلم أحسن إليه وصحبه.

وتختلف رواية ابن تغري بردي تماما عن الرّوايتين السابقتين، إذ أفادت أنّ أبا المهاجر غزا سنة 59هـ/ 678- 679م "فنزل على قرطاجنة، وخرج إليه أهلها فالتقوا وكثر القتل بين الفريقين حتى حجز اللّيل بينهم، وانحاز المسلمون من ليلتهم فنزلوا جبلا قبلة بولس*، ثمّ عاودوهم وصالحوهم، على أن يخلوا لهم الجزيرة**، ثمّ افتتح أبو المهاجر... ميلة، وكانت إقامته بها، في هذا الغزو، نحوا من سنتين"[3].

ويتّفق ابن تغري بردي، في بعض نقاط روايته هذه، مع بعض ما جاء في الرّواية التي انفرد بها المالكي والتي تتحدّث عن تعيين مسلمة بن مخلد الأنصاري لأبي المهاجر

---

(1)- كتاب العبر، ط. الكتاب اللّبناني، 1959، جـ. 6، ص. 216.

(2)- نفس المصدر، ص. 296- 297.

* صحّحها Caudel بقبلة تونس (Les premières invasions arabes dans l'Afrique du Nord, 21-78 h/ 641-697 J.C, P. 111).

** المقصود بها جزيرة شريك، وهي الرأس الطيب (Ibid, P. 112).

(3)- النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. دار الكتاب المصرية، القاهرة 1383هـ/ 1962م، جـ. 1، ص. 152.

دينار، مرّتين على ولاية إفريقية: أولاهما سنة 55هـ/ 675م، وثانيهما سنة 57هـ/ 676- 677م[1].

إذ يذكر المالكي أنّ أبا المهاجر خرج، بعدما عُيّن أوّل مرّة، في مصر "بجيوش أهل الشّام ومصر... فوصل إلى "قرطاجنة"، وفيها مجتمع الرّوم، ويقال [إنّه] نزل بفحص تونس، بسبخة، وبنى بها، ومنها حارب [أهل] "قرطاجنة" [فسار إليهم و] حاربهم، ووجّه حسين بن عبد الله الصنهاجي* بجيش إلى "الجزيرة" فافتتحها، وكتبَ إلى أبي المهاجر بذلك، فرحل إليه واجتمع معه، وقسّم الفيء هناك بين جميع الجيش. ثمّ انصرف فترل "بدكرور"، مدينة البربر، بالقرب من موضع "القيروان"..."[2].

وعند المقارنة بين روايتي ابن تغري بردي والمالكي تبيّن أنّ الأولى لم تحدّد مكان انطلاق حملة أبي المهاجر على قرطاجة، وحدّدت تاريخ وقوعها بسنة 59 هـ في حين أنّ الثانية جعلت مكان انطلاقها مصر وتاريخها سنة 55هـ. وتفيد الأولى أنّ أبا المهاجر توجّه، بعد ذلك إلى ميلة ففتحها وبقي بها سنتين أمّا الثّانية فتفيد أنّه توجّه، بعد ذلك، إلى «دكرور» مدينة البربر.

والمهمّ أنّه، عند مقارنة مجمل ما ورد في نصوص المصادر العربية، حول هذا الموضوع، بما ورد في نصّ الشّيخ عبد الرّحمن الجيلالي، تظهر فروق كبيرة بينه وبينها: إذ ليس في النّصوص ما يبرّر قول الشّيخ أنّ كسيلة كان "يخيّم ... بجبال أوراس". فالمعروف أنّه كان رئيسا لقبيلة أوربة البرنسية، وهي من أهل الحضر المستقرّين في بنيان ثابت وليس في خيام متنقّلة. كما أنّ نصوص المصادر التي عالجت الموضوع لم تشر إلى استقرار أوربة كسيلة بجبال أوراس. وقد يكون الأستاذ عبد الرحمن اقتبس معلومته هذه من **Gautier E. F.** الذي يستنتج من رواية ابن خلدون للأحداث (كما يقول) "أنّ كسيلة وأوربته كانت لهم ارتباطات ليس في الأوراس وحده ولكن مع التّل الوهراني أيضا، في منطقة

---

(1)- أنظر: رياض النّفوس، جـ. 1، ص. 19 فما بعدها.

* صحّحه Fournel بحنش بن عبد الله الصنعاني (**Les Berbers, Paris, 1875, P. 161 sq**).

(2)- رياض النّفوس ، جـ. 1، ص. 19- 20.

تلمسان وحتى في ممرّ تازة. لأنّ... أبا المهاجر أسَر كسيلة في "عيون تلمسان"[1] ولا يُعرف ما هي الأحداث التي مكّنت Gautier من استنتاج أنّ أوْربة كانت لهم ارتباطات بالأوراس والتّل الوهراني، لأنّ ابن خلدون لم يذكر، كما تبيّن، ما يسمح بذلك. مع العلم أنّ كتاب Gautier غير مسجل ضمن قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في كتاب تاريخ الجزائر العام[2] وقد يكون اقتبس هذه المعلومة من ش.أ. جوليان الذي اقتسبها بدوره من Gautier.

ثمّ إنّ الانتصار الذي يشير إليه الشّيخ الجيلالي "على أعمال قسنطينة سنة 59هـ/ 678م" لا يوجد له صدًى سوى فيما ذكره ابن تغري بردي من غزو أبي المهاجر لقرطاجة في ذلك التّاريخ "ثمّ افتتح... ميلة، وكانت إقامته بها نحوا من سنتين" غير أنّ ابن تغري بردي لم يضف، مثل الجيلالي، أنّه "جعل مركز قيادته العليا مدينة ميلة... ومنها تقدّم في فتوحاته إلى أحواز تلمسان..." ولم يذكر مقصده بعد ميلة، بل ليس هناك، من أصحاب المصادر من يَذكر أنّ حملة أبي المهاجر على تلمسان انطلقت من ميلة.

علما أنّ دار الإمارة التي وصفها البكري في القرن الخامس الهجري/ 11م والتي كانت ملاصقة للمسجد ليست ولابُدّ، هي نفسها دار الإمارة التي شيّدها أبو المهاجر في القرن الأول الهجري/ 7م، ثمّ إنّ البكري كان جغرافيا مقيما في بلاد الأندلس، ولم يكن رحالة، وبالتالي فَهو كتب عنها دون أن يُشاهدها، حسبما ذكر الجيلالي.

كما أن قول الأستاذ الجيلالي: إنّ أبا المهاجر قضى بتلمسان "زمنا طويلا احتفر فيه آبارًا لجنده تسمّت باسمه "عيون أبي المهاجر"..." يمكن أن تسجّل فيه ملاحظتان تخصّ أولاهما طول زمن الإقامة المشار إليه هنا، وهو ما لم تشر إليه المصادر بالمرّة. أمّا الثانية فتخُصّ عملية حفر الآبار التي سُمّيت "عيون أبي المهاجر" فالمصادر لم تتطرّق إلى حفر الآبار بل تُجمع على أنّه وصل إلى "عيون" تلمسان التي يفترض أنّها كانت موجودة

---

(1)- Le passé de l'Afrique du Nord, payst- Paris 1937, P. 268.

(2)- أنظر: الجيلالي عبد الرّحمن: تاريخ الجزائر العام، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ج 1، ص. 15.

ومعروفة. والعيون تختلف عن الآبار في كونها تنبع من الأرض ولا يتطلّب إبرازُها حفرا أو يتطلّب حفرا قليلا.

أمّا حصار أبي المهاجر للرّوم بقرطاجة، الذي كان بعد حملته على تلمسان، حسب الشّيخ الجيلالي، فغير وارد تماما، في المصادر، هو الآخر، بل إنّ بعضها يتحدّث، كما تبيّن، عن حملة تلمسان، دون حملة قرطاجة، والبعض الآخر يتحدّث عن حملة قرطاجة، دون حملة تلمسان، والمالكي وحده هو الذي تحدّث عن حملتين: لأبي المهاجر أوّلهما ضدّ قرطاجة سنة 55هـ وثانيهما ضدّ تلمسان، بعد إعادة تعيينه على ولاية إفريقية سنة 57هـ أي أنّ حملة قرطاجة كانت سابقة لحملة تلمسان، عكس ما ورد في نصّ الجيلالي، هذا إن كانت الحملة حدثت على قرطاجة، أصلا، لأنّ غالبية المؤرّخين المُحدثين، شرقيين وغربيين، لا يشيرون إلاّ للحملة على تلمسان، والقليل منهم أمثال Fournel H. و Caudel M.، حاولوا الحديث عن حملتين، معتمدين في ذلك، على القيام بمُحاولة تركيبية، بل تلفيقية للمعلومات الواردة في النّصوص حول هذا الموضوع، وهم يختلفون مع بعضهم في ترتيبها[1]، وقد يكون الشّيخ الجيلالي اقتبس ما كتبه كودل Caudel الذي ذهب في نفس الاتّجاه مع أنّ اسمه غير مسجّل ضمن قائمة مصادر كتابه ومراجعه[2].

وحول ما ذكره الشّيخ من أنّ المؤرّخين لأعمال أبي المهاجر اتّفقوا "بأنّها كانت على جانب عظيم من الأهمّية والخطورة، فإنّه أوّل من جعل غايته الأخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم الإنسان فيها..." فإنّ الاتّفاق المشار إليه، في شأن أهمّية وخطورة أعمال أبي المهاجر، غير وارد في كتابات المؤرّخين التي تناولت موضوعه. ولم يكن أوّل من جعل غايته فتح البلاد، كما قال الشّيخ عبد الرّحمن الجيلالي، بل إنّ المؤرّخين، قدمائهم ومُحدثيهم، يتّفقون على القول بأنّ أوّل من جعل غايته فتح البلاد هو عقبة بن نافع

---

(1)- قارن: Caudel: Op. Cit., P. 111 sqq; Fournel, Op. Cit., P. 160 sqq.

(2)- أنظر: الجيلالي: المصدر السابق، جـ. 1، ص. 15.

الفهري، بدليل تأسيسه قاعدة القيروان لاستقرار العرب المسلمين وجيوشهم النّاشطة في المنطقة. أمّا الشّيء الذي يتّفقون فيه حول أبي المهاجر، هو ما جاء في آخر هذه الفكرة وآخر النّص، في آن واحد، وهي سياسة اللّين التي كان يُطبّقها بهدف "تقريب البربر وكسبهم بالمودّة وحسن المعاملة".

والذي يتبيّن من خلال دراسة هذا النّص أنّه مكتوب بلغة سليمة وأسلوب جيّد، وقد حاول فيه صاحبه الإلمام بمختلف جوانب نشاط أَحَدِ وُلاة إفريقية وفاتحي بلاد المغرب، غير أنّ الغموض الذي اكتنف الكثير منها، والتّضارب الملحوظ في المعلومات التّاريخية المتعلّقة بها، بين مختلف المصادر، خلقت له مشاكل استعان على حلّها فيما يبدو، بما كانت تُعدّها له زوجته "ميمي خداوج" من خُلاصات قراءاتها في المؤلّفات الفرنسية، دون أن يتمكّن من الإطّلاع على تفاصيل جزئيّاتها، والأسس التي اعتمد عليها أصحابها في بنائها، لعدم إتقانه لغتهم، ممّا أوقعه، من حيث لا يدري، في أخطاء كان بإمكانه تفاديها لو كان اعتماده على أعمالهم مباشرا، لأنّ ذلك كان سيُمكّنه من التّفطّن إلى الأساليب التي استخدموها في استنباط الكثير من الآراء غير المقبولة.

وعُذر شيخنا عبد الرحمن الجيلالي، رحمه الله وطيب ثراه، حتى ولو كانت له بعض الهفوات، أنّه هاو ومجتهد، وبالتّالي فهو مأجور على عمله، له أجر واحد على الأقل، ويكفيه فخرًا أنّه أقدم على إنجاز علمه الضّخم هذا تلبية لبعض أصدقائه، بالرّغم أنّه كان على دراية مُسبقة بصعوبة المهمة الموكلة إليه، لكنّه استطاع، بكلّ شجاعة وإقدام، أن يَســـــدّ في وقت مناسب، فجوة هامة، فيما كان يعانيه الصرح الثقافي والمعرفي الجزائري وهذا يكفيه فخرًا.

جهود عبد الرحمن الجيلالي التاريخية

أ.عايدة حباطي

جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة

استطاعت الجزائر أن تتجاوز وتتخطى مرارة الاستعمار الذي أثقل كاهلها، بمحاولاته المستميتة في تحطيم رموز هويتها الوطنية كالدين واللغة والتاريخ...بسلخ الجزائريين عن أصولهم وجذورهم،ودمجهم التام في فرنسا. لكن عبثا ما حاولت، فقد شاءت أقدار الله تعالى أن سخر لهذه الأمة ثلة من العلماء الأعلام والرجالات الأخيار الذين حافظوا على كيان هذه الأمة، وتراث هذا الشعب ما استطاعوا، وصدق الشاعر[1] إذ قال:

إن الجزائر لم تـــزل في نسلها — أما ولودا خصـــبة الأرحام

تلد النوابغ من خطيب مصْقعٍ — أو شاعـــر يفتـــنُ أو رسام

ومن هؤلاء العلامة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي (1908-2010) الفقيه واللغوي والمؤرخ الذي يعود نسبه إلى آل الشجرة الموسوية القادرية وفروعها الأشراف، الذين تصل سلالتهم إلى الشيخ عبد القادر الجيلالي سليل الحسن سبط علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسولﷺ.

وكأغلب الجزائريين، الذين رفضوا وتجنبوا التعليم الفرنسي تلقى الشيخ الجيلالي تعليمه الأولي في المساجد والزويا، التي كانت فضاء خصبا لتنشيط –ولو بشكل نسبي– الركود الذي فرضته فرنسا، ومن ذلك الجامع الكبير، وجامع سيدي رمضان، ومسجد عبد الرحمن الثعالبي، أين تتلمذ على نخبة من العلماء أمثال الشيخ المولود الزريبـــي الأزهري،

[1] محمد العيد آل خليفة: ديوان محمد العيد علي خليفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص243.

وعبد الحليم سماية[1]، وأبو القاسم الحفناوي[2] الذي كان ينهل عنهم علوم الشريعة والأدب والفلسفة، وقال الشيخ في ذلك: «..وفي سنة1341هـ- 1897م شغر منصب التدريس بالجامع الكبير في العاصمة فتقلده الشيخ -أبو القاسم الحفناوي- بالإضافة عمله الإداري، شرع من حينه في تدريسه علوم الشريعة والأدب، فقرأ الفقه والتوحيد والنحو

---

[1] بن سماية عبد الحليم بن علي بن عبد الرحمن بن حسين خوجة (1283-1351هـ/1866-1933م)، تركي الأصل جزائري المولد والتعلم، سافر أيضا إلى تونس طلبا للعلم، وعند عودته تولى التدريس بجوامع العاصمة، والمدرسة الثعالبية، عرف بمواقفه الشجاعة اتجاه مختلف المسائل وقضايا التي مست الأهالي الجزائريين، بصفة خاصة معارضته الجريئة لمسألة التجنيد الإجباري، وكان واسع العلم، ذو ثقافة مزدوجة. تخرج على يده عدد كبير من مثقفي الجزائر. من آثاره: "إهتزاز الأطواد والربى من مسألة تحليل الربا"، و"الكنز المدفون والسر المكنون"، وفصل من كتاب "الفلسفة والإسلام" وهو الفصل الذي قرأه في مؤتمر المستشرقين الرابع عشر بالجزائر (1905)، وعدد من المقالات في كوكب إفريقيا، والإقدام. انظر: عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،ج4، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط7، 1994، ص400-420. وأبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1997، ص93-96.

[2] أبو القاسم محمد الحفناوي (1266-1360هـ/1850-1942م) المعروف بابن عروس الديسي، نسبة لقرية الديس قرب مدينة بوسعادة، أخذ مبادئ العلوم عن والده، ثم انتقل إلى طلب العلم عبر مختلف الزوايا (طولقة، زاوية ابن أبي داود ببلاد زواوة، وزاوية الهامل)، وبعد أن استقر به المقام في العاصمة منذ1884 شارك في تحرير جريدة المبشر، كما شغل منصب التدريس بالجامع الكبير بالعاصمة (1897) وتولى أيضا الإفتاء على المذهب المالكي منذ 1925. ومن آثاره: "تعريف الخلف برجال السلف"، ورسائل استعان في ترجمتها على موظفي الولاية العامة مثل "الخبر المنتشر في حفظ صحة البشر" ورسالة "القول الصحيح في منافع التلقيح" و"رفع المحل في تربية النحل"، وله مقالات أدبية وسياسية واجتماعية وعلمية في جريدة المبشر، وكوكب إفريقيا، وأعمال أخرى غير مطبوعة ككتاب المستطاب في أقسام الخطاب، وغوص الفكر. انظر عبد الرحمن الجيلالي: المصدر السابق،ج4، ص425-435.

والصرف والحديث واللغة والمنطق والفلك والحساب، وأخذنا نحن ذلك عنه، وكان وئيدا في إلقاء الدرس لا يتسرع كثيرا متعمقا في البحث مع كثير من التأمل...».[1]

وقد كانت الدروس في هذه المساجد في أيام معلومة وأوقات مضبوطة، حرص العلماء فيها على إرشاد العامة والناس من جهة، وتكوين من يخلفهم في وظائفهم من جهة أخرى، فاختاروا لهم كتبا كمقررات[2] يأخذها الطالب عن شيوخه، فيحصل منها على الفائدة العلمية التامة. ولا شك أن العلامة الجلالي قد نهل عنهم فوائد جمة.

كما أقر الشيخ الجيلالي بالفوائد العلمية التي أخذها مثل غيره من طلبة العلم عن الدكتور محمد بن أبي شنب[3]بقوله: «كثيرا ما كنا نسأله عن المسألة العلمية فيجيبنا عنها بأعذب جواب وأخصره بدون إطناب ولا تصنع اللهم إذا لم يستحضرها قال مداعبا: "حتى نشوفها في الشكارة" ويعني بها مكتبته....ولطالما تكرم عليَّ بإرشادات هامة في سلوكي بدروسي التي كنت ألقيها بالجامع الأعظم نيابة عن شيخنا الأستاذ أبو القاسم الحفناوي».[4]

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي: المصدر نفسه، ج4، ص428.

[2] لمزيد من المعلومات عن الكتب المقررة. انظر: سعد الدين بن أبي شنب: «النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري» مجلة كلية الآداب، العدد: 1، السنة الأولى، جامعة الجزائر، 1964، ص52.

[3] محمد بن العربي بن محمد بن أبي شنب (1286-1347هـ/1869-1929م) بالمدية، أتقن العديد من اللغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية والألمانية واللاتينية والفارسية والعبرانية، تولى التدريس بالكتانية والثعالبية، كما عين عضوا في المجمع العلمي بدمشق، نال درجة الدكتوراه في الآداب عن جامعة الجزائر (1920)، نال الكثير من الأوسمة الشرفية، كما عين أستاذا بكلية الآداب، عرف بغزارة تآليفه فقد ألف ما يزيد عن خمسين كتابا في سائر العلوم؛ كالتربية، والتعليم، والتاريخ، والتراجم، والسير، وفي اللغة، والأدب. انظر عبد الرحمن الجيلالي: محمد بن أبي شنب، حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

[4] عبد الرحمن الجيلالي: المصدر نفسه، ص26.

ولا يمكننا أيضا إنكار الدور الذي لعبه رواد الحركة الإصلاحية في شخصيته وثقافته نتيجة الاحتكاك المباشر للشيخ بأمثال البشير الإبراهيمي، وتوفيق المدني، ومحمد العيد آل خليفة...في مختلف النوادي، خاصة نادي الترقي.

وقد مكنته المعارف التي اكتسبها من جهة، وطول السنون التي عاشها -يعتبر من معمري الجزائر، عاش ما يزيد عن قرن- من أن يكون من أبرز علماء الجزائر المعاصرين، ومن ألمع الوجوه الجزائرية المخضرمة؛ فقد أخذ عن علماء الجزائر في القرن الماضي، وتواصل بشكل مباشر مع رواد الحركة الإصلاحية وعاش معهم تطور هذه الحركة، كما عاصر أحداث كثيرة مرت بالجزائر والعالم؛ فقد شهد تطور الحركة الوطنية، والثورة ثم الاستقلال، وشهد أيضا الحربين العالميتين وما صاحبهما من تأثيرات مباشرة على الجزائر والعالم العربي الإسلامي.

لذلك كان رصيد الشيخ الجيلالي وأعماله متنوعة؛ فتولى التدريس في مدرسة الشبيبة الإسلامية أثناء إدارة محمد العيد آل خليفة لها خلال الثلاثينات، وإشرافه على برامج إذاعية وتلفزيونية[1] ثقفت الناس في أحوال دينهم ودنياهم. كما كان له دورا بارزا في إنشاء العديد من نظارات الشؤون الدينية، وأسهم إلى جانب آخرين في تأسيس مجلة الأصالة (1971-1981) وشارك بمحاضرات قيمة في أعمال مؤتمر الفكر الإسلامي.

وقد خلف الشيخ مؤلفات هادفة، انطلاقا من كتاباته في مجلة الشهاب على قلتها[2] إضافة لكتاب محمد بن أبي شنب حياته وآثاره. والذي ألفه في الثلاثينات (1932) تخليدا

---

[1] كالبرنامج الإذاعي: سؤال وجواب الذي كان يذاع بشكل قار سنة 1940، كما كان عضوا من أعضاء لجنة الفتوى.

[2] وهي مجموعة مقالات وتعليقات وفتاوى...ومن ذلك:

- سؤال عن رؤية الهلال. - الحكمة في تشريع الاستنشاق. - تعليق حول عد ألفاظ اللغة العربية. - إيضاح لفظتي قبعةو chapeaux. - الكشف عن لفظة هاته. - ترجمة الشيخ المكي بن عزوز. - هل القاف المعقدة عربية؟.

لذكرى الرجل. وتاريخ الجزائر العام في أربع أجزاء. والعملة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر. وكتاب ابن خلدون في الجزائر.

وبعد هذا الإيجاز عن حياة العلامة وأعماله، نود أن نتناول الشيخ كمؤرخ أرّخ للجزائر في جميع حقبها، وكل نواحيها السياسية، والاجتماعية والاقتصادية والحضارية. من خلال بعض من أعماله التاريخية المنشورة وذلك في النقاط المجملة الآتي تفصيلها:

- مكانة التاريخ عند الشيخ.
- المواضيع التاريخية التي تناولها.
- منهجه التاريخي.

1 - مكانة التاريخ عند الشيخ:

أولى العلامة عبد الرحمن الجيلالي للتاريخ أهمية خاصة، فخصه دون معارفه الدينية والفقهية واللغوية بوافر التأليف، إذا ما قارناه بسواه من الإنتاج الفكري للشيخ. فعرفه بقوله: «هو علم تعرف به أجيال الماضيين من الأمم الخالية من حيث معيشتهم، وسيرتهم ولغتهم وعاداتهم ونظمهم وسياستهم واعتقاداتهم وآدابهم».[1] واعتبره في موضع آخر المرآة الوحيدة التي نبصر به حياة ماضينا الغابر، وترينا كيف يجب أن تسلك مستقبلنا ويومنا الحاضر.[2] كما وصف دراسته بالممتعة فقال: «إن دراسة التاريخ تعتبر أعظم درس ممتع للتتبع أحوال الماضي في خدمة المستقبل، فهي تعطينا أمثلة واقعية تطبيقية عن سير جميع

-كتاب الجزائر تجاه النقد. - أخطار الخمر. -ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب (تعليق). - ملاحظة على مقال.

- افتتاح نادي الإتحاد بقسنطينة. - الدفاع la Defense. - الاحتفالات المولدية. - خطب العراق.

[1] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1، ص16.

[2] عبد الرحمن الجيلالي: «كتاب الجزائر تجاه النقد»، مجلة الشهاب، مج8، ج5، محرم1351/ماي 1932، ص261.

شخصيات الماضي، وحتى الأخطاء التي ارتكبها الأشرار من الأسلاف تعطينا هي كذلك دروسا نفيسة عميقة البحث...»[1].

وميّز العلامة بين المؤرخ والإخباري أو القاص الذي لا يتعدى دوره سرد الأحداث والوقائع وأخبار الملوك والوزراء والكبراء وتعداد الغرائب والعجائب، في حين المؤرخ يهتم بأحوال المجتمع الإنساني؛ من حيث طبيعته وتقلبات وعصبيات وتغلبات بعضهم على بعض وما ينجر عن ذلك من قيام الدول وانحطاطها وعمرانها، ويصل -المؤرخ- الحاضر بالماضي؛ لأنه كلما كانت صلة الحاضر بالماضي قوية ووثيقة كان مستقبل الوطن راسخا وثابتا.[2]

كما بين العلامة في موضع آخر الشروط الواجب توافرها في المؤرخ، فركز على شرط أساسي؛ وهو العلم والمعرفة ضمنه شروطا أخرى؛ بأن يكون المؤرخ عالما ضابطا وملما لكثير من العلوم المساعدة؛ كقواعد السياسة، ومدركا لاختلاف الأمم والبقاع والعصور وأثره الحاصل في السير والأخلاق والعوائد والمذاهب والنحل. وأن يكون ملما أيضا بالحاضر حتى يستطيع المقارنة وتبيان مواضع الخلاف والوفاق وتعليل ذلك.

ويرى أيضا أن على المؤرخ أن يكون عارف بقيام الدول وسقوطها وأخبار الملوك والحكام، مما يسهل عليه تفسير وتعليل الحوادث وفق ذلك.

لكن يبدو أن العلامة قد أغفل شروط أخرى، عددها الدارسون للتاريخ؛ كالأمانة والموضوعية، وعدم التعجل في إصدار الأحكام التاريخية وعدم تؤثره بعوامل الترغيب والترهيب، والإلمام باللغات الأجنبية، والتجرد من الإنتماءات الحزبية والمذهبية...[3] وغير تلك الشروط التي لا يسعنا المقام هنا لذكرها وتفصيلها.

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي: : تاريخ الجزائر العام، ج1، ص3-4.

[2] عبد الرحمن الجيلالي: المصدر نفسه، ج1: ص16-17.

[3] سعيد بدير الحلواني: تأريخ التاريخ، مدخل إلى علم التاريخ ومناهج البحث فيه، ط2، 1402هـ-1999م، ص24-28.

2- المواضيع التاريخية التي تناولها

لم يتقيد الشيخ الجيلالي في كتاباته التاريخية المختلفة بعصر أو حقبة معينة،[1] وإن كان موضوعها الجوهري الجزائر دون باقي الأقطار، وقد سلك العلامة في ذلك نهج علماء الإصلاح في إحياء ماضي الجزائر وحاضرها؛ كمبارك الميلي في كتابه: تاريخ الجزائر القديم والحديث في جزئين، وتوفيق المدني وكتابه: كتاب الجزائر، فألف الشيخ كتابه: تاريخ الجزائر العام، إضافة إلى عديد المقالات...

ويمكننا تقسيم المواضيع التي تطرق إليها العلامة على النحو الآتي:

- تاريخ الدول والشعوب:

والتي أولها العلامة أهمية بالغة في كتاباته التاريخية؛ فأثناء تناوله لتاريخ الدول تعرض لنشأتها، وحكامها، وحدودها الجغرافية، بالإضافة إلى تطرقه للمذاهب والعقائد السائدة في كل واحدة من تلك الدول، و لم يكتف العلامة بالجانب السياسي بل بين الثقافة والحضارة والعمران التي زامن ظهورها ظهور تلك الدول بالإضافة إلى الإمكانيات الاقتصادية التي تتمتع به، لينهي تاريخ كل واحدة منها بأسباب أفولها وانهيارها.

وركز الشيخ في تأليفه أيضا على ماضي سكان الجزائر وأصولهم الأولى؛ فنقب عن البربر[2] والأمازيغ والتوارق أو الطوارق التي رأى أنها تسمية حرفها المشارقة، وبرهن بدل ذلك على تسميتهم بالتوارك، كما عرف بجغرافية المنطقة ومناخها ولغتهم وعادتهم.[3] ونفس الشيء يمكن ملاحظته في تعريفه لسكان الأوراس أو الشاوية[1].

---

[1] ففي كتابه: تاريخ الجزائر العام، أرخ الجيلالي للجزائر في مختلف العصور؛ ما قبل التاريخ، والجزائر في الفتح الإسلامي، ثم العصر الحديث المعاصر.

[2] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1، ص35-44.

[3] عبد الرحمن الجيلالي: «هؤلاء التوارك الملثمين»، مجلة الأصالة، العدد: 60-61، 1978، ص18-35.

- تراجم الأعلام والسير:

لم يخف عبد الرحمن الجيلالي ميله في كتاباته لسير الرجال وأعلام الجزائر والترجمة لحياتهم، و لم يستثن في ذلك الأبطال عن الأشرار؛ فاهتم بكل من كان لهم أثر في مجريات الحياة السياسية والثقافية والحضارية سلبا أو إيجابا.

ويبدو جليا أن الشيخ تأثر في ذلك بأستاذه أبو القاسم الحفناوي في كتابه: "تعريف الخلف برجال السلف"[2].

وظهر اهتمام الجيلالي بذلك مبكرا، فألف في الثلاثينات القرن الماضي (1932) كتابه عن العلامة بن أبي شنب في ذكرى رحيله أسماه: "محمد بن أبي شنب حياته وآثاره" تعرض فيه لحياة الرجل، وأعماله، وتأبينه والمراثي التي قدمت في شخصه، وهدفه من ذلك كما جاء على لسانه بأنه خدمة للعلم والأدب، كما اعتبره حق الرجل واجب القيام به من التلميذ اتجاه أستاذه من جهة، ومن الأمة الجزائرية عامة.[3] كما كتب في نفس المرحلة تقريبا مقال مطولا عن العلامة الشيخ المكي بن عزوز، ظهر في ثلاث أعداد متتالية من مجلة الشهاب[4].

كما أبدى اهتمامه بفن التراجم وسير الأعلام في كتابه "تاريخ الجزائر العام" الذي ضمنه عنوانا تفصيليا: يشمل على إيجاز واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع

---

(1) عبد الرحمن الجيلالي: «شخصيات لامعة من الأوراس»، مجلة الأصالة، العدد: 72، 1979، ص105.

(2) ألفه صاحبه في جزأين؛ الجزء الأول سنة 1325هـ-1905م والجزء الثاني سنة1327هـ-1907م، جمع فيه تراجم علماء عاشوا في الجزائر أو أقاموا به مدة من الزمن، وعرف فيه بمؤسسي الزوايا، والشيوخ.

(3) عبد الرحمن الجيلالي: محمد بن أبي شنب حياته وآثاره، ص9.

(4) انظر مجلة الشهاب، مج6، ج11، ص660. ج12، ص724، مج7، ج1، ص12.

أطواره...مع تراجم العبقريين وأرباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ أقدم العصور إلى الآن. وترجم خلاله لثلة من رجالات الجزائر في مرحلة التي تطرق لها.

كما أبدع في هذا الفن خلال مقالاته التي نشرها خاصة مجلة الأصالة التي لعبت دورا رائدا في التعريف بتاريخ الجزائر، فكتب عن أبو يعقوب يوسف الورجلاني،[1] كما كتب أيضا عن عبد الواحد الونشريسي،[2] وتتبع سير الحركة العقلية في منطقة الأوراس من خلال شخصياته اللامعة.[3]

- النقد التاريخي:

طرق عبد الرحمن الجيلالي موضوعا آخر أكثر حساسية للتاريخ وهو النقد؛ فنقد بعض الدراسات التاريخية، وكشف فيها عن مواطن الصواب الخطأ التي أصاب فيها أو أخطأ الكاتب. لأن النقد حسب العلامة هو الأداة الوحيدة والنقطة المركزية التي يدور عليها محور العلم الصحيح، وهو الوسيلة الصادقة للكشف عن الحقيقة المجردة.[4]

وكنموذج عن ذلك نذكر عمله الذي نقد فيه كتاب الجزائر لتوفيق المدني؛ فبعد أن ذكر بمحاسن الكتاب وأهميته في التعريف بالجزائر على مستوانا كجزائريين وللأمم التي

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي: «أبو يعقوب الورجلاني، وكتاب الدليل والبرهان»، مجلة الأصالة، العدد: 41، 1977، ص162-172.

[2] عبد الرحمن الجيلالي: «الشهيد عبد الواحد الونشريسي، 955هـ-1549م»، مجلة الأصالة، العدد: 83-84، 1980، ص39-45.

[3] عبد الرحمن الجيلالي: «شخصيات لامعة من الأوراس»، مجلة الأصالة، العدد: 60-61، 1978، ص103-114.

[4] عبد الرحمن الجيلالي: «كتاب الجزائر تجاه النقد»، مجلة الشهاب، مج8، ج5، محرم1351-ماي 1932، ص265.

تجهلنا وتجهل وضعيتنا وجغرافيتنا وطبيعتنا واقتصادنا. بل إنه اعتبر الكتاب بمثابة العمل الوطني والقومي.[1]

ليعرج بعدها إلى المآخذ التي أخذها على الكتاب فعددها في ستة عشرة مادة. نقده فيه بشكل علمي، فأتى بالحجج والبراهين على ما يقول. وإن كانت في مجملها هفوات بسيطة لا تنقص من جهد المؤرخ -توفيق المدني- لكنها تدل من ناحية أخرى على عمق القراءة التي قام به الجيلالي، فهو لم يقرأه كأي عامي، بل كمؤرخ مطلع متخصص.

3- منهجه التاريخــي:

تميزت الأعمال التاريخية للعلامة عبد الرحمن الجيلالي بأسلوب علمي؛ راع فيه الشيخ قواعد ومناهج البحث الحديثة، فلم يكتف بسرد الأحداث التاريخية، لكنه حلل وركب وناقش ووصل إلى استنتاجات ونتائج عميقة.

كما رأينه من خلال بعض أعماله التي اطلعنا عليها، لإنجاز هذا المقال، أنه تناول كل الحقب التاريخية التي مرت بها الجزائر، إلا أنه ركز بشكل جلي على العصور الإسلامية خاصة في مؤلفه تاريخ الجزائر العام، فمر سريعا على عصور ما قبل الإسلام. كما يمكننا من جهة أخرى أن نعده شاهد على عصره من خلال تأريخه للأحداث التي عايشها وعاصرها، وترجمة لأشخاص عاشرهم وأحتك بهم بشكل مباشر أو غير مباشر.

وقد حدد عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ لكتاباته أهدافا رئيسية خص بها الجزائر وشبابها من طلبة العلم، وكل قارئ بسيط. ومن بين تلك المقاصد رغبته في تحرير التاريخ الجزائري، وفصله عن تاريخ الأمم الأخرى والشعوب، وتميزه عن التاريخ الاستعماري. وبعث الروح الوطنية والقومية في نفوس الشباب الجزائري، ومنحه ما يزيده ثقة بنفسه وماضيه، فيمجد بلاده وتاريخه مستقبلا، ويعمل على المحافظة على شخصيته وتميزه.

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي: المقال نفسه، ص260-262.

ومن الأهداف التي رسمها لنفسه أيضا التعريف بالتاريخ الجزائري، ورجالاتها عبر العالم وخاصة العربي الإسلامي، من خلال مشاركاته بمواضيع تاريخية في أعمال ملتقيات الفكر الإسلامي الذي كان يحضره العلماء من كل بقاع المعمورة.

ويستطيع القارئ لكتب العلامة أن يلمح دون عناء لغة راقية سلسة وبسيطة، ولا عجب في ذلك وهو اللغوي. فكان يدقق ويبسط كل المصطلحات والتسميات فيضبطها من الناحية اللغوية ضبطا تاما.

وقد اعتمد في ذلك على أمهات الكتب والمصادر، إلا أنه كان قليل الاعتماد على المصادر الأجنبية، خاصة في الفترة الحديثة والمعاصرة. وربما مرد ذلك لعدم إلمام الشيخ بلغات أجنبية.

لكن رغم ذلك تبقى أعمال الشيخ درر يقتدى بها، ومجهود لا يستهان به، وجب علينا تقديره والسير على خطاه. فما من طالب علم في مختلف مراحله التعليمية وكل محب للتاريخ إلا ويعود لأبحاثه ودراساته، فيجد فيها ما يشبع فضوله، ويروي عطشه العلمي.



صورة الاستعمار الفرنسي البشعة من خلال المادة التاريخية لـ [كتاب تاريخ الجزائر العام] للشيخ المؤرخ الفقيه عبد الرحمن الجيلالي [1908-2010م/ 1326-1431هـ]

د. أحمد عيساوي

جامعة باتنة

*** المقدمة :**

في الوقت الذي أيقنت فيه فرنسا الاستعمارية في ثلاثينيات القرن الماضي أن الجزائر قد أُخرجت نهائيا – ومن غير رجعة – من محيطها العربي والإفريقي ، وسُحبت من مجالها الحيوي الحضاري الإسلامي ، وصارت – بفعل السياسة الاستعمارية التدميرية – إحدى ركائز الحضارة المسيحية وعمدتها في القارة الإفريقية ، وأيقنت أنها لم تعد على صلة بجذورها وماضيها ومجالها الحيوي العربي الإسلامي ، وقف الضمير الجزائري العربي الإسلامي شامخا من بين ركام وحطام وقهر القرن الاستعماري الدامي 1830-1930م ليُعلن مشروعه النهضوي العربي الإسلامي للملإ المحلي والعربي والعالمي ، وليرفع شعاره الأصيل : [الإسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا] ، مؤكدا بعث هوية الجزائريين الحقيقية التي فشلت آلة التدمير والقمع الاستعماري مسخها وتشويهها وإزالتها من الوجود .

وقد اختلفت أسس ومنطلقات التعامل مع مشروع النهضة الحيوي ، وتنوعت أشكال التعبير عن مقومات الأصالة والهوية الوطنية ، وتعددت مظاهر التأييد للمشروع النهضوي الحضاري الجزائري بين الجهود الجمعوية : التربوية والإصلاحية والسياسية ، ممثلة في تيار الإصلاح والإصلاحيين التربويين الدينيين ، والسياسيين الاندماجيين والاستقلاليين .. وبين الجهود الفردية الأخرى .

فقد انبرى الرجال والأعلام المصلحون والسياسيون ينخرطون في ورشات هذا المشروع كل حسب طاقته وقدرته ومواهبه ورؤيته .. فمنهم من انخرط في مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين النهضوي ، لأنه رأى فيه أنه يمثل رؤيته وطموحه التغييري ، ولم يجد حرجا في الانخراط أيضا ضمن صفوف مشروع حزب الشعب الجزائري كونه يمثل أشواقه التحررية ورغبته في الحرية والانعتاق من قيود الاستعمار ، فيما رأى فصيل أن أوضاع الأمة الجزائرية المتضعضعة تتطلب خططا مرحلية تسير وفق السنن والنواميس ولا تخالف منطق التغيير السنني ، فرأى أن مشروع التغيير والنهضة ينطلق أساسا من المشروع الاندماجي كمرحلة أولى ، يمكن من خلاله للشعب الجزائري أن يُحقق شيئا من مطالبه وتطلعاته على مبدإ [خذ وطالب] ، وكما هي تجربة الكثير من الشعوب التي حصلت على استقلالها من خلال عملية النضال السلمي المنظم .

فيما اندفع البعض الآخر متنقلا بين هذه المشاريع النهضوية حسب متطلبات المرحلة واحتياجاتها ، وقف فصيل آخر في صف المشروع الحضاري الجزائري الأصيل والعميق ، ورنا ببصيرته المستقبلية أبجديات التأثير والفاعلية فحفر في تاريخ الجزائر السحيق ، ونقب عن أصالتها وجذورها ، وخاطب مشروع النهضة بالحقائق التاريخية ، التي ستكون مصدر استلهام واعتزاز للمنخرطين في المشروع النهضوي الحضاري الجزائري على اختلاف مشاربهم ، وكان من هؤلاء المصلحين الكتاب المؤرخون :

1 – أحمد توفيق المدني ت 1983م

2 – مبارك محمد الميلي ت 1945م

3 – محمد علي دبوز ت 1973م

4 – عبد الرحمن الجيلالي ت 2010م

فصاغوا مشروعهم النهضوي عبر الكتابة التاريخية ، على اعتبار أن أي نهضة لا تستلهم جذورها من حقائق التاريخ الأصيل يكون مصيرها الفشل ، فانبروا للكتابة والتأليف في تاريخ الجزائر كشكل من أشكال النهضة والتأصيل والتأسيس للمشروع

النهضوي الحضاري الجزائري ، في وقت كان الاعتزاز بالشخصية الوطنية الجزائرية جرم يعاقب عليه الاستعمار بقوانين سنها ووضعها سيفا مسلطا على رقاب الجزائريين ، فضلا عن المناداة والتصريح بالحفاظ على مقومات الهوية الوطنية الذي يُعدّ شكلا من أشكال الخروج عن القوانين الاستعمارية الرادعة .

فكان أول من ألف في هذا المجال الشيخ الداعية [مبارك محمد الميلي ت 1945م] كتابه القيم [تاريخ الجزائر بين القديم والحديث] سنة 1933م وطبع بالمطبعة الإسلامية الجزائرية التابعة لجمعية العلماء ، وتلاه الأستاذ [أحمد توفيق المدني ت 1983م] بكتابيه القيمين [هذه هي الجزائر] و [كتاب الجزائر] ، ثم اقتفى أثرهما الشيخ المؤرخ العلامة [عبد الرحمن الجيلالي بكتابه القيم [تاريخ الجزائر العام] .،

ثم تبعهم الشيخ المؤرخ العلامة محمد علي دبوز بكتابيه التاريخين القيمين [أعلام الإصلاح في الجزائر] و [تاريخ الجزائر وثورتها التحريرية المباركة] ، اللذين طُبعا مع فجر الاستقلال سنتي 1965 و 1966م وطبعا بمطبعة الحلبوني بدمشق .

ومن هنا كانت الكتابة في تاريخ الجزائر عملا نهضويا حضاريا هدف به أصحابه التأسيس لوعي جزائري عميق ، لأن الوعي الحقيقي باللحظة التاريخية الآنية لا يكون إلاّ بوعي الماضي التليد ، الذي على ضوئه يتم تشكيل الحاضر ، والتغلب على تحدياته ، ومن ثم تجاوز عثراته ، ترسّما لمستقبل متميز ، وهو عين ما فعله الشيخ الأديب المؤرخ الفقيه العلامة عبد الرحمن بن محمد بن بوعلام الجيلالي في كتابه القيم [تاريخ الجزائر العام] ، الذي ولد بالجزائر العاصمة سنة 1326هـ 1908م ، من أسرة محبة للعلم تنتسب إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، حيث كان أبوه تاجرا محبا للعلم ومولعا بالقرآن وخدمته ، وأمه التي كانت تنتسب إلى عائلة الشيخ الفقيه إبراهيم بن جيار إمام الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة ، وجدها لأمها هو الفقيه المفتي مصطفى القادري مفتي الجزائر العاصمة ، التي تابع تعليمه في جوامعها ومساجدها العامرة مثل : [الجامع الكبير ، جامع سيدي رمضان ، مسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي ..] ، ونشأ نشأة عصامية ، وكانت

له نشاطات ومشاركات علمية وثقافية وإذاعية في الإذاعة الجزائرية المحلية منذ سنة 1940م ، فضلا عما شغله بعيد الاستقلال من عضويات للمجلس الإسلامي الأعلى ، ومجلس الفتوى ، وعضو لجنة الأهلة ، ومفتي الإذاعة ..إلى أن سلم روحه الطاهرة لبارئها ليلة الجمعة 06/ذو الحجة /1431هـ 12/نوفمبر /2010م ، وشيعت جنازته في موكب مهيب انطلق من دار الإمام بالمحمدية .

وبدا فيه متبعا خطا تاريخيا تسجيليا إحيائيا لماضي وحاضر الأمة الجزائرية ، وعندما وصل إلى الفترة الاستعمارية الفرنسية استغل هاته المرحلة ووصف واقع الجزائر والجزائريين المزري خلال الحقبة الاستعمارية البغيضة .

متعقبا بالوصف الدقيق والمؤثر حالة الجزائر والجزائريين قبيل الاستعمار وعشية الغزو الاستعماري وما بلغوه من تقدم ورقي في مختلف ميادين الحياة . ومسلطا الضوء على ليل الاستعمار المظلم وقمعه وظلمه وجبروته وقهره .. مقدما صورة واضحة ومشينة عن الاستعمار الفرنسي ، وكأنما يريد أن يعبر عن موقفه من الاستعمار وسياسته القمعية ، ويُسجل لمشروع النهضة محطات لامعة تنير قسمات المشروع الإصلاحي النهضوي الوطني التحرري .

وقد تعقبنا كتابه القيم في طبعته السابعة الصادرة عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر سنة 1415هـ 1994م ، وهي نسخة مصورة ومنقحة ومزيدة عن الطبعة الرابعة الصادرة عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر الصادرة سنة 1402هـ 1982م ، وفيها تصدير وتقديم الطبعة الرابعة الصادرة سنة 1971م .

وللتذكير فقد صدرت الطبعة الأولى بالجزائر سنة 1954-1955م ، وصدرت الطبعة الثانية في بيروت سنة 1965م . وقد صدّر كتابه في الجزء الأول بثبت المصادر والمراجع العربية والفرنسية ، غير التي وردت في الهوامش .

وكانت الصورة الاستعمارية التي رسمه ووصفها وفق التسلسل التاريخي التالي :

صورة الاستعمار الفرنسي في المادة التاريخية لكتاب المؤرخ العلامة الشيخ عبد الرحمان الجيلالي [تاريخ الجزائر العام]

* الجزائر قبيل الاستعمار الفرنسي :

بدت الجزائر من خلال وصف الرحالين والزائرين لها دولة قوية مرهوبة الجانب من قبل سائر القوى الصليبية المحيطة بها ، ولاسيما في عهد حكم رياس البحر (1) ، كما بدت – من خلال وصفهم لها – مدينة عامرة بالعلماء والفقهاء والخطباء والأدباء والشعراء ، كثيرة العمران والبنيان وافرة الخيرات عامرة الأسواق، تكثر فيها المساجد والجوامع والرباطات والأضرحة والزوايا ودور العلم المختلفة . (2)

كما بدا فيها توقير أهل العلم على اختلاف درجاتهم العلمية من طلاب ومريدين ، لأن مستوى علمائها لا يقل قدرا ومكانة ومستوى عما هو عليه في المشرق الإسلامي ، ففيها من العلماء من تؤهله درجته العلمية لإجازة طلبته المتخرجين للتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد، وغيرها من العلوم.. (3)

وقد حصلت الجزائر على مستواها الحضاري العالي آنذاك من خلال تمكنها الدائم من كل أسباب التقدم من جهة ، ومن تفاني أهلها ورجالها وحكامها في بذل المستحيل لتبقى (المحروسة) دار الجهاد ، وذلك بما كانت تملكه من أسطول بحري عسكري ومدني قوي وفعال ، اضطلع بدوره الجهادي المنوط به بإخلاص ، كما اضطلع بدوره التجاري والاجتماعي والديني الحضاري . (4)

ففي الجانب العسكري الجهادي نجده قد اضطلع بدوره للدفاع عن الوجود الحضاري الإسلامي المطارد والملاحق في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وذلك برده لكل الهجمات الصليبية المعادية التي استهدفت أساسا الساحل الشمالي لأفريقيا المسلمة ، وذلك بعد القضاء على آخر معقل للعرب وللمسلمين في غرناطة . (5)

كما اضطلع بدوره الاقتصادي والتجاري ، المتمثل في تنشيط حركة التجارة والنقل بين الشمال والجنوب ، منافسا بذلك الأساطيل التجارية الصليبية المشهورة، بحيث قدرت عائداته المالية من القرصنة والتجارة ، والنقل البحري بمئات الملايين من الفرنكات الذهبية القديمة ، كما قدرت عدد سفنه الحربية العسكرية ، والمدنية – المختلفة الأحجام – بحوالي ستمائة سفينة على وجه التقريب . (6)

ومع ذلك المستوى المتقدم من الهيمنة البحرية العسكرية والمدنية ، إلا أن كتاب [تاريخ الجزائر العام] احتوى على أقوال وتدوينات وتسجيلات كثيرة منها مذكرات أشراف مدينة الجزائر نعتت الوضع الأخلاقي والديني والاجتماعي المتردي لدى الكثير من طبقات المجتمع الجزائري ، واصفة حالة الانهيار الأخلاقي والسلوكي والقيمي التي كان عليها العامة والخاصة من الجزائريين .

كما صورت لنا حالة الفتن والاضطرابات التي كانت تعج بها قصور الحكام، والنزاعات القائمة بين الطبقة الحاكمة في عاصمة الجزائر وفي أطرافها وأقاليمها النائية من جهة، وحالة الاضطراب التي كانت عليها القبائل الجزائرية بين بعضها من جهة ثانية ، وصراع القبائل مع السلطة التركية المركزية في الجزائر من جهة أخرى . (7)

والمحلل لما ورد في المادة العلمية لكتاب [تاريخ الجزائر العام] عن وضع الجزائر آنذاك يصل إلى تشخيص وضع الجزائر والجزائريين كالتالي :

1 – المستوى العمراني والاجتماعي المتقدم والمترف الذي كانت عليه الجزائر .

2 – المستوى الاقتصادي المرفه والرغد الذي وصلته الجزائر آنذاك العهد .

3 – المستوى العسكري القـــوي – البحري خاصة – الذي كانت عليه الجزائر ، إلى الحد الذي أوصلها إلى مستوى الغرور والاستهتار بالقوى الصليبية نتيجة الانتصارات البحرية والبرية المتوالية . (8)

4 – تردي المستوى الأخلاقي والديني والسلوكي لدى الكثير من أهلها .

5 – ســوء الأوضاع السياسية واضطرابها ولاسيما بين الطبقة الحاكمة ، والصراعات الشديدة التي كانت تعج بها قصور الحكام (دايات . بايات) . (9)

6 – اضطراب الأوضاع السياسية الأمنية بين القبائل الجزائرية وبعضها من جهة ومع السلطات التركية المركزية بالعاصمة والمحلية بالأقاليم من جهة ثانية . (10)

7 – تردي الوضع السياسي والعسكري والأمني عامة ، الذي بدا ذلك واضحا في حالة التفكك والانحلال أثناء مواجهة الحملة الفرنسية . (11)

8 – اشتداد حدة التكالب الصليبي على الجزائر وغفلة الطبقة الحاكمة الجزائرية في تقدير حجم ومستوى ذلك التكالب المغري باحتلال الجزائر .

وعليه فإن الجزائر كانت مهيأة – بشكل أو بآخر – للسقوط الحتمي الآجل أو العاجل في قبضة إحدى القوى الصليبية المتكالبة عليها .

ثم يتناول المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه وقائع الصدام المسلح بين جيش الغزو الاستعماري وقوات الداي حسين ، متناولا أدق التفاصيل وواصفا الوقائع كما هي بالاستناد إلى المصادر التاريخية المتنوعة العربية والتركية والفرنسية .

* الاحتلال والمعاهدة :

اتجهت الحملة الفرنسية أواخر شهر ماي سنة 1830م لاستعمار الجزائر مدفوعة بجملة من الدوافع والأسباب التي يمكن إجمالها فيما يلي :

1 – وضع حد لنظام القرصنة الذي تزعمته إيالة الجزائر العثمانية ضد القوى الصليبية الذي نصت عليه اتفاقية الدول الاستعمارية الكبرى (بفينا) سنة 1814م . (12)

2 – تحجيم النفوذ العسكري الإسلامي المتنامي في البحر الأبيض المتوسط ، الذي مازال يسعى لمنافسة ومقاومة النفوذ الأوربي الاستعماري . (13)

3 – الاطراد المتزايد لعدد السكان في القارة الأوربية نتيجة تقدم الوسائل الصحية وتراجع نسبة الوفيات وضيق مساحة القارة الأوربية ، وصعوبة توفير الغذاء ، والتطلع إلى مستوى المعيشة الراقي الذي يصبو إليه الفرد الأوربي ، وما ترتب على ذلك نزوح سكان هذه

القارة الوثابة إلى العالم الخارجي في تنظيم استعماري منظم ومشجع من قبل الحكومات الأوربية . (14)

4 - النتائج التراكمية الضخمة التي تمخضت عنها الثورة الصناعية الأوربية من استخدام كثيف للآلات ومن زيادة مفرطة في الانتاج ، ومن حاجة ماسة إلى أسواق لتصريف المنتجات . (15)

5 - الحصول على سلع الشرق الإسلامي الوفيرة بأبخس الأثمان ، نظرا لحاجة الصناعة الأوربية لها ، ثم إعادة تصنيعها في المصانع الأوربية وتصريفها كمواد مصنعة بأسعار خيالية . (16)

6 - الحصول على مناطق جغرافية جديدة في الشرق الإسلامي خاصة والعالم عامة بغية الاستفادة منها كقواعد بحرية عسكرية ومدنية لتحقيق مزيد الهيمنة الأوربية على العالم . (17)

7 - نشر المسيحية في أفريقيا من جديد بعد أن قلص المسلمون من نفوذها في القرون الوسطى .

ولتدعيم الحملة العسكرية الفرنسية دينيا فقد رافقتها بعثة مسيحية مكونة من ستة عشر قسيسا من كبار القساوسة ، من بينهم قسيس مسيحي سوري يدعى (جبرائيل زكار) ، الذي شغل - بالإضافة إلى مهمته الدينية - منصب المترجم إلى العربية في الإدارة العامة الفرنسية . (18)

وفي هذا الصدد يقول (بوجولا -POUJOULAL) في كتابه (السفر إلى الجزائر) المطبوع عام 1845م : ((.. إن الله من أسمائه الحسنى إله الجيوش وإله المعارك .. والمجتمعات لا تقوم إلا على الدماء والدموع، إن الهدف من حربنا في افريقيا هو أقدس وأسمى من حروبنا في أوربا لأن موضوع الصراع هنا هوالقضية الدينية المقدسة ، قضية الحضارة ، قضية الأفكارالمسيحية الخالدة ، التي كتب الله لها أن تؤسس امبراطورية عالمية ، وسخر لها العبقرية الفرنسية لتكون سندا قويا لها ..)) . (19)

ومهما تكن صيغة وبنية البيان المكتوب باللغة العربية الذي وزعته قيادة الحملة الفرنسية على سكان مدينة الجزائر الذي تضمن توجيهات دعائية وتشهيرية كاذبة (20) ، فإن الحملة العسكرية الفرنسية التي نزلت قبالة السواحل الجزائرية يوم 13/جوان/1830م إصطدمت بمقاومة شعبية عنيفة من قبل السكان الجزائريين من جهة ، ومن قبل القوات الرسمية والشعبية معا ، التي جمعها الداي حسين لمواجهة وصد الحملة الفرنسية على عاصمته . (21)

وبعد معارك دامية يجد الداي حسين نفسه ورجال دولته من الأتراك والكراغلة مخيرين بين البقاء في العاصمة والاستماتة في الدفاع عنها أوالاستسلام ، وانقاذ ما يمكن انقاذه من الأموال والسكان والمتع الرخيصة ، التي حملوها معهم بعد توقيع وثيقة استسلام – معاهدة – الجزائر ، وإن حاول الداي حسين التظاهر بالحمية والاستبسال في الدفاع عن حرمة عاصمته . (22)

وبتوقيع كل من الداي حسين والكونت (دوبــرمون – DE BOUREMONT) معاهدة استسلام الجزائر يوم 13/محرم/1245هـ الموافق 1830/07/05م تكون الجزائر شعبا وأرضا قــد دخلت فعليا تحت سلطة وإدارة الاحتلال الفرنسي المباشرة ، حسبما نصت عليه المعاهدة – ضمنا – في بعض بنودها . (23)

وبالتالي فقد شكلت المعاهدة مرجعية احتجاج ، ومطالبة دائمة بالنسبة لكل محاولات الجزائريين الفردية والجمعية في الحرية من قيد الاحتلال الفرنسي (*) ، ولاسيما ماله علاقة بحرية وحقوق الأهالي الدينية والاجتماعية .

وقد عزمت فرنسا منذ الشهور الأولى للاحتلال على الاحتفاظ النهائي الأبدي بأرض الجزائر ، ضاربة بعرض الحائط كل المحاولات الرامية لإعادة إخراجها منها، وقد صرح بذلك الجنرال (جيرارد – GERARD) الذي تسلم أوامر الملك منذ يوم 12/نوفمبر/1830م ، وأعلم به جنرال جيش أفريقيا (كلوزيل – CLAUZEL)

القاضي بعزم الحكومة الفرنسية على الاحتفاظ بالجزائر وذلك لفتح أراض أخرى جديدة وواسعة في أفريقيا للفائض من سكانها المتزايدين بكثافة ، ولتسويق إنتاج مصانعنا . (24)

وهكذا تنتقص من أرض الإسلام درتها في الغرب الإسلامي ، التي كانت تنعت بالمحروسة أو دار الجهاد (25) ، ويكتب على الجزائريين العيش في ظل الاستعمار والعبودية والاستذلال بعد أن كانوا أحرارا مستقلين .

ثم يتناول المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه وقائع الصدام المسلح بين جيش الغزو الاستعماري وقوات الداي حسين ، متناولا أدق التفاصيل وواصفا وقائع التخريب والتدمير الاستعماري الفرنسي ، وما كان يصنعه جنود وقادة الحملة المتعطشين للدماء ، بالاستناد إلى المصادر التاريخية المتنوعة العربية والتركية والفرنسية .

* حملات التخريب والإبادة :

لا يجد قادة الحملة الفرنسية العسكريين حرجا من الاعتراف بجرائمهم التي اقترفوها بوحشية في حق الجزائر والجزائريين (26) ، بل يجدون نشوة ولذة وزهوا كبيرا عندما يصرحون عاليا في خطبهم الرسمية ، أو في مذكراتهم الشخصية، وتقاريرهم المختلفة ذكر عدد القتلى من الأهالي الجزائريين الذين قتلوا بأيدي جنود فرنسا الشجعان، ومن ذكر عدد المسجونين والمعتقلين والمنفيين والمشردين في الجبال والمناطق النائية ، كما لا يجدون حرجا في ذكر حجم التخريب والتدمير والإتلاف الذي طال جميع المدن والعمران والزراعة والصناعة والمواشي والبيئة الطبيعية في الجزائر ... التي كانت تتمتع بطبيعة جميلة لم تطلها يد الإفساد والإتلاف الصناعي ، وغيره . (27)

ولنستعرض طائفة من اعترافاتهم الوقحة تلك ، لنتبين حجم التدمير والتخريب الاستعماري الذي طال الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي ، والذي شكل ستورا من الرعب على الأجيال الجزائرية اللاحقة ، لتنشأ في ظل سياسة الإرهاب والقمع الفرنسية، ولكي لا تفكر الأجيال الجزائرية – مستقبلا – في الثورة والانعتاق من هيمنة السلطة الاستعمارية الفرنسية .

فقد اعترف الجنرال الفرنسي (سانت أرنو- SAINT . ARNAUD) في مذكراته بكثير من الوقاحة والدموية ، ما كان يقوم به خلال حملاته التدميرية في الجزائر ، إذ كتب لفرنسا مبشرا إياها بما يقوم به من تخريب وتدمير : ((.. نحن الآن في جهات مليانة وشرشال ، وإننا قلما نطلق نار بنادقنا ، بل إننا نحرق كل الخيام ، وكل القرى والأكواخ ، وندمر كل المغاور ، فيفر العدو أمامنا آخذا معه قطعانه .. إن بلاد بني مناصر جميلة جدا ، وهي أغنى بلاد رأيتها في أفريقيا الشمالية ، لقد أحرقناها كلها ودمرناها تدميرا .. هي الحرب ، آه من الحرب ومن ويلاتها، فكم من النساء والأطفال الذين فروا أمامنا والتجأوا إلى ثلوج جبال الأطلس فهلكوا فيها بردا وجوعا .. لقد تركت خلفي حريقا شاملا لجميع القرى التي يبلغ عددها نحو المائتين ، فجميع البساتين وجميع أشجار الزيتون تركتها خرابا .. وإن كل السكان والقبائل الذين لا يقبلون شروطنا يجب أن يسحقوا ، وأن نستولي على كل أموالهم وأملاكهم ، وأن يبادوا دون تمييز بين ذكر أو انثى، بل يجب أن لا ينبت النبات حيث وضع الجيش الفرنسي قدمه، إن النساء والأطفال المختفين وراء الأشجار كانوا يستسلمون لنا ونحن نقتل ونذبح وأصوات المحتضرين والمولولين تختلط بأصوات الحيوانات التي تخار بجانبهم ..)) . (28)

وهذا الجنرال (بروسار- BRAUSSARD) يصرح قائلا : ((.. لقد حطمنا قرابة تسعة آلاف منزل كانت من أبهى المنازل بضواحي العاصمة ..)) . (29)

وهذا الكولونيل (دومونتانياك) في كتابه السابق الذكر (رسائل جندي) يصرح معترفا ومزهوا بوحشيته وإجرامه قائلا : ((.. لا يمكن تصور الرعب الذي يستولي على العرب حين يرون قطع رأس بيد مسيحية ، فأنا أدركت ذلك منذ زمن بعيد ، وأقسم لك أنه لا يفلت أحد من أظفاري حتى يناله من قطع رأسه ما ينال ، وقد أنذرت بنفسي جميع الجنود الذي أتشرف بقيادتهم أنهم لو أتوني بعربي حي لانهلت عليهم ضربا بعرض نصل سيفي .. وأما قطع الرؤوس فهو يكون على مرأى ومسمع جميع الناس ..)) . (30)

وتزداد نشوة الوحشية في هذا القائد المسيحي المتعطش لدماء المسلمين فيقول : ((.. هكذا تكون معاملة العرب في الحرب ، قتل جميع الذكور الذين تجاوزا سن الخامسة عشر ، وسبي جميع النســاء ، وخطف جميع الأطفال ، وشحن الجميع في السفن ثم اقصاؤهم إلى جزر مركيز ، أو إلى الثلث الخالي من الأرض . وخلاصة القول يجب إبادة كل من لا يتمرغ تحت أرجلنا كالكلاب ..)) . (31)

ويصرح بموقفه من المرأة الجزائرية المسلمة، وما يفعل بها على يد جنوده : ((.. أنتم تسألوني عن هؤلاء النساء اللاتي نفتكهن ونلقي عليهن القبض من بين أهلهن ، وماذا نصنع بهن ؟.. فمنهن من يتركن رهائن عندنا ، ومنهن من نستبدلهن بالخيل ، ومنهن من ينادى عليهن بالبيع في الأسواق علانية فيبعن بالمزايدة مثل حيوانات الركوب والحمل..)).(32)

وهذا الجنرال (دو روفيقو) القائد العام للجيوش الفرنسية الحاكم العام للجزائر سنة 1832م يعلن عن ارتياحه ووسروره من شجاعة ووحشية جنده لما بلغه خبر إبادة قبيلة الأوفياء عن آخرها . (33)

وقد وصف أحد الجنود في مذكراته تلكم الواقعة قائلا : ((.. هجمت سرية في الصباح الباكر على قبيلة (الأوفياء) ، وفاجأهم وهم نائمون في خيامهم ، وذبحتهم دون أن يفكر أحد في الذود عن نفسه، بل كل ما كان حيا كان مصيره الموت دونما تمييز .. وبعد العودة من تلك الحملة الفظيعة كان فرساننا حاملين رؤوسا في أعالي رماحهم .. بينما أخذت كل الأنعام وبيعت إلى قنصل الدانمارك ، أمـــا بقية الغنائم وهي جثث قتلى الملحمة المضرجة بالدماء فإنها عرضت في ســوق باب عزون .. إنه لمنظر هائل في أقصى درجات الشــناعة ؟ أســاور نســاء لازالت عالقة بمعاصم مقطوعة ، وأقــراط آذان متدلية من قطع لحم .. وقسم محصول ذلك البيع بين الذباحين ، وأعلن الجنرال دو روفيقو ارتياحه ومسرته لانتصار المسيحية على الإسلام ..)) . (34)

وهذا الجنرال (بيجو- BUGEAUD) يصرح قائلا : ((.. ولقد أرسلنا إلى ساحات التعذيب والتنكيل والإعدام لمجرد الشك رجال لم تثبت إدانتهم ، ولم تجر محاكمتهم ، وذبحنا جماعات بصورة جماعية ، ثم ظهرت براءتهم ، ووجد منا قضاة لم يتورعوا عن محاكمة رجال مشهورين بسمعتهم الطيبة ، لأن شجاعتهم جعلتهم يأتون إلينا ويقفون أمام غطرستنا متوسلين لإنقاذ مواطنيهم المساكين، ووجد منا رجال لم يحجموا عن تنفيذ حكم الإعدام فيهم ، وألقينا في غياهب السجون المظلمة رؤوساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاجيء ومؤن ..)) . (35)

وإذا تصفحت مذكرات وتقارير ورسائل القادة والجنود لا تجد إلا أخبار التدمير والقتل والحرق والتخريب .. ولعلنا نختم هذا المطلب بمقتطفات من مذكرات الماريشال سانت أرنو حيث يقول : ((.. سنبقى في نهاية شهر جوان 1841م نقاتل في ولاية وهران نخرب وندمر كل البلاد ، ومعها كل ممتلكات الأمير عبد القادر ، وحيثما توجه الأمير يجد أمامه الجيش الفرنسي يحمل إليه النار .. معسكر إنها مدينة جميلة ذات أهمية عظيمة ، خربها وأحرق قسما منها الماريشال < كلوزيل > سنة 1835م .. وها نحن وسط الجبال التي بين مدينتي مليانة وشرشال نحارب قليلا ، ولقد أحرقنا جميع المداشر والقرى وجميع البلاد التي حللنا بها بل وحتى جميع الأكواخ .. إنني مع فرقتي الصغيرة نحرق منازل الأهلين وأكواخهم، وننهب مستودعاتهم، ونرسل إلى مليانة ما نقدر عليه من قمح وشعير .. وإني لن أترك الأعداء يرتاحون حتى يستسلموا، لقد أتلفنا وأحرقنا ودمرنا وحطمنا كل الديار وحتى الأشجار، لقد جئت مدينة البليدة فأحرقت كل ما اعترضني في الطريق ، وحطمت جميع القـــرى الجميلة .. وهذه أشجار البرتقال التي سأقضي عليها . هكذا سأحرق اليوم كل الممتلكات الخاصة بالأهالي ..)) . (36)

والمحلل لمثل هذه الاعترافات الرسمية الصادرة عن قادة الحملات الفرنسية المتتابعة لاحتلال المزيد من تراب الجزائر ، ولاستذلال ما بقي حرا من شعبها ومن قادة كانت لهم أهميتهم وحساسيتهم في صناعة الأحداث ، واتخاذ القرار المصيري بمستقبل الأرض

والشعب الجزائري ، التي ساقها المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه القيم ، يصل إلى مايلي :

1 – حقيقة النوايا الاستعمارية الاستخرابية الاستكبارية التي تبنتها الحملة الفرنسية الغازية

2 – حقيقة الأطماع الصليبية عامة ، والفرنسية خاصة في تحويل القارة الإفريقية نحو المسيحية .

3 – هشاشة الأوضاع السياسية والعسكرية التي كان عليهاالشعب الجزائري إذ سرعان ماكتشف تراجع سلطته الرسمية عن الدفاع عنه ، وركونها إلى الاستسلام الذليل .

4 – حجم التدمير والتخريب الاستعماري الفظيع الذي أتت به الحملة الفرنسية على الجزائر .

5 – وضع الفرد الجزائري المعيشي غداة السنين الأولى للاحتلال ومدى التخريب الذي لحق به .

6 – نكول القادة الفرنسيين عن عهودهم ومواثيقهم التي قطعوها في معاهدتهم مع الداي ، والتي أقسموا على احترامها بشرفهم وشرف فرنسا وشرف الملك ، والتي بدت أنها لاتساوي شيئا .

7 – خطأ الجزائريين – أفرادا وقبائل – في التعامل مع قادة وجنود الاحتلال .

8 – إنحطاط مستوى الوعي لدى الكثير من القبائل الجزائرية التي مالأت الاستعمار وأعانته .

9 – حالة الرعب والخوف التي آلت إليها الجزائر بعيد الاحتلال الفرنسي بفعل حملات الإرهاب والقتل و الإبادة والتدمير التي أبداها قادة الحملة وجنودها .

10– حقيقة المستوى الأخلاقي والإنساني الذي كان عليه قادة وجنود الاحتلال ، الذي بدا جليا من خلال ممارساتهم الاستخرابية الوحشية .

11– حالة السقوط والتردي الحضاري التي آلت إليها الجزائر فرديا واسريا واجتماعيا .

12- حالة التمزق الإداري التي كان عليها الشعب الجزائري ، مما أعان الإدارة الاستعمارية الفرنسية - بشكل أو بآخر - على نجاح مهمتها الاستخرابية في الجزائر .

وهكذا يعرض المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي صورة الغزو الاستعماري وحملاته البشعة في كتابه ، لتنكشف للقارىء حقيقة النوايا والممارسات والأهداف الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ، ويحكم على أجيال جزائرية بكاملها أن تعيش في ظل العبودية والاسترقاق عقودا طويلة من الزمان ، وليولد أمثال : ابن باديس ، والإبراهيمي، والعقبي ، والتبسي في ظل العبودية والاسترقاق .

*وضع الجزائر تحت الإدارة الاستعمارية :

غدت الجزائر - ابتداء من يوم سقوطها بيد الفرنسيين - مسرحا رحبا يصول ويجول فيه القادة والجنود الفرنسيون ، الذين حضروا بمعية قائدهم الجنرال الكونت (دوبرمون) إلى القصبة بغية إقامة قداس ديني بمناسبة انتصارهم العظيم وانتصار المسيحية على أيديهم، وقد خطب بمعية القساوسة الستة عشر - الذين رافقوا الحملة وباركوها - قائلا : ((.. لقد أعدتم معنا فتح باب المسيحية لأفريقيا ، ونتمنى في القريب أن نعيد الحضارة التي انطفأت فيها منذ زمن طويل ..)) . (37)

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه (دو برمون) يقيم قداسه في قصبة الجزائر العاصمة كان الملك (شارل العاشر) ملك فرنسا يشهد قداسا معظما في كنيسة < نوتردام دي باري > يحمد الرب فيه على انتصاره على الأعداء ، كما أقيمت يوم1830/07/21م الصلاة المعظمة في الكنيسة الملكية بالقصر الملكي للقديس لويس التاسع بشأن هذا الانتصار المسيحي العظيم . (38)

وقد عمل القادة الفرنسيون على تخضيع الجزائر والجزائريين تحت إرادتهم ، ولم يألوا في ذلك أية وسيلة يروها ناجعة تذلل لهم هذا الشعب الأبي ، وتحوله عن دينه وعقيدته ونمطية حياته وعيشه . وقد عبر عن ذلك أحد قادتهم بقوله : ((حللنا بمدينة الجزائر فاتخذنا من المدارس مخازن واصطبلات، واستحوذنا على أملاك المساجد والمدارس،

وكنا نظن أننا سنعلم الشعب العربي مبادىء الثورة الفرنسية ولكن مع الأسف أن المسلمين رأوا في ذلك ضربة للدين والعقيدة ..)) . (39)

والمحلل لوضعية الجزائر في ظل التبعية السياسية والإدارية الاستعمارية الفرنسية حسب الأدوار التي مرت بها الإدارة الاستعمارية في الجزائر يصل إلى مايلي :

1 – أن فرنسا كانت عازمة منذ فشل حملتها الأولى على مصر 1798- 1801م على إعداد حملة عسكرية جديدة ، تستفيد فيها من أخطاء حملتها الأولى، ولتبقى محتلة الجزائر إلى الأبد، وهذا ما لم ينتبه له حكام الجزائر ، ولذا كان تقييمهم لتأثير الحملة تقيما خاطئا (40) .

2 – ربط الجزائر والشعب الجزائري بفرنسا مباشرة ، ولاسيما القضايا المتعلقة بالهوية والدين واللغة .

3 – استمرار الإدارة الاستعمارية الفرنسية في نهجها الاســـتئصالي ، الذي حمله الغزاة الأوائل من جنود وقادة الحملة الأولى المشبعين بروح الحقد والتعصب والانتقام .

4 – الإلغاء الفعلي لمعاهدة < الـــداي حسين > مع < دوبورمـــون > ، وتعويضها بالسيطرة الفرنسية المطلقة والمباشرة .

5 – عدم تغير سياسة فرنسا – الملكية . الإمبراطورية . الجمهورية – تجاه الشعب الجزائري المسلم ، وتجاه دينه ، ومعالم هويته العربية الإسلامية . (41)

6 – انتهاج سياسة النفاق السياسي والقانوني والإداري في بالتمظهر بمظاهر المدنية المظاهري ، وذلك بهدف امتصاص الغضب العالمي من جهة ، وتلميع صورة فرنسا مصدرة مبادىء الثورة الفرنسية العادلة من جهة ثانية ، واستخبال الشعب الجزائري من جهة أخرى .

7 – جعل الجزائر والجزائريين حقل تجربة سياسية وعسكرية وقانونية وإدارية .. وقد بدا ذلك جليا في الأطوار الإدارية التي مرت بها الجزائر تحت سلطة الإدارة الاستعمارية دون مراعاة لخصوصيات وثوابت الشعب الجزائري العربي المسلم .

8 – إطلاق يد القادة العسكريين المتعطشين للدماء ، وللمغامرين من غلاة المدنيين المعمرين المتعصبين الجشعين لحكم وإدارة وتسيير الجزائر والشعب الجزائري والعبث به .

ومن هنا نتبين قدرة المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الوصفية والتسجيلية لوقائع حملات التخريب والإبادة ضد الجزائريين التي تُصنف اليوم في خانة الجرائم ضد الإنسانية .

* وسائل القمع والسيطرة القانونية :

بلغ مجموع القوانين الاستعمارية الصادرة في حق الجزائر والجزائريين من : مراسيم وقوانين وقرارات وأوامر وتعليمات وتشريعات ، وغيرها .. في الفترة الممتدة بين 1830- 1855م حوالي عشرة آلاف نص قانوني قمعي (42).

وقد مر تطور التقنين الاستعماري في الجزائر بين سنتي 1830-1962م بالمراحل التالية :

* الطور الأول (*1834-1830*)

لم يكن أي نص قانوني بعد سقوط دولة الأتراك وبداية الاحتلال الفرنسي يخول حق التقنين لأي سلطة من السلط عدا سلطة الفقهاء المفتين والعلماء وشيوخ الزوايا ، وفي ظل هذا الفراغ القانوني وجد القائد العام لجيش الاحتلال الفرصة المناسبة لتحقيق طموحاته الاستكبارية فبدأ يصدر قراراته وأوامره في كل ما يخص الأمور العسكرية، وكذلك مسؤول السلطة المدنية فيما يتعلق بالإدارة والشؤون المدنية، وكان الخلاف قائما آنذاك حول مصدرية التقنين بين السلطتين العسكرية والمدنية . (43)

وفي هذه الفترة أصدر قادة الحملة الفرنسية (كلوزيل – CLOZEL) جملة من القرارات لها صلة بتهديم جزء كبير من مدينة الجزائر ، وتغيير معالمها بإزالة الكثير من مؤسساتها الدينية والمدنية كالسبل الوقفية والجوامع والمساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب والرباطات والدور والحدائق ..(44) ، وظل في هذه الفترة التقنين مقصورا على قادة الجيش الفرنسي دون غيرهم .

* الطور الثاني (1834-1848)

وبتاريخ 1834/07/22م صدر قرار ملكي يمنح الفصل الرابع منه الملك الفرنسي حق التقنين وسن القوانين بالأراضي الفرنسية في شمال افريقيا، ونص القانون على وجوب تنفيذ الوالي العام أوامرالملك، وأعطاه الحق في إصدار بعضالأوامر المحلية لتسهيل تنفيذ قرارات الملك في الحالات الاستثنائية . (45) وقد أفرط الولاة في التوسع في هذا الاستثناء حتى تحول القانون كله إلى استثناء .

وفي هذه الفترة صدرت أكثر القوانين قسوة في حق الجزائر، وفي حق الشعب الجزائـــري العربي المسلم ، على رأسها قانون 1834/07/22م القاضي بضم وإلحاق الجزائر ، واعتبار أهلها مجـــرد مواطنين (أهـــالـــــي) خاضعين لسيطرة الإدارة الفرنسية، واعتبارها منذ هذا التاريخ أرضا فرنسية إلى الأبد، وتسليم إدارة الممتلكات في شمال إفريقيا إلى حاكم عام يساعده وكيل عام ومقتصد يرجعون إليه فيما يتعلق بكل شؤون التراب والشعب الجزائري إلى وزير الحرب الفرنسي ، الذي له وحده حق الإشراف . (46)

* الطور الثالث (1848-1852)

بعد تحرير دستور فرنسا الجديد سنة 1848م ، الذي أشار إلى أن التشريع الجزائري يقع بواسطة القرارات فقط ، ولتبقى الجزائر خاضعة للقرارات الملكية حتى يتم إلحاقها بأحكام الدستور الجديد . (47)

وقد تميزت هذه الفترة بإصدار قوانين جائرة في حق الجزائر والشعب الجزائري ، منها : قانون 1848/03/03م الذي يعتبر الأراضي الجزائرية كلها جزءا مكملا للأراضي الفرنسية (48) ، وبموجب هذا القانون الذي أعلنه المجلس الوطني الفرنسي بفرنسية الأرض الجزائرية يمنح الفرنسيون ومن معهم من الأوربيين حق انتخاب ممثليهم في البرلمان الفرنسي وفي المجالس الشعبية البلدية .. (49)

* الطور الرابع (1852-1870)

حررت الإمبراطورية الفرنسية الثانية دستورا جديدا لفرنسا في 1852/01/14م ، الذي أعطى حق التقنين لمجلس السينا المخول بإصدار قوانين الـــ (سيناتوس كونسولت - SENATUS CONSULTE)، ولكنه أبقى التشريع من حق الإمبراطور . (50)

* الطور الخامس (1871- 1962)

حررت فرنسا دستور الجمهورية الثالثة عام 1871م ، الذي ألغى الدستور الامبراطوري السابق وأعطى حق التشريع للمشرع الفرنسي المتمثل في البرلمان الفرنسي، وجعل قراراته تنفذ بواسطة رئيس الجمهورية ، وبواسطة قرارات وزارية يوقع عليها رئيس الجمهورية بعد نشرها في الجريدة الرسمية ، كما أعطى للوالي العام الحق في إصدار القرارات نيابة عن وزير الداخلية الفرنسي فيما يتعلق بالمسائل الإدارية الخاصة ، ولا تنفذ قراراته إلا إذا نشرت في الجريدة الرسمية . (51)

. ومن هنا نتبين قدرة المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الوصفية والتسجيلية لوقائع الهيمنة التقنينية والقانونية والإدارية الاستعمارية ضد الجزائر والجزائريين التي تُصنف اليوم في خانة الجرائم ضد الإنسانية .

* أهداف إغراق البلاد بالقوانين

كانت الإدارة الاستعمارية تهدف بسياسة إغراق البلاد بسيل من القوانين والقرارات والمراسيم والأوامر .. إلى تحقيق جملة من الأهداف الاستعمارية أهمها :

1 – إضفاء صفة الصبغة القانونية والتشريعية على سلطتها ، وإبعاد صفة الاحتلال أو الاستعمار عنها .

2 – منح الحق – لنفسها – في حكم البلاد الجزائرية ، والسيطرة على القطر الجزائري بصفة قانونية .

3 – إضفاء صفة الوريث الشـــرعي والقانوني – داخليا وخارجيا – للدولة العثمانية التي تنازلت عن هذه الأرض بطواعيتها ، ولم تطالب فرنسا – يوما – والمجتمع الدولي بإرجاعها والتخلي عنها .

4 – قطع الطريق أمام كل الزعامات الإقليمية (باي تونس . سلطان المغرب) ، والمحلية (أحمد باي . الأمير عبد القادر) من التطلع لقيادة وتوحيد البلاد .

5 – التمهيد التدريجي للقضاء على مقومات الشخصية والسيادة الوطنية .

6 – التمهيد التدريجي للقضاء على التشريع الإسلامي الإطار المرجعي الوحيد للجزائر وللجزائريين .

7 – وضع اللبنات التأسيسية القانونية للسيطرة على الجزائر .

8 – إبعاد الدين ورجاله من حكم الحياة ، وبذلك تحل القوانين الوضعية محل الدين ورجاله، ومعه تمنح المرجعية للقوانين الوضعية الاستعمارية بعدما كانت موكولة إلى الدين ورجاله .

ويمكن تصنيف قرارت فرنسا الاستعمارية في الجزائر إلى الأضناف الرئيسة التالية:

1 – قوانين الضـــم و الإلحاق :

ومن ذلك قرارات ضم الجزائر إلى الممتلكات الفرنسية الصادر يوم 1834/07/22م ووضعها تحت إدارة حاكم عسكري عام يعينه معاونون في أداء مهامه(52) ، ثم قانون 1848/03/03م الذي يعتبرالجزائر جزء مكملا لفرنسا (53)؛ ثم قانون 1870/10/24م الذي يقسم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات فرنسية . (54)

2 – قوانين التنصير والتغريب

ومن ذلك قرار مجلس الشيوخ الصادر يوم 1865/07/14م الذي جعل من الجزائريين (الأهالي) رعايا فرنسيين ، فلا هم مواطنون فرنسيون ولاهم جزائريون المعروف بـــ (سانتوس كونسلت) . (55)

ومن ذلك القانون الصادر عن مجلس الشيوخ الفرنسي يوم 1859/12/13م ، الذي ينص على إلغاء العمل بالشريعة الإسلامية في منطقة القبائل ، ويوكل العمل عوضا عنها إلى العرف والعادات . (56)

ومن ذلك أيضا الأمر الصادر يوم 1886/09/10م القاضي باستبدال التحاكم إلى الشريعة الإسلامية في حكم الأهالي والاستعاضة عنه بالقانون الاستعماري الوضعي.. (57)

3 – قوانين الفرنسة والمسخ

ومن ذلك قرار الحصول على رخصة قانونية لفتح مدرسة لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية الصادر يوم 1892/10/18م . (58)

ومن ذلك قانون فصل الدين عن الدولة الذي أصدره مجلس الشيوخ الفرنسي في سبتمبر 1905م، والذي نظمه مرسوم 1907/09/27م الشامل للدينين المسيحي واليهودي عدا الدين الإسلامي . (59)

4 – قوانين التجزئة الطبقية

ومن ذلك قانون فصل ميزانية الجزائر عن الميزانية العامة الصادر يوم 1900/12/24م استجابة لرغبة الكولون الطامحين في الحكم الذاتي للتراب الجزائري (60) ، وكذلك قانون منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر الذي تقدم به حارس الأختام وزير العدل الفرنسي (أدولف كريميو – ODOLF CREMIEUX) والذي أقره مندبو حكومة الدفاع الوطني يوم 1870/10/24م، وبالتالي تم إدماج اليهود البالغ عددهم آنذاك حوالي خمسا وثلاثين ألفا في الكيان الاستعماري الفرنسي ، ثم دخل قرار كريميو حيز التنفيذ إثر مرسوم 1871/10/07م. (61)

وبعد أن قمعت فرنسا ثورة الرحمانية عام 1871م ألغت المحاكم العرفية البربرية وأحلت محلها محاكم فرنسية خالصة ، تقضي في الأمور والأحوال الشخصية لسكان منطقة القبائل بالقانون المدني الفرنسي ، وذلك طبقا لقرار 1874/08/29م ، ثم

عمدت إلى سن قانون تحظر فيه على سكان بلاد القبائل التكلم بالعربية الفصحى والتحدث باللهجة العامية البربرية ، والتعامل الرسمي معها باللغة الفرنسية، كما حظرت على كل العلماء المسلمين الجزائريين ارتياد هذه المناطق لتعليم أهلها القرآن والدين الإسلامي واللغة العربية ، بهدف قطع صلة البربر باللغة العربية والدين الإسلامي وبالمقومات الحضارية العربية الإسلامية . (62)

5 – قوانين التسخير والتفقير :

ومن أهمها قانون التجنيد الإجباري للجزائريين في الجيش الفرنسي الصادر يوم 1912/02/03م الذي يلزمهم بالدفاع عن فرنسا (63) ، ففي سنة 1878م نشر تقرير مفصل بنتائج تصفية الحجرالمضروب عقب ثورة عام1871م، تلك الثورة التي يتلخص قمعها في الإجراءات والغرامات القمعية التالية :

1 – دفع ثوار الرحمانية ضريبة حرب تقدر بـــ 37 مليونا من الفرنكات .

2 – تخلي ثوار الطريقة الرحمانية عن أراض جديدة للإدارة الاستعمارية تقدر بـــ (446406)هكتارا قيمتها حوالي (20) مليون من الفرنكات .

3 – دفع ثوار الرحمانية للخزينة الفرنسية حوالي ثمانية ملايين فرنك (64) ، عـــدا الشروط المجحفة التي فرضتها عليهم الإدارة الاستعمارية بالتعليمة الصادرة عن الحاكم العام يوم 1871/05/20م التي يجب على الثوار قبولها دون قيد أو شرط . (65)

6 – قوانين الردع الزجر ي – الموت والإبادة –

بعد القضاء على أكبر الثورات وأخطرها على الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر ، الذي جسدته ثورة الطريقة الرحمانية عام 1871م أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية قوانين زجرية جائرة في حق الإنسان الجزائري خاصة والإنسانية عامة . (66)

هذه القوانين التي تسمى بقوانين (الأنديجينا - CODE DE L INDIGINAT) ، والتي بقيت سارية المفعول إلى أن ألغيت شكليا بمقتضى قانون 1944/03/07م . (67) .

وقوانين الانديجينا عبارة عن نصوص تنظيمية استثنائية متعارضة مع حقوق الإنسان الفطرية ، والطبيعية والاجتماعية ، تتحول بمقتضاها السلطة القضائية إلى السلطة الإدارية ، وترفع فيها الكثير من الضمانات والحقوق عن حرية الأفراد والجماعات ، وقد ظلت وتيرتها القمعية في اشتداد على الشعب الجزائري إلى مابعد الثلاثينيات من القرن العشرين ، وظلت مستمرة إلى ثورة نوفمبر 1954م المباركة ، إلى أن ألغيت بالقوة – وإلى الأبد – في عهد الاستقلال . (68) .

وفي دراسة إحصائية قام بها أحد الباحثين درس تأثيراتها وتطبيقاتها على الشعب الجزائري وجد أن نسبة المعاقبين من الشعب الجزائري تقدر بالنسبة المئوية من عدد السكان سنوات 1882م إلى 1912م حوالي عشرة بالمائة من الشعب الجزائري من المعاقبين . (69) .

ولم تقتصر وسائل السيطرة والتخضيع القانونية على الأصناف القانونية المذكورة، بل تعدتها إلى قوانين التجهيل والتفقير والتنصير والتغريب والعلمنة .

وبمثل هذه السيطرة القانونية الشديدة كان الجزائريون يفقدون آخر أمل لهم في التمتع بالحقوق البشرية الفطرية والاجتماعية .. ويستحيلون إلى مجرد خدم للمشروع الاستكباري الفرنسي في الجزائر .

ومن هنا نتبين قدرة المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الوصفية والتسجيلية لوقائع الهيمنة التقنينية والقانونية والإدارية الاستعمارية ضد الجزائر والجزائريين التي تُصنف اليوم في خانة الجرائم ضد الإنسانية .

* من المغالبة إلى المطالبة :

لم يعرف الشعب الجزائري الركون والمهادنة منذ دخول الجيش الفرنسي محتلا أرضه فقد شهدت الفترة الممتدة من عام 1871م وعام 1919م نوعين من أشكال المقاومة ضد الوجود الاستعماري الفرنسي ، فبالإضافة إلى الانتفاضات الكبرى الشهيرة في (واحة العمري عام 1876م) ، و(الأوراس عام 1879م)، و(ثورة بوعمامة عام 1882م) ، و(ثورة الأوراس عام 1916م) ، وغيرها كان الشعب الجزائري مترويا على نفسه ، مقاطعا للاستعمار ولمؤسساته الاستدلالية ، التي سعت لتشويه معالم شخصيته ، وبمقاطعته الصامتة العميقة تلك شكل حاجزا نفسيا وروحيا لبناء جدار معنوي قوي ومتماسك ، حفظ له ما تبقى من حصون المقومات الدينية والوطنية للتصدي لمحاولات الاستعمار المستمرة للنيل منه ، وهاته المقاطعة هي التي بلورت وحفظت شخصيته من الذوبان والمسخ والانصهار في مشاريع الاستكبار، الهادفة للنيل من دينه ومقوماته التي كان كتاب الاستعمارالفرنسي يعبرون عنها – في أدبياتهم السياسية والفكرية – بالتعصب والانغلاق والجمود والتخلف لدى الجزائريين . (70)

وقد نتج عن فشله في المقاومة وقوعه في حالة من الذهول والاسترخاء، مولدة لديه حالات أخرى من الركون والارتباك عن مدى نجاعة تلك الانتفاضات المسلحة التي قام بها، ولكنها لم تصل به إلى حالة اليأس والتراجع والاستسلام والقبول بالأمر الواقع إلا لالتقاط الأنفاس والبحث عن أسلوب أكثر نجاعة عله يحقق به حريته وانعتاقه من الاستعمار الفرنسي .

ويتنوع أشكال مقاومة الاستعمار الفرنسي القمعية عبرت حركة (الشباب الجزائري) التي ظهرت في مستهل القرن عن بعض هذه التوجهات التحررية مستغلة بذلك إصلاحات عام 1919 التي استصدرها البرلمان الفرنسي تحت ضغط وإلحاح حكومة (م . جورج كليمنصو – G . CLIMONSEAUX) (71) وبعض الأحرار والنواب المعتدلين في البرلمان الفرنسي ، الذين أرادوا مكافأة الجزائريين الذين شاركوهم في الحرب العالمية الأولى للدفاع عن شرف فرنسا ، وتحت ضغط رجال الحركة الوطنية الجزائرية

الذين تقدموا مرارا إلى السلطات الفرنسية بالعرائض والاحتجاجات لتقديم إصلاحات ضرورية لإنعاش الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للجزائريين، وتحت تأثير الحركة الصحفية الجزائرية والفرنسية الحرة المناهضة للاستبداد المنادية بالإصلاح وتحسين أوضاع الجزائريين ، وتحت ضغوطات الدعاية الألمانية التي اشتدت بقوة لتأليب سكان المستعمرات ، وكذلك الدعاية العثمانية وثورة العرب بقيادة الشريف حسين في الحجاز عام 1917م ، وضغوطات الثورة البلشفية في روسيا وتبدل الأوضاع الدولية آنذاك فيما عرف بإصلاحات قانوني 04 و 06 / فبراير/1919م . (72)

وبالرغم من بنود القانون التمييزية النخبوية التي تميز فئة من الجزائريين لا تتعدى بضعة آلاف إلا أنه أنه شكل – بالنسبة للحركة الوطنية الجزائرية – نقطة انطلاق النضال السياسي المعاصر . (73)

نضال سياسي مرير وشاق وأكثر صعوبة من المقاومة المسلحة لأنه دار حول قضايا الشخصية الوطنية ومسائل الهوية والدين واللغة ، التي كانت محور المساومة الاستعمارية معهم للتمتع بمميزات هذا القانون الإصلاحي بالنسبة لجماعة النخبة ، الطامحين للتمتع به مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية العربية الإسلامية مما سبب لهم خيبة أمل كبيرة في الإدارة الاستعمارية ، وقد انقسموا حياله إلى ثلاث فئات :

1 – فئة ترفض التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية وتطالب بضرورة الاحتفاظ بها

2 – فئة تطلب عدم ربط حقوق المواطنة والاستفادة من قانون 1919م بالتخلي عن الأحوال الشخصية .

3 – فئة لا ترى حرجا في التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية مقابل التمتع بالقانون . (74)

* الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

بدت مدينة الجزائر من خلال وصف الرحالة وقادة الحملة الفرنسية مدينة جليلة وكبيرة متوفرة على سائر مرافق الحياة العصرية في ذلك الوقت فقد قدرت عدد المنازل داخل سورالعاصمة عام 1789م حوالي 5000 دار، كما قدرت عدد الدور داخل سور العاصمة عام 1829م بحوالي 8000 دار ، وأما بقية الدورالتي كانت خارج السور فقد قدرت عام 1578م بأكثر من 1500 دار إلى 2000 كانت تسكنها مختلف الأجناس المكونة للمجتمع الجزائري . (75)

كما بلغ عدد دور مدينة تلمسان حوالي 1043 منزلا، ودور مدينة معسكر 812 منزلا، ودور مدينة بجاية 265 منزلا، ودور مدينة وهران 532 منزلا ، وأربعين محلا عموميا ، ومثل ذلك عدد الحمامات ، والفنادق والحوانيت ، وكلها كانت مبنية بنظام فخم وطراز بديع . (76)

وإذا ضممنا إلى هذه الوثيقة التاريخية اعترافات الفرنسيين التي تصرح بحجم التخريب والتدمير الذي مارسوه في مدينة الجزائر وغيرها من المدن الجزائرية ، وجدنا أن عدد الدور والمنازل والمساجد والزوايا والمدارس ورباطات الخير وأوقاف المدينة ومكة وطلاب العلم ، التي كانت توقف لهم الأوقاف الخيرية المتعددة من : مخابز وحمامات ودكاكين وأراض ومنازل وعقارات.. قد آل أمرها إلى الخراب على يد جنود الحملة الفرنسية الغازية .

هذا المشهد الاجتماعي الحزين الذي دشنه الغزاة الأوائل ، الذين يفتخرون على ألسنة قادتهم ، ومنهم الجنرال (بروسار- BRAUSSARD) الذي قال مفتخرا : ((.. لقد حطمنا قرابة تسعة آلاف منزل، كانت من أبهى وأبدع المنازل بضواحي العاصمة..)) . (77)

ومنهم أيضا نوابهم (دو ساد - DE SADAIT) الذي خطب في مجلس الأمة الفرنسي مفتخرا يوم 1834/04/28م ، فقال : ((.. حطمنا في مدينة الجزائر 900

منزلا، دون سابق انذار، واستولينا على 60 مسجدا ، فاستعملناها للمصالح العسكرية وهدمنا عشرة منها ، وكنا حيثما قمنا بأعمال البناء ننبش القبور ونبعثر العظام دون أدنى احترام ..)) . (78)

والمحلل لهذه الشهادة الصادرة عن أحد الأطباء المثقفين الفرنسيين التي وصف فيها حالة بؤس المجتمع الجزائري الصحية والاجتماعية والمعيشية والأمنية .. بعد قرن وربع من الاستذلال والاستدمار – وبعدما كان المجتمع الجزائري يعيش آمنا في رغد من العيش – يتبين ما يلي :

1 – وضع الجزائريين المهني والمعيشي والصحي قبل الاحتلال وبعده .

2 - وضع الجزائريين التربوي والتعليمي والتكويني قبل الاحتلال وبعده .

3 – وضع الجزائريين المزري في ظل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية الاستذلالية.

4 – حالة البؤس والشقاء التي تحول إليها الجزائريون بعد حياة حافلة بالرفاه والعز .

5 – وضعية الطفولة والأمومة وحقوق الإنسان العادية في ظل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية ، وفي ظل ثورة المبادىء والقيم . ثورة : (الحرية . العدالة . المساواة) .

6 – كذب الطروحات الغربية القائلة بتمدين الشعب الجزائري الهمجي المتوحش.

7 – وضوح الروح الاستكبارية الاستعلائية الكامنة في الفرد الأوربي عموما ، والفرنسي خصوصا .

8 – الكشف عن خبايا وحقيقة النفسية الأوربية المريضة المشبعة بروح الحقد والانتقام والسادية المتلذذة بعذابات الجزائريين .

9 – تهيئة المناخ المناسب لاندلاع الثورة الجزائرية المسلحة ، التي استثمرت وضعية الشعب البائس في الثورة والتحرر والانعتاق من نير العبودية الفرنسي .

ما كادت تصل الساعة العاشرة صباحا من يوم 1830/07/06م لاستسلام الجزائر الرسمي بيد القائد < دو برمون > ، وخروج الداي حسين ورجال دولته من قصر الجنينة بالقصبة حتى سارع قادة وجنود الحملة الفرنسية إلى مكان الخزينة الجزائرية التي طالما حلموا بذهبها طويلا ، لينتهبوا منها ما مجموعه ستين مليونا من الفرنكات الذهبية والفضية ، ولينتهبوا أموال الناس الخاصة التي قدرت بأربعمائة مليون فرنك ذهبي وفضي (79) ، عدا التحف والأثاث والهدايا والأفرشة والصوف والسجاجيد والحيوانات .. التي كانت في قصرالداي وفي قصور أغوات الجزائر وفي دور الجزائريين الأعيان والمواطنين الذين فروا من هول المعارك .

وبنظرة مقارنة بين وضع الجزائر والجزائريين الاقتصادي والمالي قبيل الاحتلال وبعده نتبين حقيقة المستوى الاقتصادي الكارثي الذي آل إليه أمر الجزائر والجزائرين بعد الاحتلال .

فقد عرفت الجزائر نشاطا اقتصاديا كبيرا باتجاه العالم آنذاك وكان التجار الجزائريون يصدرون نحو أوربا القمح والشعير والتين والزيتون والزيت والزبيب والتمر والتبغ وريش النعام والجلود والصوف الخام ونسيجه والأرز والكتان والملح وخرز المرجان .. وغيرها مما تشتهر به الجزائر ، عبر موانىء عنابة والقالة وبجاية والجزائر ووهران وكذلك باتجاه الشرق الإسلامي وأمريكا . (80)

كما كانت تجوب مناطقها الداخلية قوافل تجارية هامة تربط بين مدينتي قسنطينة وتونس ، ومن أهمها القافلة الشـــهيرة التي كانت تنطلق من مدينة قسنطينة متكونة من حمولة 200 إلى 300 بغل محملة ببضائع تبلغ قيمتها مليون فرنك لتباع بمدينة تونس بمليون ونصف مليون فرنك . (81)

كما كانت تستورد الرخام من إيطاليا وآلات الحديد والأدوات الفولاذية كالسلاسل ومراسي السفن وغيرها من فرنسا ، وتستورد نسيج القطن والقطيفة والحرير وأنواع الأقمشة من مدينة ليون وجنوة ، وزجاج البلورمن بوهيميا ومن البندقية التي يؤتى

منها بأنواع المرايا والخزف المطلي والزليج والسلاح والساعات وملح البارود ، ومن بريطانيا جميع أجهزة الحرب وشراع السفن والقلاع والحبال والأخشاب الغليظة لإنشاء السفن ، ومن الشرق التوابل والعطور والعقاقير والتحف والسجاد والخزف .. (82)

وقد عرفت الجزائر أيضا مع حركتي الاستيراد والتصدير حركة مهنية وصناعية أخرى متقدمة ، وكانت تمارس أعمالها التجارية الداخلية عبر نظام الأسواق إذ عرفت الحواضر الجزائرية انتشار نظام الأسواق المتنوعة في بضائعها ومصنوعاتها ، واختلاف المهن والحرف اليدوية بها ، فنجد سوقا خاصا بالحدادين ، وسوقا خاصا بالريصايصية ، وسوقا خاصا بالمقايسية وصانعي الأساور والخواتم من عظم الجاموس ، وسوق الذكير -الفولاذ - وسوق الصفارين لصنع مختلف أواني النحاس وتمويهها بالقصدير، وسوق الصاغة ، وسوق الدباغين ، وسوق الخراطين ، والفرايغية لإذابة المعادن وسـائر القطع المعدنية وسكبها ، ودار لصناعة المدافع والقنابل والسفن والرصاص والبارود .. (83)

وقد كان جل الجزائريين من ملاك الأراضي ففي التقرير الذي قدمته لجنة إحصاء الأملاك لملاك الأراضي التي رافقت الحملة الفرنسية المقدم إلى المجلس الوطني الفرنسي سنة 1837 جاء فيه أن ملاك الأراضي من الجزائريين بلغ مجموعهم حوالي ثلاثة ملايين ونصف (84) ، وكانوا يتمتعون بنظام ملكية متعارف عليه في الجزائر قبل دخول الاحتلال ، وهو موزع على أنظمة الملكية وأعرافها التالية :

1 - أراضي الأوقاف الإسلامية والخيرية .

2 - أراضي الحكومة (البايلك) .

3 - أراضي القبائل (أرض العرش والسبقة) .

4 - الأملاك الفردية . (85)

والمتمعن في وضع الجزائر الاقتصادي قبل الاحتلال يتبين أن الجزائر والشعب الجزائري كان في وضع اقتصادي جيد إذا ما قورن بالأوضاع الاقتصادية العالمية آنذاك ،

وأن مستوى الدخل والانتاج المالي والمعيشي الذي كان عليه يشير إلى حالة الرخاء التي كان يعيشها الفرد والأسرة والمجتمع في : السكن والملكية والمهنة والانتاج والتصدير ..

ولذا فقد اندفع الغزاة باتجاه ثروات هذا الشعب المقهور نهبا وسرقة ومصادرة وإفناء حتى قدرت عدد الخسائر في المواشي بين عامي 1830-1845 بـ 18 مليون رأس من الغنم وحوالي 4 مليون رأس من البقر والإبل ، بالإضافة إلى غيرها من الخسائر . (86)

و لم يجد قادة الحملة الفرنسية حرجا بالافتخار بذلك التدمير والتخريب كما رأينا ذلك ، كما أنهم تسابقوا لإفقار الجزائريين ومطاردتهم في قوت يومهم مقابل منحه للغزاة : فهذا (فاران –VARNT) وهو من أساطين ودعاة الجزائر فرنسية في كتابه العنصري يقول : ((.. يجب علينا أن نستولي شيئا فشيئا وبدون هوادة ولا شفقة على جميع مزارعهم ومراعيهم ، ونثقل كواهلهم بضرائب مرهقة حتى تتعذر عليهم الحياة ، فلا يجدون ما يسدون به رمقهم ، فيصبحون حينذاك بين أمرين لا ثالث لهما إما أن يثوروا وإما أن ينخرطوا في جيش فرنسا للدفاع عنها)) . (87)

وتقع الموارد الاقتصادية الجزائرية بيدغلاة المعمرين الأوربيين وتبتدىء عملية استنزاف موارد الجزائر ، وذلك بطرد الجزائريين من أراضيهم وأملاكهم ، وتشجيع المستوطنين الأوربيين على الهجرة والاستيطان في الجزائر مكان الجزائريين المهجرين المشردين والمقتولين ..

فقد ورد في تقرير صادر عن وزارة الشؤون الحربية الفرنسية قسم شؤون الجزائر مذكرة حول القطع الزراعية الممنوحة مجانا للمعمرين وللتسهيلات المجانية الأخرى المساعدة على الاستيطان مايلي : ((.. على الأشخاص الراغبين في الإقامة بالجزائر بصفتهم معمرين مستفيدين ضمن المراكز السكنية والقرى الفلاحية التي تشيدها الحكومة توجيه طلباتهم مباشرة أوعن طريق الولاة – وهذا أفضل – إلى وزارة الحربية ، وقد رصد للعائلة الكبيرة مبلغ يتراوح بين 1200 و 1500 فرنك تستلمه العائلة قبل

الإبحار من ميناء طولون ومرســيلية وعند الوصول يحصل المستفيد في الحين وبعناية من مدير الداخلية على قطعة أرض للبناء في القرية التي ستحدد له ، وقطعة أخرى للحرث، والقطعة الأولى تكون واسعة بحيث تكفي لبناء دار وإقامة اصطبلات وساحة ، والثانية للحرث ومساحتها بين 4 و21 هكتارا ، وسيجد المستفيد ملجأ مؤقتا تحت أبنية خشبية جاهزة تقيمها الإدارة ريثما يتم بناء مسكنه الخاص الذي ستساعده الدولة بمبلغ قيمته من 300 إلى 600 فرنك، وسيعطى أدوات الزراعة والحرث والبذور وكل ماله علاقة بها مجانا من الحكومة ..)) . (88)

الأوضاع الثقافية والعلمية

* تمهيد :

حرف الكثير من باحثي ومؤرخي الاستعمار الفرنسي حقائق التاريخ لاسيما تلك التي لها صلة بمستوى الشعب الجزائري العلمي والثقافي والحضاري، وذلك بغية إضفاء طابع التحضير والتمدين على حملتهم الاستعمارية الغازية ، ونفي طابع الغزو والتدمير والإبادة .. التي حملتها إلى الجزائر . (89)

ولكن بعض المنصفين منهم يعترفون بأن مستوى التعليم والثقافة كان أعلى من كل توقع ، حتى مما كان عليه قادة وجنود الحملة الفرنسية الغازية ، وفي هذا الصدد نحب أن نسجل اعتراف الفرنسي (أوجين كومبس – EUGENE CAMPS) النائب في البرلمان في خطبته الشهيرة بمجلس الشيوخ الفرنسي : ((.. لقد كان التعليم في الجزائر سنة 1830م أقل تقهقرا مما جعلته السلطة العامة الفرنسية بعد الاحتلال ، لقد كان هناك – في الجزائر– مايزيدعن ألفي مدرسة ابتدائية وثانوية وعليا ، وكان الأساتذة المتخصصون يعلمون التلاميذ الذين يقبلون بغاية الاجتهاد على دروسهم ، وكانت كذلك الدروس العامة تنتظم للناس في جميع المساجد للكبار وللصغار ، ومن بين تلك المدارس الألفين كان يوجد بالعاصمة وحدها ثمانين مدرسة متنوعة ..)) . (90)

والشهادة التي سقناها لأحد النواب في الفرنسيين هي اعتراف صادق يكشف عن مستوى التربية والتعليم الذي كانت تتمتع به الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي فقد كان نظاما تعليميا وتربويا وإداريا دقيقا ومتميزا ، أرسى دعائمه العلماء والفقهاء الجزائريون الأولون أمثال : سحنون والونشريسي والمغيلي... واستمر عليه المتأخرون أمثال : الباجي وابن عطية وابن خلدون وابن عاشر ... ثم تمسك به العلماء المحدثون أمثال الونيسي وابن زقوطة وابن الفكون وابن الموهوب وابن سماية ، وغيرهم .

وبه جاهوا مشاريع المسخ والتشويه الاستخرابية الفرنسية منذ أن وطأت أقدامهم هذه البلاد .

هذه اعترافات الفرنسين أنفسهم عن واقع التربية والتعليم في الجزائر بعد عقدين من الاحتلال ، والتي كان يفترض – حسب ادعاءات رجال الحملة الفرنسية – أن تتحضر وتتمدن وتتقدم ، لا أن يؤول أمرها إلى الصورة البشعة التي قدمها الفرنسيون أنفسهم .

وفي هذا الصدد نسوق شهادة أخرى صادرة عن المؤرخ والباحث الفرنسي (بولارد – POLARD) الذي يصف حالة التربية والتعليم في الجزائر غداة الاحتلال بقوله : ((.. إن وصول الفرنسيين إلى الجزائر أحدث بلبلة عميقة في عالم المفكرين والأدباء ، لقد ترك أغلب العلماء كراسي تدريسهم، وتفرق التلاميذ في البلاد ، وعوضاعن الدروس العامة التي كانت تؤخذ في الاجتماعات أخذ أولئك يبحثون عن فك معميات العلوم في دروس منعزلة ، وبمدارس من الدرجة الثانية، أو في الزوايا البعيدة ، بينما وضعت إدارة المساجد في يد طماعين ، يحولون مصارف الأوقاف لجيوبهم ، ومنذ ذلك الوقت أهملت كل المدارس تقريبا ..)) . (91)

والخلاصة التي نصل إليها عن وضع الجزائر التعليمي والثقافي نجملها في العناصر التالية :

1 – عزم الإدارة الاستكبارية الفرنسية على محاربة اللغة العربية لغة الجزائريين الأصلية .

2 – حرص الإدارة الاستخرابية الفرنسية على محاربة الإسلام واستئصاله من قلوب الشعب الجزائري.

3 – وحشية الأساليب الاستعمارية الفرنسية في محاربة الشعب الجزائري .

4 – تشويه ومسخ وتغريب وفرنسة الشعب الجزائري عن دينه ولغته وثقافته وقيمه العربية الإسلامية .

5 – كشف حقيقة الاستعمارالبشعة والمتناقضة بين عالم المثاليات الذي كان ينادي به في شعارات الثورة الفرنسية (حرية.عدالة . مساواة) وبين معاملتها الاستكبارية الاستعبادية للشعب الجزائري .

ولذا فإن السلطات الاستعمارية تنبهت إلى أخطائها الثقافية تجاه الجزائريين ، وإلى أهمية المثقف الممسوخ ودوره السلبي تجاه لغته ودينه وثقافته ، كما تنبهت كذلك إلى دوره في قيادة المجتمع ، وصنع حركية الحياة ، فسارعت بين الحربين العالميتين لزيادة عدد الطلاب الجزائريين في الجامعات الفرنسية بفرنسا ، والفرنسية بالجزائر ، وذلك لتحقيق مشاريع الموالاة المستقبلية فسعت بالأساس إلى :

1 – خلق نخبة جزائرية استعمارية مثقفة وموالية لها روحا وعاطفة وشعورا ولغة وسلوكا

2 – خلق نخبة فكرية وثقافية معزولة عن قيمها ومجتمعها ومثلها العلا .

3 – خلق نخبة حريصة على استمرار سياسة الاستعمار الثقافية .

4 – إيجاد جيوب من التبعية الفكرية اللغوية والثقافية الفرنسية في كيان وروح الشعب الجزائري العربي المسلم بغية تحطيمه وتقويضه من الداخل .

5 – تحقيق الشهود والتواجد الاستكباري المتطور بعد انكشاف أشكاله القديمة .

6 – ضمان استمرار عمليات الهيمنة والتدجين .. بواسطة اللوبيات الثقافية الاستغرابية الجزائرية الشكل الفرنسية الروح واللغة .

وفي ظل هذه الأوضاع التعليمية والتربوية والثقافية المنهارة ولد وتعلم ونشأ الشيخ العربي التبسي وأمثاله ، وجاهد في الله حق جهاده ، داعيا ، ومصلحا ، ومربيا .

* سياسة فرنسا الثقافية في الجزائر

ينقل الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في مؤلفه التاريخي الشهير(92) شهادة تاريخية لأحد المثقفين الجزائريين يوضح فيها المستوى الفني والثقافي والأدبي الذي كانت عليه الجزائر قبيل فترة الاستعمار ، والتي كانت من صميم عادات الشعب الجزائري منذ العصور الإسلامية المتقدمة ، حيث يقول : ((.. هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر– حرسها الله من الفتن وحاطها من الدوائر– أنه إذا دخل شهر ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعمول إلى نظم القصائد المديحيات والموشحات النبويات ، ويلحنونها عن طريق الموسيقى بالألحان المعجبة ويقرؤونها بالأصوات المطربة ، ويصدعون بها في المحافل العظيمة ، والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء من المساجد ، والمكاتب والمزارات ، وهم في أكمل زينة وأجمل وأحسن شارات ، تعظيما لهذا الموســم الذي شرف به الإسلام ..)) . (93)

يشير هذا النص التاريخي إلى المستوى الثقافي والأدبي والفني الجمالي.. الذي كانت عليه عادات الشعب الجزائري في المواسم والأعياد الدينية والاجتماعية وغيرها ، فهو يكشف لنا عن وجه الجزائر الثقافي المشرق ، والمتمثل في ما يلي :

1 – الإشارة إلى وجود العادات والتقاليد والأعراف الموقرة المتبعة في سائر البلاد الجزائرية التي يحبها ويحترمها ويطيعها ، ويأتيها سائر أفراد الشعب حكاما ومحكومين .

2 – مكانة وأهمية موسم ميلاد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لدى الفرد والمجتمع الجزائري .

3 – مكانة ودور الشعراء والأدباء في المجتمع ، وموقع إنتاجهم الأدبي لدى الخاصة والعامة

4 – مستوى الفن والغناء والموسيقى الجزائرية الراقية بقصائدئها وموشحاتها وأغانيها الهادفة .

5 – اهتمام الحكام والأعيان والعلماء وعامة الناس بهذه المناسبة الدينية ، وتعظيمهم لها .

6 – مكانة المساجد والمزارات والمكاتب في مثل هذه المناسبات .

7 – الإشارة إلى الزي التقليدي الذي كان يرتديه سكان الجزائر في مثل هذه المناسبات ...

وما كاد يمضي على الجزائر والجزائريين قرن وثلث القرن من الاستعمار حتى كانت نسبة الأمية تشكل في رجاله 95 % ، وفي نسائه 98 % .

وهذه هي حضارة أوربا المسيحية التي حملتها إلى العالم العربي والإسلامي لتحضيره وتمدينه .

وضع الإسلام والمؤسسات الدينية

* وضع المؤسسات الدينية قبيل الاحتلال

يقدر المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي عدد المؤسسات الدينية بمدينة الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي بحوالي (170) مؤسسة دينية ، ما بين جامع ومسجد وضريح وزاوية ورباط ومدرسة وكتاب (94) ، كما قدر عدد المؤسسات الدينية في الحواضر الثلاث الشهيرة بأعداد مشابهة ومماثلة لما كانت عليه مدينة الجزائر ، ففي قسنطينة تراوح عدد المؤسسات الدينية فيها إلى سبع مدارس ثانوية ، وحوالي ثمانين مدرسة ابتدائية ، وعشرين زاوية وضريحا ، وخمسة وثلاثين مسجدا كلها للتعلم والعبادة ، كما حفلت مدينة تلمسان وبجاية بمثل ما حفلت به مدينة قسنطينة . (95)

وقد قدرت أوقاف مدينة الجزائر وحدها عشية الاحتلال بحوالي أربعين مليونا فرنكا ذهبيا موزعة على حوالي ألف وخمسمائة عقار وملكية متنوعة . (96)

وقد احصت الباحثة (خديجة بقطاش) في رسالتها العلمية (97) عدد الأوقاف في مدينة الجزائر ، ونوعيتها استنادا إلى التقرير الذي وضعته اللجنة الإفريقية في بدايات

عام 1834م ، كما أحصاها الشيخ المؤرخ عبد القادر الجيلالي في كتابه ، ومما جاء فيهما مايلي : ((.. قدر عدد الأوقاف الدينية في الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي بحوالي 2600 ملكية، وعدد غير قليل في المدن الأخرى كقسنطينة ووهران.. ويمكن ترتيب الأوقاف في مدينة الجزائر كما يلي :

1 - أوقاف مكة والمدينة ، وهي أهم الأوقاف ، لأن دخلها يساوي ثلاثة أرباع كل مؤسسات الأوقاف ، وتقسم إلى قسمين ، قسم يوزع محليا ، وقسم يرسل إلى مكة والمدينة .

2 - سبل الخيرات ، وهي هيأة دينية تأسست سنة 1584م تشرف على عدة مساجد للمذهب الحنفي .

3 - الجامع الكبير ، ويشرف على أوقافه المفتي المالكي ، ويساعده ثلاثة وكلاء.

4 - الزوايا ، وهي كثيرة ، وتقدر في مدينة الجزائر العاصمة بتسعة عشر زاوية .

5 - أوقاف الأندلس ، وقد تأسست سنة 1601م بهدف إعانة مسلمي الأندلس النازحين

6 - الإنكشارية ، وهي ثكنات الإنكشارية ، وعددها سبع ثكنات ، في كل ثكنة مائة حجرة .

7 - المياه ، وهي من أعمال الخير والسقاية .

8 - الطرق ، ولها أوقاف تعود أموالها لإصلاح الفاسد من الطرق . (98)

والمتمعن في هذه الاحصاءات والأرقام المخصصة لدعم المؤسسات الدينية سيكتشف بسرعة مدى احترام وحب الجزائريين لدينهم الإسلامي، كما أنها يتبين موقع ومكانة المؤسسات الدينية في المجتمع .

وقد عرفت الجزائر - كغيرها من دول العالم الإسلامي - منصب المفتي والقاضي وقاضي القضاة ، الذي كان يعين في عهد الدولة العثمانية من المذهب الحنفي مذهب

الرسمي للدولة، وبصحبته كان يوجد قاض فقيه مالكي ، وظيفتهما السهر على أهم قضايا الإسلام في الدولة . (99)

كما عرفت الجزائر مؤسسة المجلس الشريف ، وهو المجلس الشرعي أو العلمي المكون من : قاضيين ومفتيين وكاتبين برتبة باش عدل ، وكان يحضر جلساتها القضائية الباشا نفسه ، وفي المجلس كانت تفصل كبريات القضايا وتعقب فيه على أحكام القضاة العاديين ، وتسمع فيه تظلمات المتظلمين من الرعية ، ومن صلاحياته تعيين ناظر الأوقاف وناظر المعارف المشرف على التعليم ، وترسيم المدرسين وينعقد هذا المجلـــس كل يوم خميس بالجامع الأعظم بالعاصمة ، وهو شبيه بديوان المظالم (100) ، وقد ألغي هذا المجلس بقرار من الإدارة الاستعمارية عام 1859م وانحصر القضاء الشرعي بعده في الأحوال الشخصية للمسلمين وتركت شؤون المسلمين الأخرى يحتكم فيها للقانون الوضعي الفرنسي الاستعماري المفروض بالقوة والقمع . (101)

والمتمعن في عدد المؤسسات الدينية الإسلامية الجزائرية ، وعدد الأوقاف المحبوسة لها ، وقيمة الإسلام ومكانة علمائه وفقهائه في الجزائر يستخلص ما يلي :

1 – موقع ومكانة المؤسسات الدينية المرموقة في الجزائر .

2 – أهمية وضخامة الموارد المالية والملكيات العقارية المختلفة التي تدعمها .

3 – احترام الفرد والمجتمع الجزائري لمؤسساته الدينية ولرجالها .

4 – حرص المؤسسات الدينية على ضمان التواصل التاريخي للشعب الجزائري العربي المســـلم .

5 –ضمان هذه المؤسسات تحقيق انتماء الفرد والمجتمع الجزائري إلى وسطه الطبيعي العربي الإسلامي

6 – دور هذه المؤسسات في الاضطلاع بمهامها الدينية والتربوية والتعليمية والتثقيفية ..

هذه المؤسسات الدينية التي ستجد نفسها غير محمية وغير محترمة بمعاهدة الداي حسين ودوبورمون بالرغم من تضمن المعاهدة لبنود تضمن احترامها .

* وضع المؤسسات الدينية أثناء الاحتلال :

اطمأن الجزائريون – وهم يوقعون المعاهدة – إلى شرف فرنسا وشرف ملكها وشرف القائد الأعلى للجيش الفرنسي الماريشال دوبورمون وهو يوقع معهم على معاهدة 1830/07/05م، التي تتضمن مبادىء تحترم العقيدة وحرية العبادة وحرمة الدين الإسلامي وحرية الأهالي الدينية والعقدية والاجتماعية، والتي ستحترم أعراضهم وشرفهم وممتلكاتهم . (102)

ومهما تكن نية الجزائريين في كراهية الأتراك ، وحب التخلص من جبروتهم وحكمهم القاسي ، ومهما تكن سذاجتهم وهم يقبلون على قراءة بيان الاحتلال الأول المكتوب باللغة العربية الموزع عليهم، والذي يشرح ويوضح صدق نوايا فرنسا تجاههم كمظلومين واقعين تحت سلطة الأتراك ، ومهما يكن مستوى الوعي الذي كانوا عليه يومها وهم يضغطون – عبر أعيانهم – على الداي حسين ليسلم المدينة إلى الفرنسيين، فإنهم لم يكونوا يدركون مدى المؤامرة الصليبية الحاقدة التي كانت تنتظرهم والمصير المظلم الذي كان قدرهم وقدر مؤسساتهم الدينية الإسلامية ، التي كانت لقرون طويلة تعبىء المسلمين لجهاد المسيحية في شمال البحر الأبيض المتوسط عبر حملات الجهاد التي أقلقت أوربا قرونا ثلاثة من الصراع الصليبي الإسلامي فإن شرف فرنسا والثورة الفرنسية بشعاراتها البراقة (حرية . عدالة . مساواة) وشرف ملكها هو الذي طمأنهم لقبول التواجد العسكري الفرنسي في عاصمتهم ، لاسيما وأن قائد الحملة قد تعهد بالشرف الفرنسي وبالشرف الملكي وبشرفه هو بحفظ واحترام : الحقوق والحريات والدين والممتلكات والأعراض ، وغيرها من الحقوق والحريات الأساسية للجزائريين .. (103)

وسرعان انكشف كذب العهد والشرف الفرنسي مع أول مرسوم استكباري يصدره قائد الحملة الفرنسية دوبورمون يوم 1830/09/08م، وبعد شهرين من الاحتلال فقط ، القاضي بمصادرة كل الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها ، ليعقبه في اليوم الموالي 1830/09/09م أيضا قرار حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير والكراء والاستعمال

، على اعتبار أن الحكومة الفرنسية قد حلت محل الحكومة العثمانية والجزائرية في إدارة الأوقاف ، وإنها بموجب القرارين ستصبح هي المسؤولة والمخولة بالتصرف في ريوعها و مداخيلها ، وكذلك في توزيعها على المستحقين لها في الجزائر، ومنذ استصدار هذين القرارين الجائرين يكون دوبورمون قد أطلق يد المسيحية والاستعمار لقتل الإسلام والإجهاز على مؤسساته ورجاله وأمواله .. التي بلغت قرابة الأربعين مليونا من الفرنكات الذهبية . (104)

وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي وتذكر الباحثة خديجة بقطاش أن الجنرال كلوزيل كان قد أصدر قرارا تعسفيا آخر يوم 1830/09/08م استهدف به حجز أملاك العثمانيين التي تشكل أملاك الداي والبايات وجنود الإنكشارية التركية، كما تضمن القرار حجز أوقاف مكة والمدينة ، ثم تراجع عنه تحت نصائح المستشارين واحتجاج علماء وشيوخ وأعيان مدينة الجزائر .

ولكنه بعد ثلاثة أشهر من تراجعه أصدر قرارا آخر يوم 1830/12/07م ضم بموجبه كل الأملاك الدينية الجزائرية إلى مصلحة أملاك الدولة ، وتشمل تلك الأملاك أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا (105) ، وقد تضمن القرار ثمان مواد فيها إلغاء أوقاف الحرمين الشريفين بدعوى أن مداخيلها تنفق على الأجانب ممن هم خارج البلاد وهم من غير الأهالي ، وبذلك يكون قد بدأ تدريجيا بانتزاع جميع أحباس الحرمين الشريفين بالتدريج . (106)

وفي عهدة كلوزيل الثانية أتبع مرسومه الأول بمرسوم آخر نشر يوم 1838/10/31م يؤكد فيه ما جاء في سابقه ، بالإضافة إلى إطلاق يد السلطة الحاكمة التصرف في الأوقاف الإسلامية تفعل بها ما تشاء(107) ثم جاء المرسوم الملكي المؤرخ يوم 1839/08/21م بإثبات جميع القرارات الصادرة عن إدارة قيادة الحملة الفرنسية في الجزائر بخصوص الأوقاف وتصحيحها ليعقبه قرار وزير الحربية الفرنسي يوم

1843/03/23م القاضي بتحويل مصاريف ومداخيل المؤسسات الدينية إلى مصالح الدولة الفرنسية (108) .

ثم توالت بعد ذلك اللوائح والمنشورات التي تتناول تحويل واغتصاب أموال الأوقاف الإسلامية ، إلى أن حلت سنة 1847م التي أبعد فيها الشيخان الفقيهان : (مصطفى بن الكبابطي المالكي) و(محمد العنابي الحنفي) ، ونفيا إلى المشرق العربي وادعت بعدها الحكومة الاستعمارية ضياع عهود وصكوك الأوقاف الإسلامية الجزائرية ، وبذلك ضاعت الأوقاف الإسلامية بضياع عهدها ووثائقها وصكوكها الإثباتية . (109)

ثم تطاولت الإدارة الاستعمارية متمادية في محاولة منها لضم سائر الجزائريين وإلحاقهم بفرنسا الحاقا تاما بموجب دستورها الجديد الصادر يوم 1848/11/04م وليصبح المسلم الجزائري بمواده القانونية فرنسيا أهليا تابعا (110) ، متعدية على حقوق المسلمين الجزائريين لا في حق الهوية والإنتماء فحسب ، وفي حق التحاكم إلى المحاكم الشرعية الإسلامية ، بل في وجوب الالتجاء إلى التحاكم للمحاكم الفرنسية الاستعمارية التي تحكم بالقوانين الوضعية .

فبدأت بإصدار القانون الصادر يوم 1859/12/21م الذي يفصل إقليم بلاد القبائل الكبرى عن سائر البلاد الجزائرية في مسألة التحاكم إلى القوانين الوضعية وإلى العرف المحلي والعادات والتقاليد ، ملغية بذلك – بصفة تدريجية – سلطة القضاء الشرعي وسلطة القضاة المسلمين الشاملة في بلاد القبائل (111) .

ولتلغي بالقانون الصادر يوم 1874/12/29م سلطة بعض القضاة المسلمين الذين عينتهم للقضاء الإسلامي الشرعي في بلاد القبائل ، وفي نفس العام تمادت الإدارة الاستعمارية فألغت بقرار عام 1859م المجلس الشريف للافتاء ، وليبقى القضاء الشرعي مقتصرا على الأحوال الشخصية الإسلامية ، وتحويل ما عداه إلى المحكام الفرنسية العليا . (112)

وقد نسفت الجمهورية الفرنسية الثالثة القضاء الشرعي الإسلامي نسفا تاما وذلك بإصدارها قانون 1873/07/26م الذي يترع من القضاة المسلمين حق النظر في مسائل الملكية والاستحقاق، وكذلك بالقانون الصادر يوم 1874/12/28 الذي تم بموجبه استبدال حكم الشرع الإسلامي بنظام الجماعة الأهلية في بلاد القبائل خاصة وفي الجزائر عامة . (113)

ثم ضيقت الأمر على المسلمين شيئا فشيئا إلى حين استصدار قانون 1889/04/17م الذي يجعل من قاضي الصلح الفرنسي الحاكم في القضايا العامة بين المسلمين الجزائريين ، بعد أن كان موكولا للقضاة المسلمين الشرعيين الذي دعمه قرار 1889/06/07 الذي يجرد تدريجيا ومرحليا القضاة المسلمين من كل الصلاحيات المخولة لهم شرعيا واجتماعيا إلا من صلاحية الإشراف على الأحوال الشخصية الإسلامية للمسلمين ، الذي سينقحه ويضبطه قرار 1892/05/25م المنظم للقضاء الشرعي الإسلامي ، ويجرده من كل سلطة شرعية ، ولينحصر القضاء الإسلامي به في أضيق الحدود، وليصبح به القاضي المسلم أيضا ينظر إلا في الأنكحة والمواريث وتنفيذ أحكام الصلح فقط . (114)

وبعد أن دجن الإسلام ومؤسساته وحولت عن مهامها الشرعية أصدرت الإدارة الاستعمارية قانون 1905/12/09م الخاص بفصل الدين عن الدولة ، الذي نفذ بقرار 1907/09/27م في الجزائر، والذي يجعل من المساجد والمعاهد الدينية وأوقافها ملكا للدولة الفرنسية الاستعمارية ، وبه أصبحت الحكومة – ظاهريا – لا تتدخل مباشرة في أمورالدين وأوكلت أمره للجمعيات الدينية التي يمكن للمسلمين أن يؤلفوها فيما بينهم ، وتعترف الدولة بهم للإشراف وتسيير شؤون تلك الأوقاف والمساجد والمعاهد . (115)

ثم تمادت الإدارة الاستعمارية في تدجين المؤسسات الدينية لتقلل من سلطتها على الشعب لكونها القائمة على تزويد القطاع الديني بالإطارات الدينية المتفقهة في العلوم الشرعية الإسلامية ولتسحب منها هذه المزية الأخرى ، منشئة بقرارها الصادر يوم

1850/09/30م المدارس الإسلامية الفرنسية المختلطة الثلاث (الفرنكوميزيلمون) في تلمسان وقسنطينة والمدية، لتتولى بنفسها تكوين الإطارات الدينية الإسلامية المدجنة – حسب النمط الذي تريده الإدارة الاستعمارية له ، لينكفيء على العبادات وليمتليء بالخرافات والأباطيل .. – بهدف حرمان هذه المؤسسات الدينية العتيدة من لعب دورها المنوط بها شرعيا وحضاريا، وقيادة جموع المسلمين لاتباع دينهم ، والاهتداء بكتاب ربهم، والعمل بسنة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام . ولتمنح لهذه المدارس الثلاث مكانة وحق وقدسية وشرف المساجد والجوامع والمعاهد الإسلامية العليا .

واستمرت حالات الهيمنة والتدخل الاستعماري في شؤون الإسلام والمسلمين حتى بعد صدور قانون 1905م القاضي بفصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية إلى أن جاء قرار (شوطان – CHATAN) الكاتب العام لولاية الجزائر المؤرخ يوم 1933/02/16 الذي يمنع الوعظ والإرشاد في المساجد والجوامع لغير العلماء المعينين من قبل الإدارة الفرنسية ، ويجعله حكرا على الأئمة الرسميين فقط . (116)

وظلت قبضة الإدارة الاستعمارية متحكمة في شؤون الإسلام والمسلمين باتباعها لسياسة قمعية متمثلة في الاجراءات الزجرية التالية :

1 – الاستيلاء على المساجد عنوة وحرمانها من منابع قوتها المتمثلة في الأوقاف الإسلامية .

2 – إغلاق المدارس والمعاهد الدينية الإسلامية التي كانت قائمة في الجزائرقبيل الاحتلال دون تعويض المسلمين الجزائريين بمثيلاتها .

3 – اضطهاد العلماء وتشريدهم والتضييق عليهم بسبب مواقفهم وآرائهم التنويرية في المجتمع .

4 – إفقار الجزائر والجزائريين بمنابعهم الثقافية الأصيلة العربية الإسلامية .

5 – محاربة اللغة العربية والتعليم العربي الإسلامي الحر والتضييق على تدريسها، واعتبار العربية لغة أجنبية بموجب قانون الاستذلالي الفرنسي الصادر يوم 1938/03/08م .

6 – فتح أبواب الجزائر على مصراعيها للمبشرين المسيحيين من كافة المذاهب المسيحية بقصد تنصير الجزائريين وتمسيح الجزائر .

7 – التركيز على الفتاة الجزائرية المسلمة لمسخها وتشويهها ، وتشكيل عقلها ووجدانها المتأغرب تمهيدا لأغربة الأسرة الجزائرية وإبعادها عن منابعها العربية الإسلامية الأصيلة .

8 – فصل بلاد القبائل الكبرى واعتبارها مقاطعة مفصولة عن الجزائر، وذلك بتشجيع كل عوامل الفرقة المتمثلة في إبعاد الإسلام والدعاة والوعاظ والأئمة المسلمين منها ، وإحياء اللسان الأمازيغي فيها ، واعتباره لهجة وطنية إلى جانب اللغة العربية ، لبث عوامل الفرقة بين المسلمين الجزائريين .

9 – السيطرة على كل المرافق الحيـــاتية : الاجتماعية والتربوية والفنية والأدبية والإعلامية والعلمية .. وذلك لطبع الجزائري بالطابع الفرنسي .

ولم تحل سنة 1927م حتى بقي في مدينة الجزائر أربعة مساجد جامعة وأربعة مصليات وخمسة أضرحة (117) ، وانتهى أمر المؤسسات الدينية الإسلامية وأوقافها ورجالها .

وفي ظل هذه الأوضاع الدينية المتردية قام العلماء والمصلحون بالدعوة إلى الله تعالى فأحيوا الإسلام الميت ، وبعثوه حيا بإذن الله بعدما كاد يقبر في الجزائر على يد فرنسا الصليبية .

* واقع التبشير المسيحي في الجزائر :

غدت الجزائر – ابتداء من يوم سقوطها – مسرحا رحبا للجنود والقادة الذين حضروا بمعية قائدهم الكونت دوبورمون إلى القصبة بغية إقامة قداس ديني بمناسبة انتصار المسيحية العظيم على الإسلام، وقد خطب الكونت دوبورمون – بمعية القساوسة والرهبان

الستة عشر الذين رافقوا الحملة الغازية وباركوها - فيه قائلا : ((.. لقد أعدتم معنا فتح باب المسيحية لأفريقيا ، ونتمنى في القريب أن نعيد الحضارة التي انطفأت فيها منذ زمن طويل ..)). (118)

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه دو برمون يقيم قداسه في قصبة الجزائر كان الملك (شارل العاشر) يشهد قداسا معظما في كنيسة < نوتردام دي باري > يحمد الرب فيه على انتصاره على الأعداء ، كما أقيمت يوم 1830/07/21م صلاة معظمة أخرى في الكنيسة الملكية بالقصر الملكي للقديس لويس التاسع بشأن هذا الانتصار المسيحي العظيم . (119)

ولم يكد يمر عام واحد على احتلال مدينة الجزائر حتى قررت قيادة الحملة الاستعمارية تمسيح جامع كتشاوة وتحويله إلى كنيسة ، وفي يوم 1831/12/17م حاصرت قوات الجنرال < دو روفيقو> جامع كتشاوة الذي تحصن فيه آلاف الأشخاص للدفاع عنه ، ولكن الجيش تلقى الأوامر بكسر الأبواب وإطلاق النارعلى المصلين ، فتدفق السكان المعتصمون بالمسجد خارجه مابين قتيل وجريح ومغمى عليه .. ثم أغلق المسجد إلى غاية إتمام الأشغال فيه لتحويله إلى كاتدرائية كبرى ، وقد اختار القس < كولان > يوم 1832/12/24م بمناسبة عيد ميلاد المسيح لتمسيحه وتحويله إلى كاتدرائية تحمل لقب < الملك لوي فيليب > الذي بارك هذا العمل المسيحي العظيم ، وبعث هو وزوجته والبابا بالهدايا الثمينة للكاتدرائية الجديدة .

وقد عبر الجنرال دوروفيقو بهذه المناسبة المسيحية العظيمة إلى وزير الحربية الفرنسي قائلا : ((.. إني فخور بهذه النتائج ، فلأول مرة تثبت الكنيسة في بلاد البربر..)) . (120)

وما بين سنتي 1830-1832م تم تحويل حوالي اثنين وثلاثين مسجدا وجامعا إلى خدمات المصالح الإدارية والمرفقية الاستعمارية ، وتحطيم خمسة مساجد في الجزائر العاصمة وحدها (121) ، واستمرت الاجراءات الاستئصالية الفرنسية ضد الدين الإسلامي ، مركزة على مؤسساته الدينية إلى أن اتفق البابا < غريغوار > والملك لوي فيليب على تأسيس الأسقفية المسيحية الأولى بأرض أفريقيا في الجزائر يوم 1838/08/18م ، وتعيين السيد < أنطوان دييش > أول أسقف لها في أفريقيا كلها . (122)

وبعد فتح قسنطينة قام قادة الحملة الاستعمارية بتحويل جامعها الكبير إلى كنيسة ، وقد ألقى فيه سكرتير الجنرال < بيجو > خطابا جاء فيها على الخصوص : ((.. إن أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك - بأي حال من الأحوال - أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد . أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين)) . (123)

وقد تطورت ونمت حركة التبشير المسيحي في الجزائر باتخاذ الإدارة الاستعمارية العديد من الاجراءات والتدابير التبشيرية ، التي من أهمها :

1 - حرص رجال الدين المسيحي الشديد على التبشير بدينهم والتعريف به واكتساب المدعوين إليه .

2 - بذل كل المجهودات اللازمة لإيصال الحركة التبشيرية إلى أقصى حد ممكن.

3 - التركيز على الفئات المعدمة والمسحوقة اجتماعيا واقتصاديا ، واستغلال ظروفها السيئة .

4 - إتقان المبشرين اللغة العربية واللهجة العامية الجزائرية والأمازيغية معا .

5 - الفهم العميق لثوابت ومتغيرات الفرد الجزائري ، ومواطن القوة والضعف في عقله ونفسيته وروحه وثقافته وعاداته وتقاليده الاجتماعية ..

6 – خلق الفرص اللازمة لاستمرار فاعلية عملية التبشير ، والسعي في توفير الجو المناسب لها .

7 – التركيز على الأطفال ولاسيما اليتامى منهم ، وعلى النساء ولاسيما الأرامل منهن .

8 – استغلال المجال الصحي : (تمريض . تطبيب . توزيع أدوية) ، والمجال التربوي : (تربية . تعليم) ، والاجتماعي : (توزيع الصدقات والإعانات. والمساعدات .إنشاء الجمعيات)، والبيئي : (الحفاظ على الطبيعة الرفق بالحيوان..) ، والإنساني : (إظهار التعاطف مع الأهالي المضطهدين ..) وخاصة لدى الفئات المراد تبشيرها بغرض ضمها إلى الدين المسيحي .

9 – استغلال جهل الأهالي بدينهم وفهمهم السطحي له ولاسيما الفئات المسحوقة الأمية ، التي شاع بينها الإسلام الخرافي الطرقي الذي يقوم على فهومات باطلة ومخالفة لمعتقدات الإسلام .

10– مساعدة إدارة الاحتلال لحركة التبشير ومدها بكافة المساعدات والوسائل المادية والمعنوية . (124)

وبتشجيع من الأميرال < دوغيدول > تأسست المراكز التبشيرية الأولى في بلاد القبائل عام 1873م عقب هزيمة ثورة الرحمانية ، وهذه المراكز هي :

1 – مركز تغمونت عزوز في بني عيسى سنة 1873م ، ويشرف عليه أربعة مبشرين .

2 – مركز توريت عبد الله في آيت واضو سنة 1873م ، وبه ثلاثة مبشرين .

3 – مركز خراطة في بني اسماعيل سنة 1874م ، وبه أربعة مبشرين .

4 – مركز ورزان في بني منقلات سنة 1876م ، وبه خمسة مبشرين .

5 – مركز إيغيل علي في بني عباس سنة 1879م ، وبه خمسة مبشرين . (125)

وقد كثف القساوسة والمنصرون في بلاد القبائل الكبرى نشاطهم بهدف معرفة نوعية رجالهم، واكتشاف مدى تجاوبهم واستعدادهم لاعتناق المسيحية، وقد بدأ القس (كتريزات) أحد أعضاء الجمعية اليسوعية وأكثرهم نشاطا في التقرب من الفلاحين من

دون حرج وكان يدعوهم لمترله للتعرف وللصداقة، ولدى مغادرقم مترله يزودهم ببعض المواد الغذائية ، وأحيانا يزودهم بالنقود لاســتدراجهم وتعويدهم على القيام بزيارته ثانية وثالثة .. مع أنه كان لا يحدثهم في أمور الدين أبدا . (126)

وقد ظهر التواطؤ بين رجال الاستعمار السياسي والعسكري من جهة ورجال الحركة التنصيرية التبشيرية المسيحية من جهة أخرى ، فيما يلي :

1 – إن للتبشير علاقة بالاستعمار ، فأغلب المبشرين يرون أن نجاح التبشير متوقف على مدى نجاح مد حركة الاستعمار، وهدف الاحتلال في نظرهم هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمرين .

2 – دور رجال الدين المسيحي في التحضير لإنجاح الحملة الفرنسية على الجزائر .

3 – دهاء ومكر المبشرين على بث الفرقة والنعرات الطائفية بين السكان الجزائريين .

4 – فتح النشاط التبشيري في الجزائر الباب على مصراعيه للتبشير في القارة الأفريقية كلها . (127)

وقد لمعت أسماء الكثير من القساوسة في حقل التبشير المسيحي وعلى رأسها الكاردينال الشهير < لافيجيري > الذي عمل جاهدا في الحركة التبشيرية ، وكان له الفضل في تأسيس فرقة الآباء البيض في شهر فيفري 1869م التي كان لها الدور الأكبر في تمسيح من تمسح من الأهالي . (128)

وهو الذي وقف يوم الإعلان الرسمي لتأسيس فرقة الآباء البيض خطيبا ، حيث قال : ((.. يجب أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا للأمة الفرنسية المسيحية وينبغي أن ننشر حولنا الأضواء الحقيقية للحضارة المستمدة من الإنجيل ، وأن نحملها إلى الصحراء وإلى العالم الإفريقي الذي يعيش حالة بربرية ، ونعمل على ربط وسط أفريقيا بشمالها..)).(129)

وما هو إلا قرن من الاحتلال حتى كان عدد الكنائس المسيحية في الجزائر في بداية الأربعينيات حوالي 327 كنيسة للمسيحيين ، و45 معبدا لليهود ، و166 مسجدا فقط للمسلمين الجزائريين ، الذين كان تعدادهم حوالي ستة ملايين نسمة . (130)

وهكذا تغيب شمس الإسلام عن الجزائر حتى قيض الله لدينه ولدعوته رجال يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين كان منهم ابن باديس والابراهيمي والعقبي والعربي التبسي والمدني والميلي ودبوز والجيلالي .. ، وغيرهم الكثيرين ممن أخلصوا العمل والنية لله تعالى ، وهم الذين أحيوا مجد الإسلام وأعادوا له شمسه الغائبة من سماء الجزائر .

*الخاتمة :

ومن خلال هذا العرض الوصفي التسجيلي السريع نتبين مقدرة ومعرفة واطلاع المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجيلالي على المصادر والمراجع والوثائق التاريخية اللازمة لبحثه ، فقد تطابقت الكثير من الحقائق التي نقلها عن صورة الاستعمار الفرنسي البشعة مع الكثير من المصادر والمراجع التاريخية العربية والفرنسية التي وازيناها وأثبتناها في وضع مقارن تارة ومؤيد تارة أخرى مع منقولاته وتوثيقاته ، وفضلا عن إضافاته وتحليلاته القيمة والدقيقة في مجال عرضنا هذا .

مع تميز أسلوبه التدويني التاريخي بالسلاسة الأدبية ، والمتعة المبينة والمريحة في القراءة ، ما يُلقي على نفسية القارىء الكثير من الآثار حول بشاعة الحملة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر ، إذ استطاع أن يكشف عن حقيقة الاستعمار الفرنسي القهرية وطبيعته المرعبة ، حتى ليخال للقارىء أن فرنسا ارتكبت جرائم فظيعة تُصنف في خانة الجرائم ضد الإنسانية .

مسرد الإحالات

(1) انظر : وليم شالر، مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816- 1824م. تعريب إسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، دون طبعة .

1982م . وهاينريش فون مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غرب أفريقيا . ترجمة : أبو العيد دودو . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . دون طبعة . 1980م .

(2) انظر : مولاي بالحميسي . الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . دون طبعة . 1981م .

(3) المرجع نفسه . ص 10 . 32...35 . 72 . 160 . 185 . 186 . 187 . 188 .

(4) عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . دون طبعة . دون تاريخ . ج 3 . ص 491 .

(5) عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 491 . 492 .

(6) عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 492 .

(7) أحمد توفيق المدني . مذكرات الحـــاج أحمد الشريف الزهار . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1974م . ص 13 ..

(8) راجع محمد العربي الزبيري . مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1981م . ص 13 .

(9) انظر : عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 187 .. ومابعدها .

(10) المرجع نفسه . ص 40 . 41 .

(11) المرجع نفسه . ص 53 .

(12) مذكرات وليم شالر . ص 263 ... ومابعدها .

(13) المرجع السابق . ص 263 .. ومابعدها .

(14) محمد حسنسن . الاستعمار الفرنسي . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الرابعة . 1986م . ص 77 .

(15) محمد حسنين . الاستعمار الفرنسي . ص 77 .

(16) المرجع نفسه . ص 77 . 78 .

(17) المرجع نفسه . ص 78 .

(18) خديجة بقطاش . الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 - 1871م . دار دحلب . الجزائر. الطبعة الأولى . 1992م . ص 37 . نقلا عن :
GABRIEL ESQER , LA PRISE D ALGER ; PARIS ; 1921 . pp 320 . *

(19) مصطفى الأشرف . الجزائر الأمة والمجتمع . ترجمة : حنفي بن عيسى . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1983م . ص 273 . نقلا عن :
POUJOULAL . VOYAGE EN ALGERIE . ED . 1845 . pp 301 .

(20) لمزيد من لاطلاع على نص البيان الموزع على سكان الجزائر راجع : أبو القاسم سعد الله (دكتور). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . دارالغرب الإسلامي . الطبعة الثالثة . 1990م . ج 1 . ص 271 .. ومابعدها .

(21) أبو القاسم سعد الله . تـــــاريخ الحركة الوطنية الجزائرية . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1992م . ج 1 . ص 28 .. ومابعدها . * عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 378 .. ومابعدها .

(22) المرجع نفسه . ج 3 . ص 390 .. ومابعدها .

(23) لمزيد من التوسع راجع كل من : حمدان خوجة . المرآة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائـــر. الطبعة الأولى . 1974م . ص 203. 204 . ومحمد بن عبد القادر الجزائري . تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر . دار اليقظة العربية . دمشق . الطبعة الثانية . 1964 . ص 22 . وعبد الحميد زوزو . نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830 – 1900م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1984 م . ص 69 . 70 .

(24) لمزيد من الاطلاع راجع : أندريه بريتان . أندري نوشيه . إيف لاكوست . الجزائر بين الماضي والحاضر. ترجمة : رابح اسطنبولي . ومنصف عاشور . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر. الجزائر . الطبعة الأولى . 1984م . ص 233 .

(25) راجع الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 238 ... ومابعدها .

(*) نص المعـــاهـــدة : وقع كل من الجنرال (دو بورمون –DE BOUREMONT DE) قائد العسكرالفرنساوي ، و(حسين باشا) داي الجزائر يـــوم 13/محرم/1245 هـــ . الموافق لــ 1830/07/05 م . معاهدة هذا نصها :

1– كافة القلاع المختصة بمدينة الجزائروأبواب المدينة تسلم للعساكرالفرنساوية في صباح 1830/07/06م علىالساعة العاشرة .

2– يتعهد القائد العمومي الفرنساوي أن يترك للباشا أمواله المختصة به .

3– أن يكون لحضرة الباشا الحرية بأن يتوجه مع عائلته وأمواله إلى المحل الذي يرغبه وفي مدة اقامته في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العمومي الفرنساوي . وأن الباشا وعائلته يكونون تحت حرس مخصوص .

4– أن القائد العمومي يمنح هذه الحماية المعطاة لحضرة الباشا ولكافة قواد العساكر الجزائرية .

5– تعطى الحرية للديانة المحمدية ، وللمكاتب الأهلية ، ولديانتهم ، ولأملاكهم ، ولتجارهم ، ولصنائعهم. وأن لا يعارضوا فـــي ذلك ، وأن نساءهم محفوظات معتبرات .

6– إن مبادلة هـــذه المعاهدة تكون غـــدا على الساعة العاشرة صباحا ، وتدخل العساكر قلعة القصبة ، ويقيمون في قلاع المدينة والشطوط البحرية . انظر : حمدان خوجة . المرآة . ص 203 . 204 . وزوزو . نصوص ووثائق . ص 69 . 70 . وقد نقله الجيلالي أيضا .

(26) انظر :

GABRIEL ESQER . LA PRISE D ALGER ; 1921 ; pp 320
SAINT ARNAUD . LETTRES DE MARECHAL SAINT ARMAUD ; PARIS ;1858 . *

DE MONTAGNAC . LETTRES D UN SOLDAT ; PARIS ; * 1885 .

DE HERISSON . LA CHASSE A L HOMME ; PARIS ; 1836

(27) عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 418 ... وما بعده

(28) عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 4 . ص 256 . 257 .

(29) المرجع نفسه . ج 3 . ص 446 .

(30) المرجع نفسه . ج 4 . ص 257 .

(31) عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 4 . ص 257 .

(32) المرجع نفسه . ج 4 . ص 257 .

(33) أندريه نوشيه وآخرون . الجزائر بين الماضي والحاضر . مرجع سابق . ص 238 . 239

(34) أندريه نوشيه . وآخرون . الجزائر بين الماضي والحاضر . مرجع سابق . ص 238 . 239 .

(35) تاريخ الجزائر العام . ج 4 . ص 261 .

(36) تاريخ الجزائر العام . ج 4 . ص 255 .

(37) خديجة بقطاش . الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871 . دار دحلب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1992م . ص 20. نقلا عن :

GABRIEL ESQER ; LA PRISE D ALGER ; PARIS ; 1921 ; pp * 320 .

(38) خديجة بقطاش . الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر . ص 20 .

(39) المرجع نفسه . ص 21 .

(40) انظر الحوار الذي تم وقت الندوة للاستعداد للحرب ، وقد بدأ الحديث الآغا إبراهيم صهر الداي حسين فقال :

- يجب بناء حصون على شاطئ البحر وتزويدها بمدافع قوية حتى تمنع الفرنسيين مـن النزول إلى الشاطئ فـرد عليه أحمد باي قائلا : إن الفرنسيين يريدون إنهاء هذه الحرب بكل سرعة وارجاع الجيش إلى أوربا ، إنهم من بني الأصفر ذوي الوجوه الشاحبة الذين يصعب عليهم تحمل مناخ هـذه البلاد وعندما نمدد الحرب في الزمن فمعنى ذلك أننا سنحقق النصر لامحالة وسيصيب أعداءنا مـا أصاب جميع الذين نزلـوا هنا ، إن اللـه كـان دائما بجانب المؤمنين على الكافريـن الذين يأتـون لمهاجمة المدينة الموضوعة تحت حمايته ، وهـذه المرة أيضا فإنه لـن يتخلى عنا . انظر : محمد العربي الزبيري . مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الأولى . 1981م . ص 12 . 13 ..

(41) لمزيد من التوسع انظر : تركي رابح . التعليم القومي والشخصية الوطنية . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . الطبعة الثانية . 1981م . ص 74 . بتصرف .

(42) الزبير سيف الإسلام . صفحات من الصراع الجزائري الفرنسي . المؤسسة الوطنية للطباعة . الجزائر . الطبعة الأولى . 1988م . ص 9 . بتصرف .

(43) أحمد توفيق المدني . كتاب الجزائر . ص 231 . بتصرف .

(44) راجع : أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية . ج 1 . قسم 1 . ص 67 .. ومابعدها .

(45) أحمد توفيق المدني . كتاب الجزائر . ص 231 . بتصرف .

(46) برينان وآخرون . الجزائر بين الماضي والحاضر. مرجع سابق . ص 342 . بتصرف . وعبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 4 . ص 13 .ص 291 . 292 . بتصرف .

(47) المدني . كتاب الجزائر . ص 231 . 232 . بتصرف . وعبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 4 . ص 13 .ص 291 . 292 . بتصرف .

(48) الزبير سيف الإسلام . ثورة المقراني . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1985 م . ص 33.

(49) الجيلالي . تاريخ الجزائر. ج 4 . ص 293 . بتصرف .

(50) المدني . كتاب الجزائر . ص 232 . بتصرف .

(51) المرجع نفسه . ص 232 . بتصرف .

(52) أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر. الطبعة . الثانية . 1985م . ج 2 . ص 18 . بتصرف .

(53) الزبير سيف الإسلام . ثورة المقراني . ص 33 . بتصرف .

(54) المرجع نفسه . ص 33 . بتصرف .

(55) المرجع نفسه . ص 33 . وسعد الله . الحركة الوطنية . ج 2 . ص 67 . بتصرف .

(56) الجيلالي . ج 4 . ص 293 . بتصرف .

(57) عبد الرحمن العقون . الكفاح القومي والسياسي 1920-1936م . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1984م . ص 19 . بتصرف .

(58) سعد الله . الحركة الوطنية . ج 2 . ص 63 . بتصرف .

(59) الجيلالي . ج 4 . ص 329 . بتصرف .

(60) ناصر الدين سعيدوني . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1988م . ص 278 . بتصرف . وصلاح العقاد . الجزائر المعاصرة . معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة . الطبعة الأولى . 1963م . ص 18. بت .

(61) أحمد توفيق المدني . كتاب الجزائر . ص 101 . بتصرف .

(62) سعيدوني . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر . ص 278 . وصلاح العقاد . الجزائر المعاصرة . ص 18 .

(63) سعد الله . الحركة الوطنية . ج 2 . ص 449 .

(64) عبد الحميد زوزو . نصوص ووثائق . ص 189 . بتصرف .

(65) انظر : الطاهر أوصديق . ثورة 1871م . ترجمة : جناح مسعود . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1989م . ص 104 .

(66) الطاهر أوصديق . ثورة 1871م . ص 104 .

(67) أحمد توفيق المدني . كتاب الجزائر . ص 303 .. ومابعدها . ترجم الأستاذ أحمد توفيق المدني قانون الردع الزجري ، وضمنه كتابه المذكور آنفا . ص 303 .. سنفرد له فصلا خاصا في هوامش ملحق الآثار .

(68) تركي رابح . ابن باديس رائد التربية والاصلاح في الجزائر . ص 50. بتصرف .

(69) انظر: جمال قنان . قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر . منشورات المتحف الوطني للمجاهد . الجزائر . دون طبعة . 1994م . ص 127 ..

(70) جمال قنان . قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر . ص 134 .

(71) جورج كليمنصو: (1841-1929) سياسي فرنسي شهير تولى رئاسة الوزارة الفرنسية في نهاية الحرب سنة 1917م ، وكان أحد أقطاب معاهدة فرساي بباريس سنة 1919م ومن الموقعين عليها ، كان يدعى بعجوز الاستعمار.

(72) أحمد الخطيب . حزب الشعب الجزائري . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر. الطبعة الأولى . 1986م . ص 67 . 68 .

(73) الجيلالي ، ج 3 ، ص 499 .

(74) الجيلالي ، ج 3 ، ص 500 .

(75) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 484 .

(76) المرجع نفسه . ج 3 . ص 524 . كان سكان العاصمة مقسومون إلى الطبقات الاجتماعية التالية :

1 – الأتراك وكان منهم الحكـــام . 2 – الكراغلـــة وهم الخليط من أب تركي وأم جزائرية . 3 – العرب وهم غالبية السكان . 4 – المتساكنون من اليهود وغيرهم من النازحين إلى الجزائر .

* الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 476 . 477 . 482 . بتصرف .

(77) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 446 .

(78) المرجع نفسه . ج 3 . ص 445 .

(79) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . 498 .

(80) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . 495 . 496 . بتصرف .

(81) المرجع نفسه . ج 3 . ص 497 . بتصرف .

(82) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 497 . بتصرف .

(83) المرجع نفسه . ج 3 . ص 501 . بتصرف .

(84) المرجع نفسه . ج 3 . ص 484 . بتصرف .

(85) تركي رابح . ابن باديس رائد الإصلاح . ص 87 .

(86) أندريه بريتان وآخرون . الجزائر بين الماضي والحاضر. ص 296 .

(87) فرحات عباس . ليل الاستعمار . ص 74 .

(88) عبد الحميد زوزو . نصوص ووثائق . ص 141 . 142 . بتصرف .

(89) انظر : سعد الله . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر . ج 1 . ص 13 .. 42 . وتاريخ الجزائر الثقافي .

(90) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 535 .

(91) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 535 .

(92) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 543 .

(93) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 543 .

(94) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 443 .

(95) المرجع نفسه . ج 3 . ص 537 . 538 .

(209) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 425 . 426 .

(96) خديجة بقطاش . الحركة التبشيرية في الجزائر. نقلا عن محاضر وتقارير اللجنة الإفريقية باريس . 1834 . ص 413 .

(97) المرجع نفسه ، ص 413 ..

(98) خديجة بقطاش . الحركة التبشيرية . ص 24 .. 38 . بتصرف .

(99) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 512 .

(100) المرجع نفسه . ج 3 . ص 512 . 513 .

(101) المرجع نفسه . ج 3 . ص 513 .

(102) راجع : حمدان خوجة . المـــــرآة . ص 203 . 204 .

(103) راجع نص المعاهدة في مقدمة هذا البحث .

(104) حمدان خوجة . المرآة . ص 269 .. 293 . والجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 423 . 424 . بتصرف.

(105) خديجة بقطاش . الحركة التبشيرية . ص 23 .

(106) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 441 .

(107) الجيلالي . تاريخ الجزائر العام . ج 3 . ص 441 . 442 .

(108) المرجع نفسه . ج 3 . ص 442 .

(109) المرجع نفسه . ج 3 .ص 442 .

(110) المدني . كتاب الجزائر . ص 326 .

(111) المرجع نفسه . ص 321 .

(112) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 513 .

(113) الجيلالي . ج 3 .ص 513 . والمدني . كتاب الجزائر . ص 314 .

(114) المرجع نفسه . ص 314 . بتصرف .

(115) المرجع نفسه . ص 349 . بتصرف .

(116) محمد ناصر . الصحف العربية الجزائرية 1847 - 1939م . ص 132 .

(117) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 3 . ص 443 .

(118) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 ... وخديجة بقطاش . الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 - 1871 م . دار دحلب . الجزائر . الطبعة الأولى . 1992 م . ص 20. نقلا عن : GABRIEL ESQER ; LA PRISE D ALGER ; PARIS ; 1921 ; pp 320 .

(119) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 ... والمرجع نفسه . ص 20 .

(120) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 ... وخديجة بقطاش . الحركة التبشيرية . ص 33 . 34 . بتصرف .

(121) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 ... وخديجة بقطاش . الحركة التبشيرية . ص 51 . وعبد الحميد زوزو . نصوص ووثائق .. ص 237 .

(122) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 ... وبقطاش . الحركة التبشيرية . ص 39 . بتصرف .

(123) كوليت فرانسيس جاكسون . الجزائر الثائرة . ترجمة : علوي الشريف وآخرون . دارالهلال . القاهرة . الطبعة الأولى . 1957 م . ص 41 . نقلا عن : تركي رابح . ابن باديس . ص 44 . 45 .

(124) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 ... ومحمد البشير الإبراهيمي . فلسفة الإصلاح الديني . سجل مؤتمر جمعية العلماء . المطبعة الإسلامية الجزائرية . قسنطينة. الطبعة الأولى . 1935 . ص 20 .. وما بعدها بتصرف . وبقطاش . الحركة التبشيرية . ص 169 . 170 . بتصرف .

(125) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 .. والمرجع نفسه . ص 156 .

(126) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 . والطاهر أوصديق . ثورة 1871 م
ترجمة: جناح مسعود . المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.الطبعة الأولى. 1989م.ص 14.
(127) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 .. والمرجع نفسه . ص 163 .
بتصرف .

(128) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 . وبقطاش . ص 128 . نقلا عن:
PAUL LESOURD . LES PERES BLANCS DU CARDINAL
* LAVIGERIE ; PARIS 1925 . PP 64 .

(129) المرجع نفسه . ص 128 . والجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 .
(130) الجيلالي . تاريخ الجزائر . ج 4 . ص 288 . وتركي رابح . ابن باديس . ص 4
بتصرف .



مصادر كتاب ((تاريخ الجزائر العام -ج1،2-)) من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الزيانية للشيخ عبد الرحمن الجيلالي

د. محمد فرقاني

جامعة الأمير عبد القادر – بقسنطينة

1-مقدمة : تعد كتابة تاريخ الجزائر على يد أبنائها في النصف الأول من القرن العشرين محاولة جريئة، ذلك أن الاستعمار حاول بكل ما يملك من قوة فكرية، وسياسية، وعسكرية، ودينية أن يطمس تاريخ هذا البلد الذي زعم أن سكانه من أصول غالية ليذيب روح العناد والمقاومة لديه وبالتالي ينصهر بسهولة ويسر في المجتمع الفرنسي، ولكنه رام المحال من الطلب. ونتيجة لذلك ولد روح العناد لدى المجتمع، وبالخصوص قادة الفكر الذين تصدوا لذلك وبالأخص رواد الإصلاح السياسي والديني أن يبينوا للمجتمع وللمحتل أنه شعب متميز عن الشعب الفرنسي في أصوله وخصائصه والعوامل التي شكلت شخصيته، وحمل رجال كثُر القلم ونزلوا إلى الميدان ينافحون به عن أصالة هذا الشعب، فإذا كانت فرنسا قد وظفت كل ما تملك من علم لخدمة أهدافها الاستعمارية، فلا بد من مقاتلتها بالذي قاتلت به هذا الشعب، فكان ميدان التاريخ أحد ميادين المعركة، فكان محمد بن مبارك الميلي –رحمه الله- الرائد في ذلك فكتب كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث الذي طبع سنة 1350هـ-1930م-»، وفي السنة نفسها صدر «كتاب الجزائر» لأحمد توفيق المدني وكتابات أخرى له، إضافة إلى المقالات المختلفة من العديد من الكتاب التي تناولوا فيها تاريخ الجزائر وأعلامها في المجلات المختلفة التي كانت تصدر في الجزائر قبل الثورة، ثم تلاهم عبد الرحمن الجيلالي بكتابه: «تاريخ الجزائر العام » الذي صدر له بالجزائر سنة 1954 -1955م في طبعته الأولى، وكان في جزئين، ويعد هذا العمل تحديا لفرنسا في هذا الوقت الذي اندلعت فيه الثورة التحريرية، ثم صدرت له الطبعة الثانية بعد الاستقلال ببيروت سنة1965م، في جزأين أيضا، ثم

ظهرت الطبعة الثالثة بالجزائر في أربعة أجزاء سنة 1971م مع تعديلات وإضافات لم تكن في الجزأين من الطبعتين السابقتين. ثم طبع بدار الثقافة ببيروت في طبعة رابعة سنة1400هـ- 1980م في أربع مجلدات ممتازة، وكان رجوعنا إلى هذه الطبعة في استخلاص مصادر الجزأين: الأول والثاني. ثم أعيد طبعه مرات أخرى هو اليوم في الطبعة الثامنة في خمسة أجزاء.

أما الدواعي التي أدت بي إلى الكتابة عن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي—رحمه الله- فكان بطلب من الصديق الكريم الأستاذ الدكتور إسماعيل سامعي نائب رئيس جامعة الأمير عبد القادر بالمساهمة بمقال في تخصصي وهو التاريخ عن هذا الفقيه المفتي والمؤرخ والأديب بمناسبة عزم الجامعة على عقد ندوة حول مآثر الشيخ ومنجزاته في مختلف فنون المعرفة التي كتب عنا، وعزمها على إصدار ذلك في كتاب تذكاري خاص به، وكذا بمناسبة تخرج الدفعة الرابعة والعشرين التي تحمل اسمه، لبثت فترة أقلب النظر وأبحث عن شيء يمكن الحديث به عن هذه الشخصية تركت بصمتها في أمة الجزائر، كيف لا يكون ذلك منه وهو سليل نسب شريف يعود إلى الولي الزاهد الصالح عبد القادر الجيلاني - 470-561هـ- دفين بغداد سليل الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء بنت الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- إذا تكلموا صدقوا وإذا عملوا أخلصوا في عملهم لله خاصة في خدمة الدين والدعوة إليه والمنافحة دونه.

ولكن بعد التردد استقر رأيي على معرفة المصادر التي اعتمد عليها في كتابة كتابه" تاريخ الجزائر العام في طبعته الرابعة "، ولكن لما تتبعت مصادره بعناية أذهلتني كثرتها وتنوع مجالاتها المعرفية، فتعقبتها في الأجزاء الأربعة في الهوامش والمتون وكان ذلك صعب للغاية، ذلك أن الشيخ —رحمه الله- كان في أحيان كثيرة يوثق للمصدر والمرجع في متن النص، ولما كان ذلك من الصعوبة بمكان نظرا لضيق الفترة الزمنية التي أعلمت فيها عن هذا الأمر استقر رأيي في الأخير على حصر مصادر الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الزيانية سنة 962هـ- 1554م وتشمل القسم الأكبر من الجزء الأول

والجزء الثاني بكامله الذي ينتهي بسقوط الدولة المذكورة. فقمت بجمعها بالطريقة التي كتبها بها الشيخ –رحمه الله– دون أن أعدل من ذلك شيئا حفاظا على منهجه في توثيق معلوماته. فإذا هي كثيرة جدا في هذين الجزئين فكيف ببقية الأجزاء، فكان مجموع المصادر المطبوعة فقط مما عرفته ووقع تحت يدي مائة وستة وعشرون(126) مصدرا، وسبعة(7) مصادر مطبوعة معروفة المؤلف غير معروفة العنوان، أما عدد المصادر المخطوطة فتبلغ ثمانية عشر (18)مخطوطا عدا تلك التي نقل منها ولم يذكرها، فيكون مجموع مصادره: مائة وواحد وخمسون(151) مصدرا.

أما عدد مراجعه العربية والمعربة التي أمكننا معرفتها بعد أن نص عليها في الجزئين فعددها:تسعة وأربعون(49) مرجعا.

أما المراجع باللغة الفرنسية فتقدر: باثني عشر(12) مرجعا، وباللغة الانكليزية ثلاثة(3)مراجع

أما المجلات فأربعة(4).

ومما سبق ذكره يكون مجموع مصادره ومراجعه في الفترة الممتدة من الفتح إلى سقوط الدولة الزيانية مائتان وتسعة عشر(219) مصدرا ومرجعا غير تلك التي عاد إليها ونقل منها ولم يشر إليها لأنني وجدت نصوصا تدل على ذلك، ولكن المصادر التي كان قد رجع إليها أكثر فيأتي في مقدمتها:

تاريخ ابن خلدون الذي نقل منه اثنان وسبعون(72) مرة غير تلك التي يوثق لها، ثم مقدمته التي نقل منها تسعة وعشرون(29) مرة، ثم وفيات الأعيان لابن خلكان ثلاثة عشر(13) مرة، وصبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي اثنا عشر(12) مرة، ثم نزهة المشتاق للإدريسي أحد عشر(11) مرة ، والمقدار نفسه من المسالك للبكري، ومن بغية الرواد لحيي بن خلدون عشر(10) مرات، ومن نفح الطيب للمقري تسع(9) مرات، والمقدار نفسه من الضوء اللامع للسخاوي، ومن خطط المقريزي ثمانية(8) مرات...إلخ

والمتأمل في قائمة المصادر خاصة يجدها متنوعة، منها التاريخية والجغرافية والخاصة بتراجم الأعلام، والفرق والمذاهب والتيارات الفكرية ؛ والتصوف، والتفسير، والفقه والأدب واللغة، والحديث، فكيف لا تكون كذلك وهو الفقيه والمفتي والأديب والمؤرخ، بل أن بعض المؤرخين المعاصرين ممن كتبوا في تاريخ الجزائر لم يعودوا إلى المصادر التي رجع إليها، وإن كانوا عادوا إلى غير ما لم يعد إليه.

وللإشارة فإن الشيخ –رحمه الله- كان قد أورد قائمة بالمصادر والمراجع التي نقل منها في أول الجزء الأول، ص9-10 وعددها واحد وستون ما بين مصدر ومرجع ، وأحد عشر مرجعا باللغة الفرنسية مرتبا إياها على العناوين ترتيبا ألفبائيا، ذاكرا بعدها اسم المؤلف ومكان الطبع وتاريخ الطبع . وفي نهايتها لاحظ قائلا((وهناك مصادر ومراجع أخرى كثيرة لم يرد ذكرها في صلب الكتاب وهوامشه))، وهو صادق فيما قال.

ولكن عند جمعي لهذه المصادر والمراجع لم أشأ أن أدرج في القائمة التي سيأتي بيانها لاحقا الكثير منها إذا لم أجده قد ذكره إما في المتن أو الهامش، كما أن بعضها لا يتعلق موضوعه بفترة العصر الوسيط الذي شمل القسم الأكبر من الجزء الأول إضافة إلى الثاني بكامله ، لأن الشيخ ذكر القائمة تتعلق بالأجزاء الأربعة، وليس بالجزئين المذكورين فقط.

2-ملاحظات عامة عن توثيق الشيخ-رحمه الله- للمصادر والمراجع المعتمدة في كتابه (الجزئين:الأول، والثاني):

بعد تعقبي لهذه المصادر والمراجع خرجت بجملة من الملاحظات عنها هي:

-إشارة الشيخ إلى اختلاف طبعات المصدر إن رجع إلى أكثر من طبعة ونتيجة لذلك وضعنا خطا تحت المصدر وخط آخر تحت رقم الصفحة إشارة إلى هذه الطبعة إشارة إلى الطبعة المخالفة للأولى. كما أنه كان يكرر الإشارة إلى مكان الطبع والتاريخ قد يكون في المتن وقد يكون في الهامش

-ذكره لعنوان المخطوط واسم مؤلفه، وتارة يذكر العنوان فقط ويشير إلى أنه مخطوط، كما يذكر تارة الورقة التي نقل منها وفي أحيان أخرى يشير إليها بلفظ" ص"، ج2/

-إشارته إلى مكان تواجد المخطوط ورقمه في أحيان أخرى. ص228.

-النقل بالواسطة

-إشارته إلى مصادره أحيانا بعبارة " يذكر المؤرخون، يذكر أهل السير".

-ذكره للمصادر دون ذكر الصفحات، وتارة يذكر المؤلف في المتن دون أن يذكر المصدر ولا يهمش له ولا يوضح هل نقل منه بالواسطة أم مباشرة.

-نقله من بعض المصادر التي نعتقد أنها كانت في زمنه مخطوطة و لم تحقق دون أن ينبه إلى ذلك، مثل إشارته إلى نوازل مازونة عند ترجمته لمحمد ابن مرزوق الحفيد ج2؛ ص214(متن)

-إشارته إلى تعاليق المحققين في هوامش المصادر، مثل: تعليق أحمد يوسف نجاتي في هوامش نفح الطيب ج2، ص201؛ وكذا تعاليق حسين مؤنس على ما جاء في تاريخ التمدن لجرجي زيدان، وكذا إشارته إلى مقدمات المحققين كإشارته إلى مقدمة المهدي البوعبدلي لكتاب للثغر الجماني، ج2/ ص203؛ ومقدمة رياض النفوس....إلخ

-توثيقه من المجلات بذكره لصاحب المقال والعدد وتاريخ صدوره وفي أحيان أخرى لا يشير إلى ذلك، ونتيجة لذلك ولزيادة التوضيح عند ذكره للمجلات ذكرنا سنوات المجلة الإفريقية قبل ذكر رقم الصفحة

- توثيقه لبعض المصادر في المتن لها خاصة عند ترجمته للأعلام .

-اختصاره لعناوين الكثير من المصادر والمخطوطات والمراجع ، وذكره للمصدر بأكثر من عنوان مثل((تاريخ ابن خلدون)) ومرة ((العبر))، وقل مثل ذلك عن كتاب: ((صورة الأرض)) لابن حوقل، وتارة يذكره بعنوان((المسالك والممالك)) وكلاهما صحيحا.

-أنه لا يذكر أحيانا أجزاء المصدر مثل: "الديباج المذهب" لابن فرحون، وبهامشه "نيل الابتهاج" لأحمد بابا التمبكتي إذ هو في جزئين ولعله سهى عن ذلك.

3-عملنا في عرض المصادر والمراجع:

بعد جمعي لهذه المصادر والمراجع تعاملت معها وفق الطريقة الموضحة فيما يلي:

-رتبت المصادر ترتيبا ألفبائيا كما رتبها الشيخ.

-ما وضع بين حاصرتين[ ] مثل عناوين المصادر وأسماء المؤلفين فهو من وضعنا زيادة في التوضيح .

-لم نتدخل في ذكر مكان الطبع ولا تاريخ الطبعات، لأن ذ لك من الصعوبة بمكان، فتركناها على حالها

- تركنا بعض المصادر على حالها كما أوردها الشيخ بعد أن صعب علينا العثور على مؤلفيها، مثل ((جيب الغيب من فتح الرب)).

-ذكرنا الصفحات التي ذكر فيها المصدر أو المرجع، مع ذكر الجزء التي وردت فيه(ج1)، (2) تيسيرا على من أراد التأكد مما ذكرناه.

-أوردنا الأجزاء التي نقل منها الشيخ المعلومة بعد ذكر المصدر والمؤلف.

-وضعنا علامة استفهام (؟) إذا لم نجد مكان وتاريخ الطبع.

-ما أشرنا إليه بحرف "م" يعني أنه ذكر في المتن، وما لم نشر إليه فيعني أنه ذكر في الهامش.

وخلاصة الأمر أن الشيخ كان أمينا في نقله، دقيقا في اختيار نصوصه . مترفعا عن حشر نفسه في تلك الخلافات المذهبية التي تكلم عنها حياديا في ذلك، وقد عهدنا بعض الفقهاء يشايعون مذاهبهم وإن آراؤها تحتاج إلى أخذ ورد، وحقا قد وفى بما ذكره في مقدمة الكتاب في هذ الشأن، مثنيا على جميل الأعمال ومواقف الرجال.

هذا وقد وزعنا هذه المصادر وفق الترتيب الآتي:

1-قائمة بالمصادر المطبوعة

2-قائمة بالمصادر المخطوطة

3- قائمة على المؤلفين

4--قائمة المرجع العربية والمعربة

5-قائمة المراجع باللغة الفرنسية

6-قائمة المراجع باللغة الانكليزية

7-قائمة بالمجلات

1-قائمة المصادر

-أ-

1-آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني [زكريا بن محمد]، ط، بيروت 1960م.
ج2/ 239.

2-أتحاف أهل الزمان[بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان] لأحمد بن أبي الضياف،ج1، ط، تونس 1963م
ج1/186. 245 . 248. 258م.

3-أتحاف ملوك الزمان[بتاريخ الإمبراطور شرلكان لوليام روبرستون]، تعريب: خليفة [أفندي] محمود،ط، بولاق1262هـ-[1845م]،(أنظر تاريخ شارلكان لروبرتسون لاحقا)

4-اتعاظ الحنفاء[بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء] للمقريزي[تقي الدين أحمد بن علي]، ط، القاهرة 1367هـ-1948م.
ج1/ 222. 228. 230. 235. 245.

5-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي[محمد بن أحمد]،ط،الجزائر1950م، ط، ليدن 1877م ج1/175. 258م.

6-إحياء علوم الدين [لأبي حامد الغزالي] ج3.
ج2/ 265.

7-الأخبار السنية[في الحروب الصليبية[لسيد علي الحريري]ط، مصر 1317هـ
ج2/62.

8-أخبار ملوك بني عبيد[وسيرهم لأبي عبد الله محمد بن علي] بن حماد،ط، الجزائر 13

ج1/228. 240.
9-أزهار الرياض [في أخبار عياض لشهاب الدين احمد بن محمد] للمقري، ج3، ط، القاهرة1361 هـ-1942م
ج2/77. 78. 217.
10-الاستبصار [في عجائب الأمصار لمجهول] ط، فينا **1852م-1853**
ج1/ 221. **264. 293.** ج**2/234. 236. 238**
11-الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي،ج**1**،ط دار مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ ج**1/112**.
12-الإمامة والسياسة لابن قتيبة[أبو محمد عبد الله بن مسلم]،ط، القاهرة **1332**هـ= 1904م
13-ج1/ 140. **187**
-ب-
14-بدائع الزهور[في وقائع الدهور لأبي البركات محمد أحمد ابن إياس ج**1**،ط ، بولاق، 1312هـ ج**1/234**
15-البداية والنهاية لابن كثير ج2/ **89**م.
16-البستان [في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان] لمحمد ابن أبي مريم، ط، الجزائر 1326هـ- **1908**م
ج1/312. ج**2**/ 120. 167.
17-بغية الرواد [في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي زكريا]يحي بن خلدون،ج1، 2،ط، الجزائر،**1322**م؛ ط،الجزائر **<u>1329</u>** هـ-**1911**م
ج1/221. ج**2**/ 168. 169. 181. 182. 231. **<u>241</u>**. **243**م. 246. 257م،

18-بغية الوعاة [في ذكر اللغويين والنحاة لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر]للسيوطي، ط، القاهرة 1326هـ ج2/ 218م.
19-بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت راية الاسبان كيني عامر لعبد القادر المشرفي،ط، الجزائر 1924م.ج2/190. 198. 204.
20-البيان المغرب[في أخبار الأندلس والمغرب] لابن عذاري، ج؟ ،ط، ليدن 1881م ج1/ 148. 149. 262

-ت-

21-تاج العروس للزبيدي، ج3؟ ج1/297
22-تاريخ الإسحاقي [أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول محمد عبد المعطي الإسحاقي]،ط، القاهرة 1310هـ. ج1/235
23-تاريخ ابن خلدون(-العبر لابن خلدون) ط ، بولاق 1284هـ، ج1، 2، 3، 4، 6؛ 7 و(ط، بيروت1959م)
ج1/ 115. 129.130. 114. 146. 169. 177. 187. 190 .195. 205. 208. 221. 230. 237. 240. 264. 280. 286. 287. 295. 308. ج2/5. 19م.27. 31. 45. 46. 47. 51. 53.54. 55. 56. 58. 59. 62. 63. 75. 80. 85. 99. 100. 103. 106. 108. 115. 117. 126. 133. 141. 146. 148. 149.
152. 154. 156. 164. 165. 166. 168. 185. 188. 191. 211م.241. 248م. 254. 256. 257. 261. 272.
24-تاريخ الخميس [في أحوال أنفس نفيس لحسين]للديار بكري، ج2، ط، القاهرة 1302هـ.ج1/124
25-تاريخ شارلكان لروبرتسون؟ (أنظر أتحاف ملوك الزمان فيما سبق في أخبار ملوك الزمان) ج2/251..
26-تاريخ الطبري[لمحمد بن جرير]،ط ، القاهرة1939م ج1/153.

27-تاريخ ابن الفرات[محمد بن عبد الرحيم بن الفرات]، ج9،ط، بيروت 1936-1942مج2/ 188.

28-تحفة النظار [في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار]لابن بطوطة، ط، بيروت1379هـ-1960م ج2/79.

29-تحفة الزائن [في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر لمحمد باشا]بن الأمير عبد القادر، ط، الإسكندرية 1903. ج1/308.

30-تذكرة الحفاظ [للحافظ شمس الدين]للذهبي،ج1 ،ط، حيدر آباد من غير تاريخ ج2/ 68.

31-تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم الحفناوي [طبع بمطبعة بيير فونتانة الجزائر 1324 هـ - 1906 م ج2/135.

32-التعريف بابن خلدون[ورحلته شرقًا وغربا لعبد الرحمن بن خلدون]، ط، القاهرة 1370هـ - 1951م ج2/ 115. 191. 261.

33-ترتيب المدارك [و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك]للقاضي عياض[بن موسى السبتي]،ج4،2، ط، فضالة المحمدية، بدون تاريخ، ط. بيروت1965م ج1/187.. 273.

34- الترجمانة الكبرى[في أخبار المعمور براً وبحرا لأبي القاسم بن احمد بن محمد بن علي الزياني]، ط، فضالة المحمدية 1387هـ- 1967م ج1/314.

35-تفسير القرطبي[الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدا لله محمد بن أبي بكر القرطبي]، ج1، ط، القاهرة، 1354هـ -1935م. ج1/180.

36-تقويم البلدان [لعماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر] أبو الفداء ، ط، الجزائر1839م

ج1/276. ج2/233. 240.

37-تمييز الطيب من الخبيث[فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث] لعبد الرحمن بن الديبع الشيباني، ط، القاهرة 1347هـ ج65/2.

-ث-

38-الثغر الجماني[في ابتسام الثغر الوهراني لأحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي] تحقيق المهدي البوعبدلي، ط، قسنطينة 1973م ج2/ 203. 230.

-ج-

39-جامع جوامع الاختصار والتبيان [فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان]لأحمد بن أبي جمعة المغراوي، ط ، الجزائر 1975م ج2/ 75.

40-جمهرة ابن حزم[جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن أحمد]، ط، مصر1948. ج2/ 272.

41-جغرافية الإدريسي طبعة دوزي [ودي خوي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي،ط ليدن 1863م] ج227/1. .

42-[جنى]زهرة الآس [في بناء مدينة فاس] لعلي الجزنائي، ط، الجزائر 1922م ج245/2. 246.

43-جيب الغيب من فتح الرب ؟ ج2/ 275.

- خ -

44-الحلة السيراء[لأبي عبد الله بن محمد عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار]ج2،ط القاهرة 1963م . ج201/1.

45-الحلل الموشية[في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي مجهول [1]]ط، الرباط1936م. ج1/308. 309. 315. ج2/9. 25.

46-الحيوان للجاحظ[أبي عثمان بن بحر]، ج3 ؟. ج1/118.

-خ-

47-خريدة العصر [وجريدة العصر]للعماد الأصفهاني، ط، تونس 1966.ج1/290.

48-خطط المقريزي[المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي]،ج2،1،ط، بولاق1270هـ .

ج1/232. 235. 244. 307. ج2/ 21. 66. 71. 173.

49-ابن خلدون [حياته وتراثه الفكري] لمحمد عبد الله عنان ،ط، القاهرة 1372هـ-1953م. ج2/ 261

-د-

50-الدارس في تاريخ المدارس [لعبد القادر بن محمد] للنعيمي،ج1، ط، دمشق، 1367هـ-1948م. ج2/246. 265.

51-الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية [لأبي بكر بن عبد الله] الدواداري،ط، القاهرة 1961م .ج1/ 214م.

52-[درر] العقود [الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة لتقي الدين]المقريزي ؟.ج2/ 93م.

53-الدرر المنتثرة[في الأحاديث المشتهرة لجلال الدين] السيوطي ، ط، القاهرة 1346هـ. ج2/65.

54-الدليل والبرهان (الدليل لأهل العقول) لأبي يعقوب يوسف الوجلاني، مصر، -طبع حجر- 1306هـ ط، بمصر1306هـ-1888م) 184 ج1/ 112. 317م.

---

(1)-وهناك من نسبه إلى لسان الدين بن الخطيب، وهناك من نسبه إلى :أبي القاسم محمد ابن سماك الذي حقق على يدي: عبد القادر زمامة، وسهيل زكار،طبع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1979

55-الديباج المذهب [في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون [إبراهيم بن نور الدين [ج؟]. ط، القاهرة1329هـ. ج1/ 313. ج77/2.

-ذ-

56-الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير، ط، الكويت1959م.ج206/1. 232. 263.

-ر-

57-رحلة ابن جبير[لأبي الحسن محمد بن أحمد]،ط، مصر1326هـ. ج246/2.

58-رحلة العبدري[لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد]، تحقيق: أحمد بن جدو، ط، قسنطينة بدون تاريخ. ج2/ 118م. 120.

59 رحلة العياشي[ماء الموائد] [لأبي سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر]، ج1، ط ، فاس1316هـ. ج118/1.

60-رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد، ط، بيروت 1970م. ج201/1. 204. 204. 236.

61-رقم الحلل[في نظم الدول]للسان الدين ابن الخطيب، ط، تونس 1916م. ج162/2.

62-الروض الباسم [في حوادث العمر والتراجم]لعبد الباسط بن خليل، ط، باريس1936م . ج241/2. 250.

63-[كتاب]رياض النفوس [في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لأبي بكر عبد الله بن محمد] عبد الله المالكي، ج1، ط، القاهرة 1951-و (أنظر مقدمة حسين مؤنس للكتاب) -ج1/ 157. 159. 163. 201. 211. 308.

-س-

64-سعود المطالع[وسعد المطالع فيما في هذا الاسم الشريف من العلوم والمنافع لعبد الهادي نجا بن رضوان نجا بن محمد الأبياري]،ج1، ط، بولاق 1283هـ. ج215/2

65-سيرة عمر بن عبد العزيز[لعبد الله] ابن عبد الحكم،ط، القاهرة1954م. ج144/1.

66-كتاب السير[أبي العباس أحمد بن عثمان] للشماخي، ط، قسنطينة الجزائر بدون تاريخ. ج1 / 168. 318 .

-ش-

67-شرح البوريني [عبدالغني النابلسى] على ديوان ابن الفارض،ط، مرسيلية 1853م. ج173/2.

68-شرح الزرقاني[أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي] على الموطأ ج1، 3، ط، القاهرة 1310ه ج2/ 68.

-ص-

69-صبح الأعشى] للقلقشندي [في صناعة الإنشا لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن علي ، ج4، 5، 6، 14، ،ط، القاهرة 1383هـ-1963م.

و(ط، الأميرية[بولاق] القاهرة 1913م).

ج205/1هـ. 258م. 308 . ج4/2. 6. 19. 44. 66. 73. 74. 100. 146.

70-صورة الأرض[2] لابن حوقل [أبي القاسم محمد بن علي الموصلي المعروف ب]، ج1، ط، ليدن 1938م. ج152/1. 224.232

-ض-

71-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع [لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن] السخاوي،ط، مصر1353هـ.

---

2 – ويسمى أيضا بـــــ" المسالك والممالك " كم هو مذكور لاحقا في حرف الميم

ج2/ 94. 137. 138م.138. 167. 267م. 269. 270. 278.
72-طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل الأندلسي[أبو داود سليمان بن حسّان]، ط: القاهرة 1955م ج203/1.
73 -طبقات الشافعية[]الكبرى لتاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي]، ط، القاهرة1324هـــ .ج2/ 66

74-طبقات علماء إفريقية لأبي العرب[محمد بن أحمد بن تميم]، ج1، ط، باريس 1915. ج1/ 157. 211.
75-الطبقات [كتاب الطبقات الكبير] لمحمد بن سعد،ج4، ط، ليدن 1904-1917م ج2/ 273.

-ع-
76-عائد الصلة [للسان الدين]ابن الخطيب؟. ج2/ 169.
77-عنوان الدراية[فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية] لأحمد[بن أحمد أبو العبّاس] الغبريني، ط، الجزائر 1338-1910. ج1/ 292. 321م. ج37/2م.72. 77. 81. 92.
78-العواصم من القواصم لابن العربي، ج2، نشر عبد الحميد ابن باديس، ط، قسنطينة 1347هــ- 1928م، <u>1346</u>-<u>1927</u>. ج187/1. 313.
-ف-

79-الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفد[أبو العباس أحمد بن حسن بن علي]، تحقيق: الشادلي النيفر، ط، تونس 1968م. ج2/ 136م.
80-فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم [عبد الرحمن بن عبد الله]، لجنة البيان، ط، القاهرة بدون،

81-فتوح إفريقيا[3] لابن عبد الحكم[عبد الرحمن بن عبد الله]، ط، الجزائر 1942م)
ج1/144.149.
82-الفهرست لابن النديم[محمد بن إسحاق]، ط، القاهرة1348هـ. ج1/187..
83-فهرسة السراج [أبي زكرياء يحيى بن أحمد بن محمد] ؟ ، ج2/ 211م.
-ك-
84-الكامل في التاريخ لعز الدين ابن الأثير، ج1؛ 3، ط، بيروت 1965. و(ط، مصر1903م). ج1/ 116م..118. 130. 153 . 153. 228. 230.
85-كتاب البلدان لليعقوبي[أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح]، ط، ليدن1860، ،و(ط، الجزائر1949م). ج1/157. 165. 167. 169. 170. 188
86-كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني [أبي عبد الله أحمد بن إسحاق] ؟. ج1/ 170
87-كتاب الروضتين[في أخبار الدولتين] لأبي شامة[عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي]،ج2 ؟ ج2/19.
88-كتاب السير للشماخي[أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد]، ط الجزائر قسنطينة، بدون تاريخ. ج1/168.
89-الكشكول[لمحمد بهاء الدين العاملي]، ط، القاهرة 135هـ. ج2/ 70.
-ل-
90-لقطة العجلان[وخبيئة الأكوان لصديق حسن خان]، ط، استانبول1296هـ. ج2/ 66
-م-
91-المؤنس[في أخبار إفريقية و تونس لأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم المعروف] بابن أبي دينار،ط، تونس1350هـ. ج1/118

---
[3] - هو قطعة منتزعة من فتوح مصر والمغرب

92-محاضرات الأدباء[ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب] الأصفهاني، ج2 ؟. ج118/1.

93-مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية لابن خاتمة[أحمد بن علي بن محمد بن علي] ج2/ 169. 171.

94-مروج الذهب للمسعودي[أبو الحسن علي بن الحسين بن علي]، ج1، 2، ط.القاهرة 1367هـ-1948م. ج118/1.

95-مسالك الأبصار[في ممالك الأمصار] لابن فضل الله العمري،ط، تونس؟ . ج2/ 74. 100.

96-المسالك والممالك لعبد الله البكري، ط، الجزائر 1857م و(ط، الجزائر 1911م).
ج1/ 165. 175. 254. 262. 267. 275. 290. ج2/ 237. 238. 239. 247.

97-المسالك والممالك لابن حوقل، ج1، ط، ليدن 1938م، ج267/1.(أنظر صورة الأرض فيما سبق)

98-المسالك والممالك لابن خرداذبة [أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله]، ط، الجزائر 1949م ج183/1.

99-مشيخة الحضرمي؟. ج2/ 138م.

100-معالم الإيمان[في معرفة أهل القيروان لعبدالرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ]، ج1i3، ط، تونس 1320هـ، 1930م.
ج125/1. 137. 141. 222. 290.

101-[كتاب]المعارف لابن قتيبة[أبو محمد عبد الله بن مسلم]، ط، مصر 1353هـ-1934م. ج116/1.

102-المعجب[في تلخيص أخبار المغرب] لعبد الواحد المراكشي، ط، ليدن 1881م.
ج1/ 276. 286. ج8/2.

103-معجم البلدان لياقوت الحموي، ج2؛ 3 ؛ 4؛7، ط، بيروت 1375هـ-1956م-1957م، و (ط، ليبزيج 1866- 1869م).
ج1/ 118. 173 . 240.هـ . 292. ج2/234. 240. 246.
104-معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج6؛ ، ط، مصر1357هـ. ج271/1 م.
ج2/ 265.
105-المغرب[في ذكر بلاد افريقية والمغرب لأبي عبيد] البكري، ط، الجزائر1911م، و(ط، الجزائر 1857). ج1/ 130. 165. 165. 312
106-مفتاح السعادة[ومصباح السيادة في موضوعات العلوم] لطاش كبري زادة، ج2، ط القاهرة 1968م. ج187/1. 259. ج174/2.
107-مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول[لأبي عبد الله محمد بن أحمد التلمساني]، ط، تونس 1346هـ، ط، القاهرة 1963م. ج2/ 211م.
108-مقدمة ابن خلدون، ط، بولاق1274هـ، ط، القاهرة 1355-1936م.
109-مقدمة ابن خلدون، ج3، تحقيق: عبد الواحد وافي، ط، القاهرة 1960م، و (ط، باريس 1858م).
ج115/1. 116. 123. 177. 195. 196. 216. 226. 228. 255. 262. 276. 312. ج6/2. 19.29. 43. 44. 70. 73. 76. 78. 99. 108. 113. 118م 122. 123. 141.
110-مقدمة كتاب المدارك،؟ ط، باليرمو 1910م. ج1/ 229.
111-الملل والنحل للشهرستاني، ج1، ط، مصر 1317هـ. ج2/ 70.71.
112-مناقب الإمام الأعظم لابن البزاز الكردي، ج2، ط، حيدر آباد الدكن[الهند] 1321هـ ج202/1.

113-المنامات للوهراني [محمد بن محرز]، تحقيق: محمد شعلان، ومحمد نغش،ط، مصر1968م، و تحقيق:صلاح الدين المنجد ط، دمشق1384هـ -1965م ج1/319م.
114-[تاريخ] المن بالإمامة [لعبد الملك]ابن صاحب الصلاة، ط، بيروت1383هـ-1964م . ج2/29.
115-مناقب الإمام أبي حنيفة لصدر الدين أبي المؤيد الإمام الموفق بن أحمد المكي، ج2 ط، حيدر آباد الدكن[الهند] 1321.ج1/303.

-ن-

116-النجوم الزاهرة[في ملوك مصر والقاهرة]لأبي المحاسن[جمال الدين يوسف بن تعزي بردي]،ج4، ط، القاهرة 1929م.ج1/234.
117-نحلة اللبيب[بأخبار الرّحلة إلى الحبيب لأبي العباس أحمد بن عمار]،ط، الجزائر 1322هـ-1904م.ج2/217م. ج2/ 251.
118-نزهة المشتاق[في اختراق الآفاق] للشريف الإدريسي، ط، ليدن 1864م.
ج1/176م. 224. 236. 254. 297. ج2/ 16. 232م. 233م. 234م. 235م. 238.
119-نشر المثاني[لأهل القرن الحادي عشر والثاني] للقادري[أبو محمد عبد السلام بن الطيب]؟ ج2/ 135م.
120-نفح الطيب[من غصن الأندلس الرطيب] للمقري [أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد] ، ج1، ط القاهرة1367هـ=1949م، ج5/ ط، دار المأمون بمصر 1355هـ-1938م، ج2، طبع مصر 1936م
ج1/174. 132. ج2/ 138-139م. 143. 201.215. 250. 255.
121-نيل الابتهاج لأحمد بابا التمبكتي[ج؟]، طبع على هامش الديباج، ط ، القاهرة1329هـ ج1/ 312. ج2/ 135م. 138. 274م.

-هـ-

122-الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه [كذا].ط، القاهرة1370هـ-1951م. ج2/ 68.

-و-

123-واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو[موسى الثاني] الزياني، ط، تونس 1279هـ. ج2/ 181.

-الوافي بالوفيات لنصلاح الصفدي [خليل بن أيبك] ؟ ج1/270

124-وفيات الأعيان لابن خلكان[أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد]، ج 2، ط، بولاق، 1299هـ، ج1، ط، القاهرة **1340م.**

ج1/ 140 .234. 235. 240. 245. 248. 308. 319م. ج2/8. 23م. 88م. 136م. 265.

-ي-

125-اليواقيت والجواهر[في بيان عقائد الأكابر] لعبد الوهاب الشعراني،ج1: ط، القاهرة 1305هـ. ج1/312

126-يوسفوس فلافيوس[لعله نقل عنه بالواسطة]؟.ج1/117م.

2-المصادر المخطوطة

1-التحفة المرضية في تاريخ الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لمحمد بن ميمون الجزائري ج2/ 204.

2-جامع الأمهات [في أحكام العبادات]لعبد الرحمن الثعالبي ج2/ 249.

3-جذوة [الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس لا]بن القاضي[أحمد بن محمد المكناسي] ج2/135م.

4-الحاوي[لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى] لأبي راس[محمد بن أحمد بن ناصر الراشدي].ج2/ 148.

5-ديوان أحمد بن أبي القاسم الخلوف.ج2/ 95م.

6-راح الأرواح فيما قاله [المولى]أبو حمو وقيل فيه من الأمداح[وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح] لمحمد بن عبد الله التنسي .ج2/ 181.

7-رحلة محمد الحجوي.ج2/ 228.

8-رحلة الوزان-[وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان].ج2/242.

9-رياض الصالحين لعبد الرحمن الثعالبي؟ج2/ 194.

10-شرح [رجز الحلفاوي لعبد الرحمن]الجامعي لقصيدة الحلفاوي.ج1/191. ج2/ 148 بالواسطة عن الحاوي لأبي راس.

11-العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس[لمحمد بن منصور بن هدية بن علي التلمساني ج2/ 118.

12-[موائد العوائد من] عيون الأخبار للصديقي[محمد صديق حسن خان القنوجي]؟.ج1/118.

13-لوامع الأسرار في منافع القرآن والأخبار لعيسى بن سلامة البكري.ج2/ 273.

14-المسند الصحيح[الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن] لابن مرزوق الخطيب ج2/ 117. 252.

15-المواهب القدسية[في المناقب السنوسيَّة] لأبي عبد الله الملالي[محمد بن عمر بن إبراهيم]ج2/ 273.

16-نظم الدرر والعقيان[في شرف بني زيان] للتنسي [عبد الجليل] . ج2/ 144. 156. 217م. 246.

17 نهاية الأرب[في فنون الأدب] للنويري[شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب]، ج1، ج6 مخطوط بدار الكتب المصرية ج1/118. 130 . 230.

18 -|الدرر المكنونة في]توازل مازونة [لأبي زكريا] ليحي بن إدريس المازوني . ج2/ 214م.

3-مصادر ومراجع مجهولة مرتبة على أسماء أصحابها د[4]

1-ألفاريز قوميز Alvares Gomes؟ ج2/ 257م.

2-البيدق أبو بكر بن علي؟[لعله كتاب: أخبار المهدي ابن تومرت].ج2/ 3.

3-ابن حجر؟.ج2/ 3. 93م.

4-ابن الخطيب [لسان الدين]؟ج2/ 211 م.

5 دو غرامون؟ .ج2/ 205

6-ابن مرزوق[الجد الشهير] الخطيب؟ج2/ 105م.211م.

7-المقريزي؟ج2/219م.

4- قائمة المراجع

1--الأدب المغربي، ج1، ؟ ط، بيروت 1960م.ج1/ 314م.

2---الأزهار الرياضية[لسليمان الباروني] ،ط ، القاهرة دون تاريخ.ج2/240.

3-الإسلام والنصرانية في إفريقيا لبوني موري؟ج2/19م.

4-إفريقيا تحت أضواء جديدة لبادل داقريسيين[دا فيدسن]، ترجمة: جمال م. أحمد، ط، دار الثقافة دون تاريخ.ج2/ 242.

5-أعمال مهرجان ابن خلدون، ط، القاهرة 1962. ج2/ 113.

6-بلاد الجزائر لإبراهيم محمد العدوي" ، ط القاهرة 1970 ج1/ 152. 167 . ج2/ 248.

---

[4]-إذ يتبين لنا أي الكتب رجع إليها فلم نشأ نذكر كتابا بعينه احتياطا للخطإ.

7–تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف شباخ، تعريب: محمد عبد الله عنان، ط. القاهرة1377هـ - 158م. ج2/25.
8–تاريخ التربية الإسلامية لأحمد شلبي ،ط، بيروت 1954م.ج1/230
9–تاريخ التشريع الإسلامي للخضري،ط، القاهرة 1373هـ–1954م.ج1/230
10–تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي،ج1.(الطبعة ا لمعتمد عليها في هذا البحث)ج2/ 70. 98. 247. 253
11–تاريخ الجزائر لمحمد بن مبارك الميلي، ج2، ط،قسنطينة 1350هـ ج1/240.
12–تاريخ التمدن الإسلامي[لجرجي زيدان]، ط، القاهرة 1958م(حسين مؤنس تعالقد في الهامش على تاريخ التمدن، ج1. 3i4i 5) ج1/ 196 204 .260.ج2/ 6.
13–تاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم حسن،ط، القاهرة1958م ج1/207. 230.
14–التاريخ العام لـ: لافيس، ورامبو ؟ج1/205هـ
15–تاريخ فلسفة الإسلام ليحي هويدي،ج1، ط، القاهرة 1965م ج1/ 153 .208.
16–تاريخ المدن الثلاثة[الجزائر. المدية. مليانة] لعبد الرحمن الجيلالي،ط، الجزائر 1972. ج1/314.
17–التبشير والاستعمار في البلاد العربية لمصطفى خالدي وعمر فروخ ، ط، بيروت 1975م ج2/ 64
18–ثورة الجزائر لعلي الشلقاني، ط، القاهرة ؟ ج1/142.
19–حرب الثلاثمائة سنة[بين الجزائر وإسبانيا] لأحمد توفيق المدني، ط، قسنطينة؟. ج2/54.
20–الحضارة العربية لابن سعيد،ط، ؟. ج2/ 72.
21–الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري [لآدم ميتز]،ج2، ط، القاهرة، 1951. ج1/225. 230؛. 232.
22–حضارة العرب لغوستاف لوبون،ط، القاهرة1367 هـ–1948م.

ج1/114. 118. 137م. 138. 140. 149. 234. 292هـ . ج2/28. 102. 246. 253. 246. 253.

23-دائرة المعارف الإسلامية، مادة : بربر، ج8. ج1/140. 301.

24-دائرة المعارف للبستاني، مادة: ساعة؟. ج2/ 246.

25-دراسات عن العصر العباسي الأول، لعبد العزيز الدوري؟ .ج1/ 204م.

26-الدولة العربية الكبرى لمحمود كامل؟. ج1/113. 140

27 الزاوية الدلائية لمحمد حجي، ط، الرباط 1384هـ-1964. ج2/ 228.

28 سر تطور الأمم لغوستاف لوبون،؟.ج2/ 20م.

29 شجرة النور الزكية لابن مخلوف؟ج2/135م.

30 شمس العرب تسطع على الغرب لزيغريد هونكه، ط، بيروت 1964م. ج1/ 204. ج2/ 246.

31 العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر،ط، دار الكتب الحديثة بمصر بدون تاريخ ج1/213.

32-فتح العرب للمغرب لحسين مؤنس،ط، القاهرة1947م.ج1/133م. 143. 146. 152.

33-فجر السكة العربية لعبد الرحمن فهمي محمد، ط، القاهرة 1965م.ج1/ 234.

34-الفن الإسلامي في إسبانيا،ط، القاهرة1968م.ج1/296.

35-الفنون الإسلامية ،ط، دار المعارف –مصر-ن

36- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ج1 لحسن الباشا، ط، القاهرة 1965 ج1/ 314. ج2/ 252. 253.

37-قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجي،ج1، القاهرة 1955م.ج1/ 138.

38-قصة الحضارة،[الـــــــ: ويل ديورانت] ج1، 2، ط، القاهرة 1956م.ج1/ 114.140.

39-كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني،طن الجزائر 1350هـ.ج1/ 10، أهم. م

40-مالك وعصره لمحمد أبي زهرة ، ط، القاهرة 1963.ج2/ 113.

41-ما يقال عن الإسلام لعباس محمود العقاد،ط، القاهرة 1966م.ج2/ 257.

42-محاضرات المجمع العلمي العربي،ج2،ط. دمشق 1373-هـ 1954م.ج113/1.

43-مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي، تعريب رياض رأفت القاهرة، 1938م.ج113/1.

45-المسلمون في العالم اليوم لعبد الرحمن زكي، ط، القاهرة 1958م.ج2/ 67.

46-مصر في عهد الأخشيديين لسيد إسماعيل كاشف،ط، القاهرة 1950م ج234/1.

47-مظاهر الحضارة المغربية،ج2، ط، الدار البيضاء 1958م.ج245/2.

48-المغرب في بداية العصور الحديثة لصلاح العقاد، ط، القاهرة 1962-1963م.ج62/2.

49-موسوعة النقود العربية وعلم النميات[5]؟ .ج234/1.

5-مراجع اللغة الفرنسية

1-Feraud (ch) Histoire des villes de la provin ce de constantine. Bougie .constantine 74 ./2ج1869

2-Henri Garrot : Histoire générale de l'algérie. Alger 1910 Julien Lacat 1871 -1875 ?2ج28 .202 .

[5]– لم أجد مرجعا بهذا العنوان إلا لأنستاس الكرملي، وعنوانه: النقود العربية الإسلامية وعلم النميات.

3-Marçais G .Mannuel d'Art Musulman t.1- « L 'architure»251 ./2ج1926-27

4-Marçais G. Tlemcen. Paris .251/2ج1950

5-Marçais .w. et. G :Monuments Arabes de Tlemcen . Paris 1903 .252 ./2ج

6-Mas Latrie :traités depaix decollerce?28 ./2ج

7-M.C. Brosselard. Mémoire Epigraphque ethistorique sur les tombeaux des Emirs Beni zevan paris 1876 .189./2ج

8-Mélanges d'Histoire et d'Archéologie del'occident Musulman Alger 1957 130 ./1ج

9-L'abbé S .S.i .Barges:Tlemcen. Paris252./2ج1959

10-Lois Massignon . Annuaire Musulman .Paris. 67 .2ج1955

11-Origine de droit des gens (E mye) d 64 .2ج

12-R .Ballesteros :Historia de Espana ? 6 ./2ج

6-مراجع باللغة الانكليزية

1 Addison -the christian appach to the Moslem? 64 /2ج

2-Islam At the cross By Mohammad Asad (L opld 119 /1ج

3 BY james thayer Addison N.y. 1942 64 ./2ج

7-مجلات

1-رسالة المغرب؟، عدد146؟.ج1/ 264

2-مجلة الأصالة؟(ليلى الصباغ)، عدد34-35/1976م.ج28/2

3-المجلة الإفريقية. ج2/ 54. [العدد والتاريخ](؟ 1872) ، [والعدد] (19أكتوبر1859م) ج224/2.

4-مجلة الكاتب؟ (محمد عبد الله عنان) جمادي الأولى 1372هـ.ج227/2.

قراءة في شخصية الشيخ الجيلالي ونموذج لكتاباته في التراجم

أ/ نفسية دويدة

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة- الجزائر

المحاور:

- مقدمة.

1- الملامح العامة لشخصية الشيخ الجيلالي.

2- نموذج عن كتابة الشيخ الجيلالي في التراجم.

- خلاصة.

مقدمة:

يزخر تاريخ الجزائر القديم والمعاصر بشخصيات فذة، مسيرتها حافلة بالعطاء والتفاني، كل حسب مجال تخصصه، وحسب الوسائل المتاحة للعمل، وأيضا بقدر المساحة [الزمانية والمكانية] المسموح له بها. لكن من النادر العثور في خضم ذلك على شخص يجمع بين العلوم الدينية والدنيوية في التكوين والممارسة، وبين الاجتهاد المتواصل على مدار قرن من الزمن، صفاته مزجت بين أخلاق العلماء، وتواضع الدعاة والمربين، وجدية المصلحين. شخصية تميزت بسرعة الوصول إلى القلوب، وبسهولة إقناع العقول؛ ذلكم هو الشيخ المرحوم طيب الله ثراه: **عبد الرحمان الجيلالي [1908- 2010م]**.

إن الحديث عن مناقب الرجل في هذه المناسبة – وأنا من الجيل الذي نهل من كتبه – لهو شرف ورسالة لا يسعني فيها إلا التعبير عن مدى سروري بمحاولة ملامسة بعض ملامح شخصية الشيخ الجيلالي، وإعطاء نموذج عن كتابته في مجال التراجم. وتمحورت إشكالية هذه المداخلة في: "**إبراز الملامح العامة والمؤثرات التي صقلت شخصية الشيخ الجيلالي، والوقوف على أهم أبعاد شخصيته كنموذج يحتذى به في المجتمع، بالإضافة لعرض إحدى مساهماته المغمورة في كتابة السير**".

وتمتع الجيلالي بصفات خلقية أهلته لأن يميز في قراءاته بين الغث والسمين، نذكر منها حسه العالي في التعامل مع الآخرين، والقدرة على الإصغاء، واستجماع المفيد من الأحاديث، فكان لطيف المعشر، سرعان ما يألف ويؤلف، وبرز تقديره لأهل العلم والفضل.

إجمالا يمكن القول أن دراسة الشيخ عبد الرحمان الجيلالي؛ تقودنا إلى تحديد بعض الملامح الخاصة به، والتي تعكس جزءا من شخصيته، وعليه نوجز بعض تلك الخصائص المميزة للشيخ فيما يلي:

- كان مؤرخًا وعالمًا، محققًا ومفتيًا، مرشدًا وموجهًا، أمينًا وجادًا، نصوحًا ومجاهدًا ومتأملًا، أي تعدد مجالات عمله بين الدعوة والفقه والصحافة والتاريخ والإفتاء.. الخ.
- كان مستقيمًا ورعًا، مخلصًا لقضيته، زاهدًا، منقبًا عن الحقائق، قريبًا من كل فئات المجتمع؛ لذلك دخل البيوت ببساطته وتواضعه.
- تميز بقوة الحفظ، عصاميًا في الاستزادة من العلم.
- كان محيطًا عامرًا بالعلوم والمعارف الدينية والدنيوية، عارفًا بتراجم الأولين والمعاصرين.
- دخل القلوب، وأنار العقول، وأجاب السائل، وافهم الحائر، وأربك الجائر؛ فهو أحق بلقب: "**ذاكرة القرن**".
- لم يزر المشرق؛ لكنه نافس علماء المشرق إن لم يكن قد تفوق عليهم.
- إتباعه منهج السلف الصالح، والاعتدال في الطرح، وتبنيه فلسفة التغيير والإصلاح الاجتماعي والديني.

1- نموذج عن كتابة الشيخ الجيلالي في التراجم:

اهتم الشيخ الجيلالي اهتمامًا بالغًا بمجال التراجم؛ باعتباره رافدًا للتعرف على مناقب المترجم لهم، وركنًا خصبًا يمكننا من الإلمام بالأحداث التاريخية التي عاشوها أو عايشوها. وعليه اخترت إحدى النماذج عن كتاباته في التراجم عن الشيخ "**المكي بن عزوز**"، والتي نشرها الجيلالي في ثلاثة أجزاء؛ على صفحات **مجلة الشهاب** [1930م]، ووردت المقالات بعنوان: "**ترجمة العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز**"، وحملت توقيع الشيخ عبد الرحمان الجيلالي الأستاذ بمدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر[1].

وقد استهل الجيلالي مقاله بمبررات اختياره للكتابة عن الشيخ المكي بن عزوز، والتي نلخصها فيما يلي:

- الإشارة لأهمية علم التراجم في استقصاء أخبار السابقين، والتعرف على دورهم في صنع بعض الملامح الخاصة بهم في الفترة التي عاصروها.
- التأكيد على مكانة الشيخ المكي بن عزوز العلمية بالجزائر، والتي توجب الإشادة بها؛ خاصة في ظل عدم وجود - على حد قول الكاتب - ترجمة سابقة لها.

ونبه الجيلالي إلى أن هذه الترجمة ضمنها بأكثر تفصيل في شرحه لأرجوزة الشيخ ابن عزوز: "**الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب**"، وهو عمل كان أثناء الكتابة قيد الطبع.

وقد ركز الجيلالي على غرار المنهجية المتعارف عليها في مجال التراجم والسير في المحور الأول على تحديد الملامح الشخصية للشيخ، بالتعرف على نسبه وأصوله الأسرية، ونشأته الاجتماعية، وتنشئته العلمية، ورحلاته في سبيل التحصيل المعرفي،

[1] الترجمة وردت في ركن: رسائل ومقالات، التي افتتحها بالآية الكريمة: "كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق".

واهم المناصب التي تولاها، ثم مرضه ووفاته. وفي المحور الثاني تناول الجانب السلوكي والأخلاقي للشيخ، وآثاره ونماذج عنها[2].

ونوجز أهم ما ورد في هذه الترجمة فيما يلي:

"هو أبو عبد الله محمد المكي بن الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز الشريف الحسني الإدريسي، والدته ابنة سيدي الشيخ بن أبي القاسم الإبراهيمي الديسي. مولده كان بمدينة نفطة التونسية في 15 رمضان 1270هـ، وقد حفظ القران وسنه لم يتجاوز إحدى عشر سنة بزاوية أبيه بمسقط رأسه؛ على شيخ اللخمي بن الصحبي ابن الصغير.

ومن شيوخه الآخرين: الشيخ قاسم الخيراني، ومحمد بن عبد الرحمان التارزي بن عزوز [ابن عمه]، والشيخ النوري بن أبي القاسم الزبدي النفطي، وغيرهم. رحل بن عزوز إلى تونس العاصمة عام 1292هـ، ولازم جل علمائها آنذاك؛ حتى برع بالأخص في فن التفسير والحديث والأصول وعلم الكلام والقراءات والرياضيات، وأذن له بالتدريس فجمع بين الفصاحة والبراعة والأخلاق، وأجازه نحو خمسين من شيوخه والمعاصرين له.

وقد تولى الشيخ ابن عزوز القضاء بنفطة سنة 1305هـ؛ لكنه سرعان ما استقال في العام الموالي، وقصد الجزائر سنة 1907هـ، حيث التقى المفتي المالكي بتا: علي بن الحفاف فأخذ عنه مع خاله الشيخ أبو القاسم الحفناوي صحيح البخاري. وفي 1309هـ استقر مؤقتا بمدينة تونس، وعمل مدرسا بجامعها الأعظم.

وفي سنة 1316هـ انتقل إلى ليبيا، ثم باتجاه جزيرة كريت؛ فأزمير، فالأستانة [اسطنبول]، واستضافه في هذه المحطات الأعيان والعلماء؛ كمحي الدين بن الأمير عبد القادر، والشيخ محمد ظافر، والشيخ عبد الرحمان الجزولي، والشريف عبد الإله

---

[2] **الشهاب** ، م6، السنة 6أ 1930م، ص ص 731- 737، وص ص 799- 805.
والشهاب، م7، السنة 7أ 1931م، ص ص 14 21.

باشا، وغيرهم. وعمل أينما ارتحل على نشر ما تعلمه، إلى أن تم تعيينه سنة 1324هـ مدرسا بكلية "دار الخير" بالأستانة، والتي أصبحت تعرف بدار الفنون. كما تابع إلقاء الدروس خارجها، ثم عين مدرسا بمدرسة الواعظين سنة 1331هـ، وكان من الملفت إلقاؤه الدروس باللغتين العربية والتركية.

وقد أصيب الشيخ بالفالج، وتوفي يوم الخميس 02 صفر 1334هـ، ودفن بمقبرة يحي أفندي، وحضر جنازته الرسمية رجال الدولة والعلماء والعامة، ورثوه بقصائد كثيرة. وقد خلف الشيخ وراءه مؤلفات عديدة في مختلف الفنون والعلوم: في التوحيد والحديث والتفسير والفقه والأصول والتجويد والقراءات والتصوف والأدب والتاريخ.. تزيد في عددها عن الستين، بالإضافة لبراعته في فنون الأدب والشعر والنكت والصحافة الشرقية والغربية".

وختم الجيلالي حديثه عن الشيخ ابن عزوز بمقولة للشيخ **ابن باديس: "إن الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف**"، وأكد ثانية على ضرورة استحضار مناقب العلماء بعد وفاتهم.

واهم ما يمكن ملاحظته عن هذه الترجمة أن الجيلالي اغفل ذكر أصول أسرة الشيخ ابن عزوز التي تعود إلى منطقة الزيبان، والتي رحل منها والده، ولم ندرك السبب الرئيسي لهذا الارتحال. كما أن عدد الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم الشيخ ابن عزوز يزيد عن الستين حسب ما أورده الكتاني[3]، ونقله أيضا الشيخ حماد أبو عبد الله[4]، وهذا الأمر [أي كثرة شيوخه] أمر نادر عند المتأخرين من العلماء.

---

[3] الكتاني: فهرس الفهارس، رقم 490. وانظر: الزركلي: فهرس الأعلام، ج 7، ص 109.

[4] حماد أبو عبد الله، مقدمة عقيدة التوحيد الكبرى في عقائد أهل السنة والجماعة للمكي بن عزوز المغربي المالكي، متون أعلام المالكية رقم1 i 1326هـ، ص ص 3- 7.

كما أن الجيلالي أحصى حوالي ستين مؤلفا لبن عزوز؛ غير أنها في الواقع أكثر بذلك، وقد قدرها حماد أبو عبد الله وغيره بالتسعين، نذكر منها: "مغانم السعادة في أن العلم أفضل أنواع العبادة"، "فتح الخلاق في استكمال الإسلام لمحاسن الأخلاق"، "طريق الجنة في تحلية المؤمنات بالفقه والسنة"، "صادق النبأ في عقوبة صاحب الربا"، "رفع النزاع في بيان معنى التقليد ومعنى الإتباع"، "نظم الجغرافية التي لا تتحول بمغالبة الدول"..[5].

ومن خلال ما سبق يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

- الوضوح والإيجاز في التعبير، وهي إحدى سمات الجيلالي في الكتابة.
- توثيق الترجمة بالتواريخ، وهو المهتم بالتاريخ.
- إجلاله للعلماء والوفاء لذكرهم وذكراهم.
- الاعتزاز بجزائريته من خلال الإشارة لذلك في كل مرة.
- الانتباه للتفاصيل الدقيقة التي قد يهملها الكثير، مثل إتقان الشيخ ابن عزوز للغة التركية، بل تدريسه بها إلى جانب العربية.
- محاولة الإلمام بكل جزئيات الشخصية؛ حتى فيما تعلق بالعادات والسلوك واللباس.
- الإشادة بتفوق الجزائريين؛ حتى لو تفرقوا، وابتعدوا عن وطنهم.
- نقل أفكاره بأسلوب بسيط وراقي في نفس الوقت.
- إن استشهاد الجيلالي بمقولة الشيخ ابن باديس لاشك دليل على نوع من التوافق والإعجاب به حتى لو لم يتجسد ذلك عمليا بشكل واضح.

---

[5] انظر المصدر نفسه.

خلاصـــــــــــة:

يمكن القول أن الأفراد بإمكانهم القيام بالأدوار الأولى في المجتمع، ولاشك أن الشيخ الجيلالي رحمه الله يعتبر احد هؤلاء الذين افنوا حياتهم في سبيل تحصيل العلم، ونشره، ومن الذين قضوا معظم أوقاتهم في النضال الصامت للبلوغ بقضية إصلاح حال الأمة أقصاها، مما يوجب علينا اليوم؛ وهو أدنى واجب؛ استذكارهم والاقتداء بمسارهم الطيب، والانتفاع من تراثهم. وفقنا الله في أعمالنا ومساعينا.

الجزائر في العهد العثماني من خلال كتاب
تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمان الجيلالي

أ/ لخضر بوطبة

جامعة فرحات عباس – سطيف

مقدمة:

على الرغم من ظروف الاستعمار البغيض الذي كان يسعى في الجزائر إلى طمس معالم الشخصية الجزائرية بكل الوسائل والأساليب، فعمد إلى أسلوب التجهيل وطمس وتشويه الحقائق التاريخية، إلا أن ذلك لم يمنع من بروز نخبة من المثقفين الجزائريين الغيورين على هذا الوطن، المتشبعين بالروح الوطنية، كرسوا حياتهم للدفاع عن ثوابت الأمة، وإحياء تراثها وبعث أمجادها، فوقفوا في وجه السياسة الاستعمارية الوحشية، متحدين المخاطر، فأفشلوا المشاريع الفرنسية وأحبطوا مخططاتها، وكان الشيخ عبد الرحمان الجيلالي أحد هؤلاء الذين جندوا أقلامهم وألسنتهم وأفكارهم من أجل إثبات الذات وكان التاريخ أحد الأسلحة التي اعتمد عليها الشيخ، عندما رأى أن فرنسا جندت مؤرخيها وكتابها لكتابة تاريخ الجزائر على مقاسها، فتصدى لها كوكبة من المشايخ أمثال الميلي وابن باديس والإبراهيمي والمدني وغيرهم، فكان كتاب تاريخ الجزائر العام موسوعة تاريخية تضمنت تاريخ الجزائر منذ أقدم العصور، والمداخلة سأحاول أن أتناول تاريخ الجزائر في العهد العثماني من خلال الكتاب.

عرض محتوى الجزء الثالث:

خصص الجيلالي تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني بالجزء الثالث ويحتوي على 630 صفحة.

عنون الجزء الدولة الجزائرية– التركية العثمانية920-1246 ه، 1514- 1830

وافتتح هذا الجزء بالحديث عن الترك وأصولهم وتاريخ تأسيس الدولة العثمانية واستيلائها على الخلافة العباسية، ثم فتح القسطنطينية الذي عرفت الدولة أوج قوتها واتساعها بعده، ثم ينتقل إلى اتصال الترك بالجزائر، والظروف المحيطة بذلك من ضعف الدويلات المحلية وتنازع حكامها على السلطة، مما أدى إلى التحرش الأوروبي المسيحي على السواحل الجزائرية. والذي كانت نتائجه استيلاء الإسبان على عدة موانئ ومدن ساحلية مثل المرسى الكبير ووهران وبجاية وغيرها، ونفس الشيئ حل بالمدن التونسية والمغربية، وفي هذه الظروف ظهر الأخوان عروج وخير الدين في الحوض الغربي للمتوسط لإنقاذ المسلمين الأندلسيين، واتخذا من ميناء تونس قاعدة ينطلقا منها في جهادهم البحري، ثم يذكر أنهما تمكنا من طرد الإسبان من بجاية عام 1512 وهو خطأ وقع فيه الجيلالي، إذ كان تحرير بجاية عام 1555 على يد صالح رايس.

بعد ذلك يتطرق إلى إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية ونظام الدولة الحكومي ثم يقسم مراحل الحكم إلى أربع مراحل معروفة، وتناول تركيبة الدولة من القبائل والعشائر الكبيرة وعلاقتها بالسلطة التركية، ثم يعطينا وصفا عاما للعملات المتداولة حينها والإتاوات التي كانت الدول الأوروبية تدفعها للخزينة، وأنواع الضرائب والغرامات التي كان السكان ملزمون بأدائها لصالح الدولة، كما تطرق كذلك لنظام الجند ورواتبهم ورتبهم المتنوعة، وجنود الأهالي المتعاونين مع السلطة من قبائل المخزن والصبايحية.

وبعد هذا الملخص الذي قدمه بشيئ من الإختصار ينتقل بنا إلى تتبع مراحل الحكم العثماني في الجزائر فيبدأ بعصر الفتح التركي 920-950ه، 1514-1544م، حيث يستعرض لنا بإيجاز حياة الأخوين خروج وخير الدين، وارتباط ظهورهما في الحوض الغربي للمتوسط بانتقال الحرب الصليبية من الشرق إلى المغرب العربي، ويذكر لنا فتوح الأخوين في الجزائر وجهودهما الطيبة في إنقاذ مسلمي الأندلس من الإبادة، ويذكر تفاصيل عن محاولة انتزاع بجاية ن الإسبان عامي 1512 ثم 1515 وفشلهما وتراجع جيش المسلمين بسبب إصابة عروج، ويصف تمكنهما من إحباط حملة ديقو دو فيرا على مدينة الجزائر عام

1516 ثم يذكر تفاصيل خيانة سكان تنس للأتراك وتآمر ملكها حميد العبد مع الأعداء الإسبان، وجهود الإخوة في إخضاع المناطق ثم مقتل عروج في تلمسان عام 1518؛ وإكمال خير الدين الفتح حتى إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 1518 هذا خطأ لأن الرسالة التي بعث بها اعيان الجزائر مؤرخة في 1519، وقد رد عيها السلطان بالقبول وعين خير الدين برتبة بايلر باي، ثم يتطرق إلى خيانة معاونه قارة حسن وأحمد بن القاضي أمير كوكو، وتمكن خير الدين من إخضاعهما، وتمكنه من تهديم حصن البينون عام 1529، وتمكن خير الدين من هزيمة أندوريا دوريا عند مدينة الجزائر عام 1531 ثم تعيين خير الدين قبطان باشا عام 1533 واستخلاف حسن آغا على الجزائر، وف يعهده حاول المغرور شارلكان أن ينتهز فرصة غياب خير الدين وينظم حملتين شرستين إحداهما بقيادة الكونت ألكودات عام 1534 والثانية قادها بنفسه عام 1541 وانتهت كلاهما بالفشل الذريع وقد خص هذه الأخيرة بنوع من التفصيل نظرا لقوتها وخطورتها.

وبعد هذا لعرض أورد في صفحة خاصة ولاة عصر الفتح التركي في الجزائر، وما يقابله من سلاطين آل عثمان وهما السلطان سليم الأول والسلطان سليمان خان مع تاريخ التولية، لينتقل بعد ذلك إلى مشاهير الجزائر من العلماء فيذكر محمد النقاوسي أواخر القرن التاسع الهجري-آخر 15م، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي 909ه (1504م)، أحمد الونشريسي 914ه (1508)، عبد الرحمان الأخضري 920-950ه (1514-1544)، ثم ختم الباب بجدول تاريخي كرونولوجي للأحداث التي ذكرها سلفا.

ثم يتطرق إلى عصر البايلربايات 950-995ه -1544-1587، وما يميز مؤلف عبد الرحمان الجيلالي أنه كان يخص كل حاكم بأشهر الأعمال والإنجاوات التي خلفها، فبدأ المرحلة بولاية حسن باشا بن خير الدين التي يورد تاريخين لها وهما 1544 و1545؛ وتمكنه من إخضاع تلمسان، وذكر ولاية صالح رايس بعده 1552-1559 واستيلائه على فاس ثم تحرير بجاية من الغزاة الإسبان عام 1555، وولى حسن قورصو نفسه حاكما على الجزائر بعد وفاة صالح رايس، ثم عين حسن باشا للمرة الثانية عام 1557، وذكر صراعه

مع زعيم إمارة بني عباس من أجل إخضاعه، ثم ذكر محنته عندما وشى به الحاقدون وخروجه من هذه المحنة وعودته منتصرا على أعدائه بقفطان التولية للمرة الثالثة، وفي عام 1567 غادر الجزائر إلى اسطمبول بعد تعيينه أميرال الأسطول العثماني على يد السلطان مثل أبيه.

وفي السنة نفسها يتولى السلطة في الجزائر محمد بن صالح رايس، و لم يمكث في المنصب طويلا إذ عين العلج علي بايلرباي في عام 1568 وقد اشتهر بإنقاذ الأسطول الجزائري من التحطيم في معركة ليبانت عام 1571، ونظرا لكفاءته العالية في المجال البحري استدعاه السلطان إلى رتبة أميرال الأسطول العثماني إلى وفاته عام 1587، ليتولى بعده الحكم أحمد عراب سنة 1572 ومن أهم أعماله تجديد القصبة، ثم خلفه القايد رمضان 1574، وعين حسن فنزيانو عام 1577 البندقي وقد اشتهر بحزمه وشدة شكيمته ومقاتلته للإسان في عقر دارهم، ثم جاء بعده جعفر باشا، عام 1580 والذي لم يدم حكمه طويلا حيث تولى حسن فنزيانو الحكم بعده حتى 1587 حين استدعاه السلطان لمنصب إمير البحر بعد وفاة العلج علي.

و كعادته يختم الباب بترجمة لمشاهير علماء الجزائر في هذه الفترة ثم جدول كرونولوجي للأحداث.

بعد ذلك يتناول مرحلة الباشوات وتمتد من 1587 إلى 1659 تعاقب على الحكم خلالها 43 باشا

وأعقب كرونولوجيا الباشوات بجدول السلاطين العثمانيين الذين تداولوا على الحكم في الباب العالي ثم ترجمة لمشاهير الجزائر من العلماء والفقهاء والصلحاء.

عصر الأغوات: 1069-1081ه، 1659-1671

و لم يتول الحكم في هذه المرحلة سوى 6 أغوات وهي من أقصر الفترات تميزت في عمومها بكثرة الاضطرابات والفوضى حيث قتل كل الذين شغلوا منصب الآغا.

مرحلة الدايات 1671 – 1830، وهي من أطول المراحل زمنيا وأكثرها من حيث عدد الدايات الذين تعاقبوا على حكم الإيالة الذي بلغ 28 دايا، وفي هذا الباب تناول بالتفصيل مواضيع حساسة تتعلق بتاريخ العلاقات بين الجزائر وفرنسا، وتواجد هذه الأخيرة بمنطقة الشرق الجزائري وأشار إلى أطماعها في الجزائر منذ القدم، كما استعرض موضوع وإشكالية القرصنة الجزائرية أو الجهاد البحري ودافع عن مشروعية الجهاد الذي كانت تمارسه الجزائر للتصدي للأطماع الدول الأزروبية في المغرب العربي عامة، معتمدا على الكتاب الأوروبيين الذين عاصروا الأحداث مثل الأب دان وفونتور دو برادي و دو طاسي وغيرهم، ثم تكلم عن ذريعة المروحة وكيف اتخذتها فرنسا سببا في احتلال الجزائر، ثم يستعرض الحملة الفرنسية وموقف الدولة العثمانية والدول الكبرى منها، وردود فعل الجزائريين، وقبل أن يختم هذا الجزء يعود ويذكر سياسة الأتراك بالجزائر ومراحل قوة البحرية الجزائرية مبينا أسباب عجز النظام التركي في صد الحملة الفرنسية، وتطرق لقوة الجزائر الاقتصادية والحياة العلمية والدينية بها خلال الفترة المدروسة، وكعادته ختم الباب ، بقائمة بأسماء الدايات وتاريخ حكمهم والسلاطين العثمانيين وتاريخ حكمهم كذلك، ثم التعريف بمشاهير الجزائر من العلماء والصلحاء، وجدول زمني لأحداث وفي الأخير الملاحق والفهارس.

ومن مميزات المؤلف أنه يقدم لنا أدق التفاصيل في بعض المواضع، كما أنه كان عارفا لمعاني الكثير من المصطلحات التركية وذلك باجحتهاده في البحث عن معانيها وتفسيراتها في المعاجم والموسوعات التركية منها دائرة المعارف التركية وهذا دليل على حسه العلمي وشعوره بثقل المسؤولية فكان حريصا قدر الإمكان تقديم معلومات دقيقة وصحيحة للقارئ، على خلاف بعض الكتاب الذين كانوا يجتهدون في شرح بعض الألفاظ شرحا إرتجاليا دون التأكد وتكبد عناء البحث كفاية عن معانيها الصحيحة.

وتفاديا لأي لبس كان يكتب أسماء الأعلام والأماكن باللغة الأجنبية لكي ينقلها إلى القارئ بأمانة، كما أن الكتاب مليء بالإحالات التي توجه القارئ إلى مزيد من المعلومات ولمن يريد المزيد من الإطلاع على مصادر ومراجع.

وعندما يصادف اختلاف الروايات وتعدد الآراء كان يوردها جميعا ثم يرجح الفكرة التي كان يراها صائبة أو أقرب للصواب.

والكتاب يحتوي على شروحات على الهامش وغني بالمراجع والمصادر التاريخية القيمة، ولا يمكن للباحثين والمؤرخين لاستغناء عنه كمرجع أساسي، ويُحسب للراحل أنّه كان السبّاق إلى جمع ذاكرة الجزائر على نحو شامل وكامل في مصنّفه الفريد "تاريخ الجزائر العام" (صدرت منه ثماني طبعات)، حيث قدّم عملا مبهرا تطرّق فيه بأسلوب ممحّص وجمالي إلى كل الأشواط التي عرفتها الجزائر على مدار تاريخها الطويل.

.وأشاد الأستاذ محمد الهادي الحسني بالشيخ عبد الرحمن محمد الجيلالي الذي قال أنه عرفه من خلال كتابه "تاريخ الجزائر" قبل أن يعرفه شخصيا عام 1970 بجامعة الجزائر. وكان أول موضوع ناقشه معه هو حقيقة فقدان الذاكرة الذي أصاب الشيخ عبد الحليم بن سماية، حيث أخبره أنه كان يفتعل تلك الحالة حتى لا تطاله يد السلطات الفرنسية لأنه كان يؤذيها بلسانه، خاصة لأنه كان يشيد بثورة عبد الكريم الخطابي بالمغرب، وكان يتمنى امتدادها إلى تونس والجزائر.

وقال الأستاذ إن تاريخ الشيخ في كتابه المشهور "تاريخ الجزائر" هو عمل تنوء به العصبة أولي القوة، خاصة وأنه تناوله بكل عمق ولم يكتف فيه بتاريخ الناحية السياسية للجزائر بل كان يختم كل مرحلة بالمشاهير الذين عاشوا فيها.

ورد الدكتور عن بعض المغرضين الذين انتقدوا كتابة الشيخ للتاريخ وهو ليس من المؤرخين بأن أغلب من كتبوا التاريخ في العالم لم يكونوا من المؤرخين، وقال إن الشيخ كتب تاريخ الجزائر وحمل نفسه ما لا طاقة له به لأنه كان يراه نوعا من الجهاد.

وأما بوعمران فقد أوضح أن للشيخ الجيلالي جهودا كبيرة في مجال التاريخ أثمرت لنا كتاب "تاريخ الجزائر العام" الذي أنقذنا من سموم المشرقين وكتاباقم التي غزت الجامعات والمعاهد والمكتبات الجزائرية والعربية،

ويذكر محمد الهادي الحسني أن الشيخ الجيلالي كتب "تاريخ الجزائر" لأنه رأى فيه نوعا من الجهاد.[1]

وكان الشيخ الجيلالي عالما من أعظم علماء الإسلام ورجلا من أبرز رجالاتها ، ومعلما شامخا من معالم الهداية والمعارف ، كرس حياته في طلب العلم ونشر العلوم وقيم التسامح ومكارم الأخلاق . تربى في المدرسة الوطنية وترعرع في أحضان العلماء حتى صار مرجعا للدارسين والباحثين في شتى العلوم والآداب. ويكفيه ذخرا وشرفا أن نشير إلى أحد مؤلفاته الخالدة التي تتقد عزة ووطنية، ذلك هو تاريخ الجزائر العام الذي بدأه في أحلك الأيام كرد فعل على عنجهية احتفال فرنسا بمرور مائة عام على اغتصابها لجزائر الإسلام. فقد كان يبغي نشر سجل حافل يحفظ ذاكرة شعبنا المجيد وماضينا التليد وينير الطريق لأجيالنا الصاعدة حتى لا نبني مستقبلنا على الأوهام والأساطير. وقد نشر كتابه هذا وذاع صيته والجزائر تخوض ملحمة الجهاد والحرية، ثم نشر للمرة الثانية وهي تنعم في ظلال الاستقلال واسترجاع الهوية. ثم توالت الطبعات .فتاريخ الجزائر العام يعد مرجعا لا غنى عنه للطلبة المبتدئين وللباحثين المتعمقين،حيث يمتاز بدقة المعلومات واختيار الموضوعات وسلاسة الأسلوب وإشعال روح الوطنية وإبراز مجد الجزائر ونضالها في سبيل العزة والحرية . إن شيخنا ليس عالما فقط في شتى العلوم ، وإنما هو أيضا علما من أعلام الحركة والوطنية، وشعلة من النشاط والحيوية، لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم.[2]

كما كان الشيخ لعلامة الجيلالي مؤرخا مقتدرا، وباحثا ممحصا، وأديبا فصيحا، ورجلا

---

[1]– الشروق أون لاين : 09 – 09 – 2008

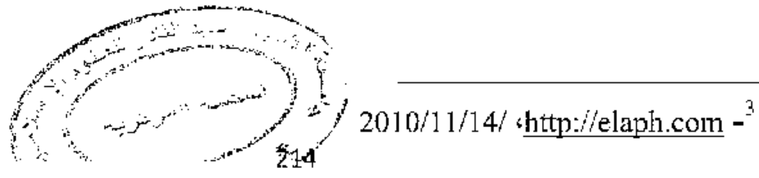
[2]–أبو الفضل محمد بن هندة، http://www.fikr.com/ 2010-11-13

حصيفا. اضطلع بمهام عديدة من بينها كتابة تاريخ الجزائر ، الذي أحجم الكثيرون عن كتابته رغم ظروفهم الميسورة، بينما قام به هو في ظروف أقل مايقال عنها إنها صعبة عسيرة، رغم ظروف الاستعمار البغيض، ورغم ماقام به أعداء الجزائر ومؤرخو فرنسا من محاولات طمس شخصية الجزائر والجزائريين ومحو هويتهم ، فذاد عنها شيخنا ذود الأبطال الأشاوس ، ووضعها في المقام الأسمى وبوأها المنزلة التي كان لابد أن تتبوأها بين العرب والمسلمين[3]

وقد علق المؤرخ أبو القاسم سعد الله على الكتاب في تصديره له في قوله: «...فالجزء الأول كان قد انتهى بنهاية دولة المرابطين، والثاني كان قد انتهى بزوال دولتي بني حفص وبني زيان وانتصاب حكم العثمانيين.

أما الآن، والكتاب في طبعته الثامنة، فقد اتضحت معالم خطته وأصبح يتألف من خمسة أجزاء، وربما من ستة، فالجزء الثالث يبدأ "بالدولة الجزائرية -التركية- العثمانية" وينتهي تقريبا بمعاهدة التافنة (ينتهي سنة 1838)، والخامس يغطي مرحلة الصراع بين فعل الاحتلال وردود الفعل بكل أشكالها إلى ثورة التحرير الكبرى...ولعل الكتاب ما يزال قابلا- للإضافة والحذف والتقديم والتأخير، كما فعل به في هذه الطبعة التي أضيفت لها خرائط وملاحق وهوامش، كما وقع الاستغناء عن أمور أخرى، وهكذا يخرج الكتاب في كل طبعة لابسا ثوبا جديدا، فكأنه يخاطب كل جيل من القراء بما يفهمون من أحداث التاريخ .»

أما الدكتور عمار طالبي فقد قال عن الكتاب إن كتاب "تاريخ الجزائر العام"للشيخ الجليل، والأستاذ الخبير، العلامة عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، لمورد لحياة الجزائر، في مختلف أطوارها ووجوهها الاجتماعية والسياسية والعلمية والدينية والأدبية والتقنية والاقتصادية والصناعية، مع تراجم مفيدة لعباقرة هذا الوطن وعلمائها وزعمائها، منذ أقدم



3- http://elaph.com، /2010/11/14

العصور إلى أيامنا القريبة سالكا في ذلك منهجا علميا، وما يقتضيه من أمانة تاريخية، وموضوعية، والاعتماد على المصادر الموثوقة، والوثائق الثابتة...».

ورغم افتقار الكتاب إلى المنهج العلمي الأكاديمي وهذه سمة كتب هذه المرحلة من التأريخ، إلا أن الكتاب لا يخلو من قيمة تاريخية ووزن علمي بجانب رسالته التربوية وهدفه الوطني.[4]

خاتمة: وفي الأخير يمكن القول أنه على الرغم من أن الشيخ الجيلالي لم يرتاد أية جامعة أو معهد إلى أن كتابه ثري من حيث المصادر والمراجع المتنوعة عربية وأجنبية، وغزير من حيث المعلومات، وغني من حيث التحليل والتمحيص، ويعد الكتاب مرجعا أساسيا للعامة والخواص من الباحثين والدارسين، لأنه اعتمد على أمهات الكتب التاريخية فضلا عن احتوائه على العديد من المخطوطات والوثائق النادرة.

وختاما نقول أنه لو قدر للعلامة عبد الحميد ابن باديس أن عاش حتى تاريخ صدور الكتاب لقال فيه ما قاله للعلامة مبارك الميلي عند تأليفه كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث حين قال له :« إذا كان من أحيا نفسا واحدة، فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف من أحيا أمة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها، وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها، فليس ـــ والله ـــ كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال ..».

---

[4]- ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،2000 ،ص14.

ملاحظات حول "تاريخ الجزائر العام" للشيخ عبد الرحمان الجيلالي

أ.د .علاوة عمارة

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

عرفت الكتابة التاريخية منذ بداياتها الأولى تطورات هامة على الصعيدين المنهجي والمعرفي تماشيا مع المتغيرات التي عرفتها المجتمعات البشرية. فبعد تطوير نمط "التاريخ-الرواية" على يد جل الكتاب القدامى من خلال سرد مختلف الوقائع العسكرية على وجه الخصوص، تحولت الكتابة التاريخية في القرون الموالية لتشمل عدد من المجالات منها على وجه الخصوص "السير والتراجم" و"الحوليات" و"السلالات الحاكمة"، ليأخذ بعدا "قبليا" مع الشعوب الجرمانية كما فعل تاكيتيوس (Takitius) مؤرخ الألمان. إن هذه النزعة الأخيرة لم تلق نفس الصدى في العالم الإسلامي الوسيط إلا في استثناءات قليلة عندما حاول على سبيل المثال صاحب "مفاخر البربر" التأريخ لجماعات تشترك في الانتساب إلى نفس العائلة الثقافية "البربر". لقد كان لنشأة الدولة-الأمة (L'Etat-Nation) دورا حاسما في ظهور ما اصطلح عليه بالتاريخ الوطني، خصوصا وأن الفلسفة الوضعية ساهمت بقسط وفير في إعطاء تصور جديد لفلسفة التاريخ ولكتابة التاريخ الوطني أو القطري. فإذا كانت ألمانيا سباقة في هذا المجال، فإن المؤرخ ميشلي (Michelet) هو الذي أعطي صبغة حاسمة لكتابة التاريخ الوطني من خلال موسوعته "تاريخ فرنسا" (Histoire de France) الصادرة عام 1867. إن التأريخ لقطر معين سرعان ما لقي رواجا كبيرا لدى الدول القومية الناشئة سواء في أوروبا أو في بقية العالم، لكن هذه الوضعية لم تكن كذلك في الجزائر التي كانت

تعيش تحت وطأة الاستعمار الفرنسي. فبعد كتابات المؤلفين القسنطينيين[1] الذين أرخـــوا لأواخر الفترة التركية وبداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهذا مـــا بـــين ســـنتي 1846 و1852، فإنه لم تكن بالمقابل محاولة جادة لكتابة تاريخ وطني كما سطره المنظور التاريخي السائد في تلك الفترة. إن غياب الوعي بكتابة تاريخية قطرية جسدها على الخصوص الآغا بن عودة المازري في كتابه "طلع سعد السعود في أخبـــار وهـــران والجزائـــر وإســـبانيا وفرنسا"[2]، مما جعل الجزائر ذات الوعي الموحد تفتقد لكتاب تاريخي مرجعي يؤرخ لهـــا. فإذا ما استثنينا المحاولة التراثية لأبي القاسم الحفناوي (ت 1942)، -المفتي الرسمي للجزائر- في كتابه المعنون بـــ "تعريف الخلف برجال السلف" الصادر في عـــام 1906عنـــدما أرّخ للذاكرة العلمية الجزائرية، فإن الإنسان الجزائري في بداية القرن العشرين كان يفتقد بصفة قطعية لدراسة مرجعية حديثة تمكنه من معرفة كافة مراحل تاريخ الجزائر.

في المقابل، عملت الشخصيات والمؤسسات الفرنسية على كتابة تاريخ الجزائـــر ضمن تاريخ "إفريقيا الشمالية" وهذا بالاعتماد أساسا على الوثائق والنصوص التي كانت منشورة في تلك الفترة. ودون الخوض في تفاصيلها، تكفي الإشارة إلى عدد من الأسمـــاء التي تركت بصماها في كتابات تلك الفترة على غرار كـــارات (Carette)[3] وأرنســـت مرسيي (Ernest Mercier)[4] وفورنال (Henri Fournel)[5]. إن الاهتمام بالتاريخ الـــوطني

---

[1] هؤلاء المؤرخين هم على التوالي: محمد الصالح بن العنتري صاحب فريدة منيسة، والحاج المبارك صـــاحب "تـــاريخ قسنطينة" والطاهر بن النقاد صاحب "أخبار صالح باي". كل هؤلاء جعلوا من قسنطينة منطلقا لكتابة تواريخهم. أنظر: Isabelle Grangaud, « Un point de vue local sur le milieu du XIXe siècle : A propos des historiens de la conquête », *Insaniyat*, 19-20 (2003), p. 97-115.

[2] تحقيق يحي بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

[3] E. Carette. *Recherche sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale, exploration scientifique, et particulièrement de l'Algérie*, Paris, Imprimerie impériale. 1853.

[3] Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun*, Constantine, L. Marle Librairie, 1875, id, *Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830*, Paris, Ernest Leroux, 1888.

ارتبط أساسا بتشكل الوعي بالوطن الجزائري، عندما وظفته النخب السياسية والعلمية للدفاع عن عراقة الأمة الجزائرية في مواجهة المشروع الثقافي الاستعماري القائم أساسا على ربط "العمل التحضيري الفرنسي" بما قامت به روما في هذه البلاد. إن التاريخ يسجل أن أول محاولة عربية في هذا الخصوص كانت من إمضاء الكاتب والإصلاحي التونسي عثمان الكعاك (ت 1976)، الذي ألف في عام 1925 كتاب "موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي". إن هذه المحاولة كما أشار إلى ذلك أبو القاسم سعد الله في تقديمه للكتاب في طبعته الثانية هي بغرض ربط التاريخ بالوطنية بعدما لاحظ المؤلف خلو الساحة الجزائرية من هذا النوع من الكتابة[6]. إن هذه الموسوعة التاريخية المختصرة لم يكن باستطاعتها الصمود في وجه المؤلفات الفرنسية التي بدأت في الظهور بمناسبة مئوية احتلال الجزائر والتي كان لها تأثير كبير في توجيه المنظور التاريخي الخاص ببلاد المغرب بصفة عامة، خصوصا بعدما نشر إميل فليكس غوتييه (Emile-Félix Gautier) "أسلمة إفريقيا الشمالية: القرون المظلمة لبلاد المغرب"[7] أو ما نشره جورج مارسي (Georges Marçais) حول "بلاد البربر والمشرق في العصر الوسيط"[8]. إن هذه الكتابات ذات الخلفية الإيديولوجية التي تبرر لمشروع احتلال وتربط بين تردي أوضاع "الأهالي" والإسلام قد جعلت عدد من الجزائريين يؤلفون في محاولة للدفاع عن "الوطن" و"العروبة" وهو ما قام به الشيخ مبارك الميلي (ت 1945) عندما ألف ونشر موسوعة تاريخية شاملة لتاريخ الجزائر والموسومة بـ "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" الصادرة بين 1928 و1932. إن مبارك الميلي كغيره من العلماء ومن رواد الحركة الوطنية الجزائرية

---

[5] Henri Fournel, *Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes*, Paris, Imprimerie impériale, 1857.

[6] أبو القاسم سعد الله، تصدير لكتاب موجز التاريخ العام للجزائر لعثمان الكعاك، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص 6.

[7] Emile Félix Gautier, *L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot, 1927.

[8] Marçais (Georges), *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Âge*, 1928 rééd. Casablanca, Éditions Afrique Orient, 1991.

يدرك جيدا أهمية وضع تاريخ عام للجزائر ليثبت للمناضلين الجزائريين وللعالم الجذور التاريخية للهوية الجزائرية. فمن الأغواط وبمساعدة عدد من المترجمين الجزائريين، أقدم على كتابة تاريخ يتبنى معظم الحقب التاريخية التي عرفتها الجزائر إلى غاية الوجود التركي، مع التركيز الكبير على الفترة الإسلامية الوسيطة التي عرفت ميلاد عدد من العناصر المكونة للهوية الجزائرية[9].

إن مساهمة الميلي في كتابة التاريخ العام الوطني شكلت دون شك مرجعية ظرفية هامة للقارئ الجزائري، ليشكل بديلا للتاريخ الرسمي الذي تلقاه الجزائري في المدرسة الكولونيالية، ولقي ترحابا كبيرا بعدما جمع "أشلاء" تاريخنا بحسب تعبير الشيخ عبد الحميد بن باديس. لكن ما قدم عليه الشيخ عبد الرحمان بن محمد الجيلالي (1908-2010) بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك سيغّير معطيات كثيرة في مسار كتابة التاريخ الوطني من خلال كتابته لموسوعة تاريخية عرفت رواجا كبيرا في الجزائر وفي خارجها، فإلى أي مدى جدد هذا الشيخ التواريخ السابقة له وما هي العناصر التي استعملها كأداة في تحقيب التاريخ الوطني؟ وهل ألّم بشكل كامل بكافة العناصر التاريخية المشكلة للهوية الجزائرية؟

الجيلالي بين هواية الكتاب واحترافية المؤرخ

إن موسوعة "تاريخ الجزائر العام" التي هي اليوم في طبعتها الثامنة هي من أهم الموسوعات التاريخية الجزائرية انتشارا، ليس في الجزائر فحسب بل في كل المناطق الناطقة باللغة العربية. فعلى الرغم من مرور قرابة الستين سنة من بداية تأليفها، فإنها ما زالت تحتفظ بمرجعتها على أكثر من صعيد علمي وثقافي وتربوي. ولمعرفة ظروف وملابسات عملية التأليف، يجدر بنا قراءة مقدمة الطبعة الأولى حيث أسهب الشيخ الجيلالي في إبراز ملابساتها. فكل شيء حدث عشية اندلاع الثورة الجزائرية عندما قرر تلبية إلحاح عدد من

---

[9] علاوة عمارة: ""الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر"، المواقف، مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، 3 (2008)أ ص 93-102.

إخوانه لوضع كتاب "موضح لتاريخ الوطن الجزائري الكريم جامع للحقائق التاريخية مجردة، آتيا بذكر تفاصيل الوقائع معللة أسبابها ونتائجها منذ أقدم العصور إلى الآن... مع اشتراطهم عليّ أن بأن يكون ذلك في أسلوب سهل وتعبير حر ونظام عصري وطريقة واضحة"[10]. لقد اعترف المؤلف بكل تواضع بعدم قدرته تلبية رغبة هؤلاء المتشوقين لرؤية كتاب شامل في التاريخ الوطني، لكن رضخ في الأخير لتدوين هذا التاريخ "مقتصرا فيه على ذكر الأهم فالأهم من حوادث التاريخ الجزائري الماجد، محكما فيه الروح العلمية والأمانة التاريخية المحضة"[11].

انطلاقا من مبدأ العبرة "لتتبع أحوال الماضي في خدمة المستقبل" انطلاق المؤلف في وضع هذا الكتاب بالتركيز أساسا على أبرز الوقائع وسير العمران والحضارة في الجزائر في مختلف العصور، وبالإشادة بمشاهير الشخصيات التي تركت بصماتها في عدد من الحقول المعرفية. إن الشيخ الجيلالي لم يدّع أبدا ابتكاره لمنهج جديد في كتابة التاريخ أو في تدوينه لمعلومات جديدة حول التاريخ الوطني، وإنما جمع شتات معلومات مبعثرة في مختلف الكتب ليقدم موسوعة تاريخية ليست موجهة لنخب متخصصة في المجال، وإنما "للقارئ العادي" الذي يجد فيها مسلكا "سهلا بسيطا لا يحتاج فيه المتعلم الناشئ و لا القارئ العادي إلى كدح ذهن ولا جهد فكر ولا أعنات روية"[12]. إن الهدف المحوري للموسوعة هو التركيز على الجذور التاريخية الإسلامية للهوية للجزائرية، وهذا ما جعل المؤلف يركّز معلوماته على الفترة الإسلامية: "وأسهبت مشبعا البحث في العصور الإسلامية إسهابا يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلاده وتمجيد تاريخه اللامع العظيم والثقة بمستقبله الزاهر النير، مع نفخ روح القومية فيه، وإعداده لوصل حاضره بماضيه، حتى

---

[10] عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط 7، الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1995، ج 1، ص 3.

[11] نفسه، ص 3.

[12] نفسه، ص 4.

تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة: المحافظة على شخصيته وميزته، وتقديس أسلافه الأمجاد، والتمسك بدينه، والعمل على الإشادة بوطنه"[13].

إن "تاريخ الجزائر العام" يحمل إذن خطابا تاريخيا يعبّر عن توجهات إيديولوجية من خلال عملية بناء الماضي وفقا لمتطلبات ظرفية، ويتضح هذا جليا من خلال إهداء الكتاب إلى "حامل قبس الهداية الإسلامية إلى هذه الديار، ومنقذها من وصمة الكفر والعار، والمعلي فيها كلمة الله، والمجاهد في سبيل الله، إلى فاتح إفريقية، وقاهر القوات الرومانية، وكاسر عادية البيزنطية... البطل الخالد والأمير الفاتح العظيم، مفخرة أرض الجزائر، ودرة تاج تاريخ مجدها في الحاضر والغابر، سيد الشهداء عقبة بن نافع الفهري رضي الله تعالى عنه". إننا نحن أمام "ثائر" يكتب التاريخ وليس بمؤرخ على حد تعبير أبو القاسم سعد الله في تقديمه للطبعة الثامنة من الكتاب. إن هذا العمل الكبير الذي أنجزه صاحبه يعتمد على عدد لا بأس به من النصوص المصدرية العربية وكذا عدد من الدراسات الفرنسية التي قامت بترجمتها زوجته ميمي خداوج المعروفة بأم غالب (ت 1964)، والمؤلف نفسه يعترف بفضلها في "إقامة صرح القومية الجزائرية بتغذية هذا التاريخ"[14].

موسوعة تاريخية شاملة

حوصل العنوان الفرعي للموسوعة التاريخية "تاريخ الجزائر العام" المحتوى العام: "يشتمل على إيجاز واف لتاريخ القطر الجزائري في جميع أطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والأدبية والفنية والاقتصادية والعمرانية والصناعية، مع تراجم العبقريين وأرباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ أقدم العصور إلى الآن". فالموسوعة بهذا العنوان تبدأ من البدايات الأولى للتاريخ البشري في الجزائر وتستمر إلى عصر المؤلف، لكن عمليا فإن الموسوعة لم تأخذ شكلها النهائي إلا في الطبعة الثامنة

---

[13] نفسه، ص أ.

[14] نفسه، ص ك.

المنشورة عام 2008. فالطبعة الأولى المنشورة في جزئين عام 1954 تتوقف عند بداية الفترة العثمانية، بينما قام المؤلف بتعديلات وإضافات هامة على الموسوعة التاريخية في الطبعات اللاحقة لتشمل كامل الفترة العثمانية في الطبعة الثانية وتصل إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين في الطبعة الثامنة المشكلة من ستة أجزاء[15]، وعليه فنحن أمام موسوعة استغرق في تأليفها وتطويرها وتعديلها أكثر من نصف قرن من الزمن، مما يجعل الرؤية المنهجية للمؤلف متنوعة بتنوع السياق التاريخي للتأليف وبمزجه بين الكتابة في مرحلة الكهولة ومرحلة الشيخوخة.

إن الإطلالة السريعة على المحتوى العام للموسوعة، في طبعتها الثامنة تسمح برصد المحاور العامة للتحقيب الزمني الذي تبناه الجيلالي بعد مقدمة تاريخية وجغرافية سريعة حول فضل علم التاريخ وجغرافية الجزائر.

مرحلة الجزائر غير الإسلامية: وهي الفترة التي تمتد من مرحلة ما قبل التاريخ إلى غاية نهاية إفريقية البيزنطية، حيث اختصرها الجيلالي في مائة صفحة، وهذا نظرا لعدم تحكمه في لغة ومصادر الموضوع من جهة، ومحاولة إبراز الجزائر الإسلامية قبل كل شيء من جهة ثانية. وعلى هذا الأساس فهذه المرحلة تشكل نسبة ضئيلة جدا من الجزء الأول من الموسوعة.

مرحلة الجزائر الإسلامية الوسيطة: والتي عبّر عنها الجيلالي بالجزائر العربية المسلمة – الأمة العربية– حيث خصص لها 606 ص، حيث درس من خلالها الحملات العسكرية التي أدت إلى إلحاق الجزائر بالفلك الإسلامي ومختلف الدول التي تعاقبت على أرض الجزائر أو التي توسعت في مجالها السياسي على التراب الوطني.

المرحلة التركية أو العثمانية: وقد خصص لها المؤلف حيّزا كبيرا أيضا (كل الجزء الثالث، 387 ص) من خلال تبني "الدولة الجزائرية–التركية العثمانية"، حيث عرّج فيها بإسهاب

[15] الطبعة الثامنة نشرت في الجزائر، دار الأمة، 2008، في ستة أجزاء.

على مختلف مراحل الحكم العثماني في الجزائر وكل الأحداث المرتبطة بذلك، خصوصا العلاقات السياسية والصدامات العسكرية مع القوى الأوروبية.

المرحلة الاستعمارية: وتعرض فيها لظروف نهاية الحكم العثماني في الجزائر وإلى بدايات الاحتلال الفرنسي، بالتركيز على "الدولة القومية الجزائرية أو حكومة الأمير عبد القادر الجزائري" مبرزا عمليات المقاومة في غرب البلاد وشرقها طوال الفترة المتبقية من القرن التاسع عشر، ليعرج في الأخير على "النهضة الجزائرية" والكفاح السياسي والثقافي ضد النظام الكولونيالي. وقد أخذت هذه المرحلة حيّزا كبيرا من الموسوعة (الجزءان الرابع والخامس).

إن توقف الموسوعة خلال المرحلة الأولى من الكفاح الوطني وعدم تطرقها لمرحلة ما قبيل الثورة ومرحلة الثورة ثم مرحلة ما بعد الاستقلال يدل بشكل واضح أن "تاريخ الجزائر العام" لم يكتمل بالإصدار الثامن له، وبالتالي فإن تقدم السن لم يسمح للشيخ الجيلالي من مواصلة هذا المشروع الطويل.

بين البناء التراثي والنزعة التاريخية الوضعية

إن عملية تقسيم تاريخ الجزائر إلى هذه الفترات المختلفة وغير المكتملة استوحاها المؤلف دون شك من المحاولات السابقة له والتي هي أيضا غير منتهية: "موجز التاريخ العام للجزائر" لعثمان الكعاك و"تاريخ الجزائر في القديم والحديث" للشيخ مبارك الميلي. فالجيلالي لم يأت بجديد في هذا الجانب وتأثر كسابقيه بالتحقيب الفرنسي لتاريخ بلاد المغرب، وبمحاولة إلغاء القطيعة الإبستمولوجية التي أرستها الكتابة العربية الوسيطة حول تاريخ بلاد المغرب. فعلى عكس المؤلفين الوسيطين، فإن التاريخ المغربي بصفة عامة لا يبدأ من الفتوحات الإسلامية وإنما يمتد بعمق في التاريخ البشري ليصل إلى مرحلة لم يعبر فيها الإنسان إلا بواسطة النقوش والرسوم الصخرية. فرغم تقزيم المؤلف لجوانب عدة من الفترة السابقة للإسلام، إلا أن تاريخ الجزائر في هذه الموسوعة كان أقدم بكثير من وصول المسلمين إلى المنطقة.

كما يلاحظ أن التاريخ الجزائري مرتبط في معظم فتراته بالوافد الأجنبي، بمعنى أن تاريخنا الوطني في معظم مراحله هو جزء لا يتجزأ من تواريخ القوى التي توافدت على المنطقة. فينظر إليه من هذه الزاوية وكأن الجماعات المحلية لم تكن باستطاعتها البروز على مسرح الأحداث دون "الغازي القادم". فهو جزء من فنيقيا في المرحلة السابقة للرومان، وجزء من الإمبراطورية الرومانية طوال حكم هذه الأخيرة، ونفس الملاحظة تنسحب على الفترات الوندالية والبيزنطية والإسلامية الأولى. إن غياب معرفة تاريخية مكتوبة من طرف الجماعات المحلية "الأمازيغية" لا يسمح قط بإعطاء تصور من الداخل لتاريخ الجزائر خلال هذه المراحل المتقدمة، حتى أن الممالك التي كانت موجودة خلال بداية الحقبة الرومانية أو خلال القرن السادس الميلادي (الفترة البيزنطية) لا نعرفها إلا من خلال النصوص الإخبارية الخارجية (يونانية ولاتينية).

إن هذا الإشكال يفرض نفسه في "تاريخ الجزائر العام" كما في الدراسات الأخرى، ولهذا فإن الجيلالي تبنى هذا المنظور الكلاسيكي في غياب بديل واضح المعالم، وبالتالي، فإن تاريخ الجزائر في مرحلته القديمة وبداية الفترة الإسلامية الوسيطة نجده مبني أساسا على تبني لقوى غازية أو لأسر حاكمة تنتمي في مجملها للعنصر الوافد. إن "القومية" التي دع إليها الجيلالي لم تقص مساهمة الأجنبي، بل إنها تفتخر أحيانا بنسبتها للجزائر كما فعل المؤلف مع "أبوليوس" و"القديس أغسطين" الذي اعتبره بمثابة "الفيلسوف الجزائري العظيم"[16].

وفي الفترة الإسلامية، فالبرغم من تناول المؤلف للموضوع بحماسة واضحة المعالم، إلا أنه لم يقص عدد من الجوانب التي تتعارض مع النزعة التاريخية التراثية المعروفة في مغرب نهاية العصر الوسيط الإسلامي. فنجده مثلا يتبنى كسيلة "كملك للوطن الجزائري" والكاهنة "كملكة بربرية" من مشاهير أعلام الجزائر[17]، ليخرج هذه

[16] الجيلالي، ج 1، ص 135.

[17] نفسه، ص 204.

الشخصيات من طور "التمرد" إلى طور "البطولة". كما أنه خصص حيزا للجماعات الإسلامية غير السنية وربطها بالتاريخ الوطني على غرار الجماعات الإباضية التي أسست الإمامة الرستمية في تاهرت أو الإمارة الإدريسية في المغرب الأقصى أو حتى الإمامة الإسماعيلية الفاطمية، رغم تبني الرواية السنية في دراستها.

إن الحركة التاريخية في موسوعة الشيخ الجيلالي تنطلق من العامل السياسي في تفسيرها، ولهذا فإننا نجده يتبنى البناء الأدبي لإخباريي القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في التأريخ بتتابع الدول، دون التركيز على العوامل الثقافية والاجتماعية والدينية في صناعة الحدث التاريخي. وبعد عرض التاريخ السياسي لكل دولة أو مرحلة، نجده يخصص جدول كرونولوجي يساعد القارئ على تتبع الأحداث ويخصص حيز هام للمشاهير المعاصرين لها، اقتداء بالتراثيات التاريخية الإسلامية التي أسس لها خصوصا ابن الجوزي في "المنتظم في أخبار البشر" أو شمس الدين الذهبي في "تاريخ الإسلام". وبهذه الصورة، فإن "تاريخ الجزائر العام" هو تاريخ لقوى غازية أو لسلالات متعاقبة تلعب فيها النخب العلمية دورا ثانويا.

إن القارئ للجزئين الأولين من الموسوعة يكتشف أن المؤلف لقي صعوبة كبيرة في التأريخ للوطن الجزائري لارتباطه في تلك الفترة بما يجري في إفريقية التونسية والمغرب الأقصى، ولهذا فإن التأريخ لكل المغرب غلب على التأريخ للجزائر لوحدها، بل إننا نتفاجئ أن المؤلف يقحم أحيانا دول كانت قائمة خارج أرض الجزائر في هذا التاريخ، كما فعل مع الأدارسة مثلا الذين لم تربطهم بالمنطقة إلا بعض السنوات في تلمسان، في حين أغفل الحديث عن الإمارات السليمانية العديدة التي كانت منتشرة في تلك الفترة في المدن والأراضي الواقعة بين حمزة (البويرة حاليا) ووجدة. وتنسحب نفس الملاحظة على المرينيين الذين لا يربطهم بالتاريخ الوطني إلا مسار عدد من الحملات عسكرية وسلسلة من عمليات حصار تلمسان لفترات طويلة.

إشكالية الهوية الجزائرية

تطرح موسوعة "تاريخ الجزائر العام" عدد من القضايا المرتبطة بإشكالية الهوية أو بناء العالم المعرفي الجزائري خلال المراحل التاريخية السابقة. إن الموسوعة لا تجب بشكل كامل على مختلف التساؤلات المطروحة في أكثر من دائرة حول "تشكل الهوية الجزائرية" أو "العناصر الأساسية المشكلة لها". فإذا كان المؤلف قد أسهب في الحديث عن مختلف الحملات العسكرية التي أدت إلى السيطرة على بلاد المغرب وإلى استقرار الجند المسلمين في المدن والحصون المشكّلة لليمس البيزنطي سابقا، فإنه بالمقابل نجد عموميات حول كيفية وطرق ومراحل انتشار الإسلام. فهو يتحدث عن اعتناق مبكر منذ الوهلة للجماعات المحلية للإسلام، "من أول وهلة بدون عناء كبير ولا مشقة"، وهذا نظرا لما لاحظه البربر في المسلمين الفاتحين "الاستقامة والعدل والمساواة، فرأوا فيهم المنقذ الوحيد مما هم فيهم من الميز العنصري والجور السياسي والاضطهاد الديني والفوضى الشاملة". إن هذا التأكيد يتناقض مع معطيات النصوص العربية ذاتها، ومع وضعية بلاد المغرب خلال نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي، والمتميز بظهور مملكات محلية مستقلة تماما عن الحاكم البيزنطي في قرطاجة. إن نموذج مملكة الأوراس ومملكة ألتافا لهو خير دليل على عودة الجماعات المحلية إلى ممارسة تنظيماتها السياسية بعد تراجع ثم انهيار التنظيمات الإدارية الرومانية، خصوصا في المنطقة الغربية من بلاد المغرب الذي يطلق عليها عبد الله العروي اسم "المغرب الحر" و"المغرب التاريخي"، الذي شهد نهضة محلية بعد قرون من الهيمنة الرومانية.

لم يعد بالإمكان تقبل عدد من الروايات المتأخرة والأسطورية في الوقت ذاته، حيث أثبتت الدراسات الأخيرة أن عملية الأسلمة كانت أطول أكثر مما توقع الشيخ الجيلالي وأغلب الدارسين، على أساس أنها امتدت حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي بنهاية جماعات برغواطة وغمارة وسسوالة التي كانت تمارس مزيج من المعتقدات الوثنية

والسماوية[18]. كما أن الجماعات الحضرية من ذوات الأصول اللاتينية والبيزنطية والحيية المسيحية لم تتحول في معظمها إلى الإسلام إلا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وهي الفترة التي شهدت تحويل معظم مراكز المدن المشكلة من الكاتدرائيات القديمة إلى مساجد جامعة كما هو الحال في قسنطينة وميلة[19].

ويمكن إضافة العامل الإثني كأحد العناصر الأساسية المكونة للهوية. وهنا نجد أن الشيخ الجيلالي يقوم بتوظيف عدد من الروايات العربية المنقولة في معظمها عن الكسموغرافيا المسيحية في تحديد الأصل المشرقي للسكان الأصليين. إن هذه الروايات المتعددة التي وجدت رواجا واسعا في معظم الكتابات التاريخية المغربية والمشرقية لا تستند إلى معطيات تاريخية واضحة المعالم، إلا إذا ما استثنيا هجرة الفنيقيين إلى بلاد المغرب وتأسيسهم لمدينة قرطاج. إن البحث في الأنثروبولوجية البشرية قد بيّن وجود سلالتين من الإنسان القديم مما يضع فكرة "الشعب" البربري أو الأمازيغي الواحد في خانة الأسطورة. بل إن حتمية الهجرة المشرقية لم تعد اليوم مقبولة نظرا لاكتشاف بقايا بشرية قديمة سابقة لهذه الهجرات. وعليه فإن أطروحة "الأمازيغية" أو "البربرية" كانتماء عرقي لم تعد مقبولة، وإنما هو انتماء ثقافي لمجموعة من الجماعات البشرية التي احتكت ببعضها نتيجة غزوات وهجرات مختلفة، شكّل في النهاية مجموعة من اللغات المتقاربة والتي صنفت منذ منتصف القرن العشرين في خانة "العائلة السامية-الحامية"، بمعنى ذات التأثير الشرق الأوسطي.

يختفي هذا البعد "الأمازيغي" نوع ما في "تاريخ الجزائر العام" لصالح القومية الجزائرية المبنية أساسا على المرجعية الإسلامية وعلى القومية العربية، وبالتالي فنحن أمام إقصاء أو على الأقل تهميش مركب أساسي في الهوية الجزائرية، رغم أن المؤلف غالبا ما أشار إلى انتماء شخصيات وسلالات حاكمة إلى "البربر". إن هذه الوضعية تبيّن بوضوح

---

[18] Allaoua Amara, « Texte méconnu sur deux groupes hérétiques du Maghreb médiéval », *Arabica*. LII-3, (2005), p. 348-372.

[19] Allaoua Amara, « L'islamisation du Maghreb central (VII-XII^e siècle », *L'islamisation de l'Occident musulman*, Paris, Presses universitaires de la Sorbonne (sous presse).

تأثير السياق التاريخي على الشيخ الجيلالي، حيث أنهساير سياسة الدولة الجزائرية الناشئة التي اختارت التموقع في خانة العروبة والإسلام، نافية بذلك كل شكل من أشكال البعد الأمازيغي.

الخاتمة

وفي آخر هذه الأسطر المتواضعة، يتبيّن لنا جليا أن الموسوعة التاريخية التي تركها لنا الشيخ الجيلالي حاولت رصد مختلف جوانب التاريخ الجزائري، وقد بذل فيها صاحبها جهدا كبيرا امتد على فترة تجاوزت النصف قرن، وهي عمل غير نهائي لأنها منقوصة مرحلة ما بعد النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى الخصوص الثورة التحريرية وبناء الدولة الجزائرية المعاصرة. إن عمل الشيخ الجيلالي الذي دخل التاريخ من باب الهواية والنضال يستحق كل التقدير، لأن الجزائر المعاصرة لم تتمكن لحد اليوم من وضع موسوعة تاريخية عامة تشمل كل المراحل التاريخية بمقاربات منهجية علمية. إن الكتابة الظرفية التي ميّزت "تاريخ الجزائر العام" ما زالت تلقى قبولا لدى الأوساط الثقافية والتربوية، رغم تجاوزها على مستوى الأبحاث الجامعية، وهي في حد ذاتها شاهد على توظيف التاريخ في خدمة قضايا الأمة الجزائرية.

أوجه المقاومة والتأصيل في « تاريخ الجزائر العام »
لعبد الرحمان الجيلالي

أ.د / إسماعيل سامعي
جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

من الموضوعية العلمية في الكتابة التاريخية أن يتجرد الكاتب من ذاتيته نسبيا، فينفصل عن زمانه، و أحيانا عن مكانه ليعيش زمن الحادثة و ظروفها التي يؤرخ لها حتى يجسد بذلك التجرد المطلوب. و هو إشكال يطرح عندما يتناول الباحث أو المؤرخ أحداثا تاريخية تتصل بموطنه، و أمته، و يترجم لرجال قدموا الكثير من دون أن ينتظروا جزاء ولا شكورا سوى وفاء أبناء وطنهم و أمتهم لجهودهم، والسير على خطاهم في تحقيق الغد المشرق للأمة، وازدهار البلاد، ومن هؤلاء الرجال الأستاذ الباحث الكاتب، الفقيه والمؤرخ عبد الرحمان بن محمد الجيلالي صاحب الكثير من المؤلفات المتنوعة التي تتوزع بين التاريخ و الأدب، و التراجم أشهرها مصنفه : تاريخ الجزائر العام [1] و من خلال هذا الكتاب أخترت أن أتناول بالدراسة : بعض معالم تكوين الدولة الجزائرية مبلورا جهده هذا خلال فترتي منتصف القرن العشرين حيث كانت الجزائر تئن تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، و في الوقت نفسه كانت الحركة الوطنية تتهيأ لجمع قواها و تنتقل إلى المرحلة الحاسمة بإعلان الثورة المباركة، ثورة أول نوفمبر سنة 1954.

---

[1] - صدر كتابه هذا لأول مرة سنة 1954؛ 1955 بالجزائر، ثم صدر في طبعة ثانية ببيروت سنة 1965، وصدر في طبعة ثالثة بالجزائر 1971 في أربعة أجزاء ثم في طبعة خامسة و أخيرا في طبعة سادسة ببيروت 1403-1983 في خمسة أجزاء مزيدة و منقحة، للمزيد من المعلومات يحسن الرجوع إلى كلمة تصدير الطبعة الرابعة في صدر الطبعة السادسة المنقحة : تاريخ الجزائـــــــــر العـــــــــــــام (بيروت 1403- 1983)، دار الثقافة.

و يعد هذا العمل التاريخي الهام ثاني عمل متكامل في تاريخ الجزائر بعد عمل الشيخ مبارك بن محمد الميلي الموسوم بتاريخ الجزائر القديم و الحديث [1]، و الذي يعود تصنيفه إلى فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، و كذلك أعمال الشيخ أحمد التوفيق المدني [2].

و تبدو أهمية كتابه من خلال الأهداف المحددة، و المنهجية المتبعة في بلورة معالم الشخصية التاريخية للجزائر، فالأهداف حددها في صدر كتابه حيث أبرز أهمية التاريخ في نظر العلماء و الفلاسفة [3] فأورد طائفة من أقوال و آراء مشاهير علماء الشرق و الغرب كأقوال علماء العرب المسلمين مثل الصفدي : "التاريخ للزمان مرآة و أخبار الماضين لمن عانته الهموم ملقاة" و حسان بن يزيد و أبو منصور الثعالبي "الجاهل بالتاريخ راكب عمياء و خابط خبط عشواء" وحسين هيكل وعبد الرحمن صدقي والأمير شكيب أرسلان، وابن القيم الجوزية ، وأحمد شوقي [4]: " أخدع الأحياء ما شئت فلن تجد التاريخ في المنخدعين" . وابن شاكر الكتبي، و أحمد فخري، ثم آتى بأقوال العلماء من غير العرب من أمثال بوليبوس: " ليس شيء أسرع تصحيحا لسلوك الناس من معرفة الماضي... وخير تعليم وإعداد للحياة السياسية النشيطة هو دراسة التاريخ" [5]، و كونفشيوس, و دافيد هيوم, و وليم كاتسفليس، وشيرترون، و كونت بولنجرك و الرئيس كيرك، و هرتشو، وسلي، و كومط، و غوستاف لوبون و نابوليون.

و يظهر أن الأقوال التي تخيرها الجيلالي في هذا التصدير كان يهدف من خلالها إلى إحياء ذاكرة الأمة من جهة، و إلى مقاومة محاولات التشويه الاستدماري من جهة

---

[1] - تقديم و تصحيح محمد الميلي ، الجزائر (1396-1976) الشركة الوطنية للنشر و التوزيع . و قد طبع لأول مرة سنة 1359 /1940

[2] - مثل كتاب الجزائر ، الخ...

[3] **تاريخ الجزائر العام**، ط 6 ، ص 11.

[4] **نفسه** 1

[5] نفسه 1 2

أخرى، غير أن ذلك لن تكون له فعالية إلا إذا عرف أبناء الأمة ماهية التاريخ (ما هو التاريخ ؟) و هو إشكال يقود البحث فيه إلى استنهاض الهمم، و شحذ العزائم إلى جانب المعرفة العلمية، و تصنيفه تاريخ الجزائر العام كان هدفه الأول مدرسيا تربويا أكثر منه بحثا أكاديميا، لكنه حاول أن ينحى هذا المنحى بتعرضه إلى التعريف الاصطلاحي – العلمي - من خلال إيراده بعض النماذج الدالة على ذلك كقول ابن خلدون في التاريخ، وفائدته[1] ونشره لقرار المؤتمر الثقافي العربي الأول لجامعة الدول العربية المنعقد ببيت مري – لبنان 1947 ، و الذي وافق عليه مجلس الجامعة العربية في جلسته المنعقدة بتاريخ 22 فبراير 1948. حيث قرر إجبارية تدريس مادة التاريخ لاسيما في المرحلة الابتدائية.

وقد أراد بذلك تجسيد مشاعر الأمة الجزائرية العربية المسلمة، وما يهدف إليه القرار من تدريس التاريخ ، و هو دراسة الصلات بين الأقطار العربية قبل الإسلام و بعده[2]، وإيراد هذا القرار تأكيد من الجيلالي لانتماء الجزائر شعبا وأرضا وثقافة وتاريخا للأمة العربية، والأمثلة التي قدمها من خلال استعراضه لأحداث التاريخ عبر القرون تبين ذلك بوضوح، وتدحض مقولة " الجزائر قطعة من فرنسا " و هو ما قام به من قبل ومنذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر حمدان بن عثمان خوجة في كتابه أو تقريره إلى رجال الدولة الفرنسية سنة 1833 الموسوم بـ " المرآة " [3]، و الذي أبرز فيه شخصية الجزائر من خلال استعراضه لجوانب اجتماعية و تاريخية حسب منطق وظروف ذلك العصر، و هذا العمل يعد من أوائل الأعمال العلمية في مقاومة الغزو الفكري و الثقافي الاستدماري.

ولكي يؤكد دحضه خصص ورقة من كتابه لأشهر سني ابتداء التاريخ فأبرز التاريخ الهجري الذي يعد حسب رأيه من أشهر التواريخ الخمسة، و هي تاريخ العرب:

---

[1] نفسه 16

[2] نفسه 21

[3] – تقديم و تعريب و تحقيق د/ محمد العربي الزبيري،(الجزائر 1975). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

و تاريخ القبط، و تاريخ الروم، و تاريخ الفرس، و تاريخ اليهود، و التاريخ العربي وهو التاريخ الهجري الذي وضعه عمر بن الخطاب الموافق ليوم 16 جويلية 628 م[1]

و لإبراز معالم الشخصية التاريخية للجزائر نهج نهجا مدرسيا الذي كان من شأنه إيصال المعلومة بأيسر السبل و أسرعها، لكن التساؤل الذي يمكن أن يطرح هنا هل كان عبد الرحمن الجيلالي في منهج كتابه مقلدا ؟ و كيف ؟ و من أين انطلق ؟ هل انطلق من المنهج العربي الإسلامي الخلدوني، أو منهج ابن عذاري؟ و كيف قدم تاريخ الكيانات السياسية التي قامت ببلاد المغرب بعد أن تم انتماء بلاد المغرب للإسلام وللثقافة العربية؟ أم مزج بين منهج التاريخ للدول و منهج الإخباريين والتراجم؟ و هل استفاد من المناهج التاريخية الغربية لاسيما المدرسة الفرنسية؟ و ما أثارها البادية في مصنفه؟

يبدو لي أن عبد الرحمن الجيلالي استفاد من كتابات عصره سواء كانت عربية أو غربية لاسيما في التمهيد لكتابه بمدخل جغرافي، و هو المنهج الذي طبقه المؤرخون العرب الأوائل مثل المسعودي[2] وكذا المؤرخون المحدثون من غير العرب نذكر منهم الفرنسيون الذين تناولوا تاريخ المغرب الغربي بصفة عامة، وتاريخ الجزائر بصفة خاصة منهم جان دي بوي، في إفريقيا الشمالية Jean Depois ;L.Afrique Du Nord[3] وشارل اندري جوليان في كتابه المترجم إلى العربية : تاريخ إفريقيا الشمالية :[4]حيث صدرا كتابهما بلمحة جغرافية مركزة تناولا فيها الحالة البشرية والتضاريس والمناخ والوحدات السياسية والإدارية للمغرب العربي.

---

[1] - نفسه، 21

[2] - يمكن الرجوع لكتابه : "**مروج الذهب و معادن الجوهر**" (طبعة بيروت 1978) ، دار الأندلس لاسيما في الباب الأول الذي تكلم فيه عن الأرض والبحار والأنهار والأقاليم السبعة.

[3]- Presses universitaires de France Paris 1964.

[4] - تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة (ط ح ، تونس الجزائر 1978) الدار التونسية للنشر ، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص11

كما أن الميلي كان قد وطأ لكتابه : تاريخ الجزائر في القديم والحديث [1] بمدخل جغرافي عنوانه "نظرة عامة في جغرافية الجزائر " الذي نحا فيه منحى آخر فأعطاه خصوصياته بشيء من التفصيل في أنواع جغرافية الجزائر، و هو ما فصله أحمد توفيـــق المدني في مصنفه : "جغرافية القطر الجزائري" الصادر بتاريخ 1948 [2] وقد قدم عبد الرحمن الجيلالي حوصلة مركزة تعد تلخيصا لما جاء في "تاريخ الجزائر في القديم والحديث " للميلي، وفي "جغرافية القطر الجزائري" و "كتاب الجزائر" كما يبدو أنه اقتبس أو تأثر بمقدمات الكتاب الغربيين منهم الفرنسيون في تصانيفهم لاسيما أن كتبا في عصره نشرت عن جغرافية الجزائر، ثم أن هدفه من كتابة تاريخ الجزائر العام حال دون الإطالة في المدخل الجغرافي الذي من شأنه إبراز معالم الجزائر الطبيعية والبشرية والاقتصادية المتميزة، والتي لها علاقة أساسية بالمعالم التاريخية، إلا أن مقدمته تبقى مفيدة في وقته لتوطئة كتابه من جهة ، وللتلاميذ والطلبة من جهة أخرى، خاصة أنه جعل المدخل تأصيلا لشخصية الجزائر التاريخية، وربطها بماضيها وبالعروبة والإسلام . فيقول في أول جملة عنوانها

---

[1] – طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 197 ص: 11.

[2] – **جغرافية القطر الجزائري** ألف سنة ،1948، وطبع ثلاث مرات آخرها سنة 1964 ، والكتاب مدرسي في منهجه يشمل جغرافية الجزائر الطبيعية، والبشرية ، والإقتصادية، وهو مهم جدا في تلـــك الفترة التي استحوذ فيها الاستدمار على دواليب التعليم، وعلى وسائله منها المناهج والكتب الدراسية، فكان دعوة للناشئة وللشباب عموما إلى الاعتزاز بالانتماء لوطنهم وعروبتهم وإسلامهم، وقد جعـــل شعار هذا الكتاب : الإسلام دينا والعربية لغتنا، والجزائر وطننا، وقال في مقدمة الكتـــاب : " أيهـــا الشباب المسلم الجزائر أي ولدي العزيز على حب الوطني ينشأ شبان الدنيا قاطبة، فهـــم في ســـبيل أوطانهم يعيشون، وفداء أوطانهم يستشهدون ص03 ، كما ألف المدني سنة 1931 **كتــاب الجزائــر** تناول فيه إلى جوانب من تاريخ الجزائر وجغرافيتها منها الجوانب الطبيعيـــة والسياســـية، وعناصـــر السكان: ومدن الجزائر، ونظامها، وقوانينها، ومجالسها وحالتها الإقتصادية والإجتماعية ، وقد نشـر الكتاب في طبعة ثانية من طرف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1984.

"جغرافية القطر الجزائري" الجزائر اسم عربي صميم عاصمة الوطن وأم القطر ... حتى يقول : "أما موقع هذا الوطن الطبيعي فهو عبارة عن قطعة من الأرض هي واسطة عقد الشمال الافريقي، وإن شئت فقل هو قلب الدنيا"[1] إن هذه العبارات الأدبية قد تبدو حماسية لا تنسجم مع الطابع العلمي للكتاب، ولا مع موضوع الجغرافيا . ولكن ظروف ذلك الوقت والهدف المبتغى من وراء ذلك يقتضي هذا الأسلوب، واستخدام هذه العبارات الحماسية لتُثار الهمم، وتُشحذ العزائم، إنه وجه آخر من أوجه المقاومة، والتأصيل في مرحلة بلغ فيها التغريب أوجه لأن المؤرخ والكاتب مهما كان علميا لابد من خدمة قضايا أمته وشعبه، ولا يمكن تجريده من عواطفه وارتباطه بوطنه، الذي يئن تحت وطأة استعمار استيطاني غاشم، وفي هذا السياق يعد الرحمن الجيلالي من جملة المقاومين يستخدم سلاح الثقافة عموما، والتاريخ خصوصا.

يعرض الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجلالي لتاريخ الجزائر عموما، وللفترة الإسلامية خصوصا، فيوليها اهتماما خاصا لأنها تعرضت لتشويه أكثر من غيرها حيث حاول الاستعمار الفرنسي طمس معالمها، وتشويه اشراقاتها فصحح الجيلالي المفاهيم المشوهة والمصطلحات المدسوسة منها ما يخص الفتح العربي الإسلامي لبلاد الغرب حيث أطلق عليه الكتاب الغربيون عموما والفرنسيـــــــون خصوصا اسم : الغــــــزو العـــــــــــربي La Conquet Arabe . كما أنهم أطلقوا على بلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا اسم نوميديا القديمة L' Ancienne Numidie، فأورد مثلا قوتي Gautier العنوان التالي فيما يخص الفتح العربي ليلاد الغرب : La Canquete Arabe[2]

وعندما يتعرض جان ديسبوا Jean Despois إلى بداية انتقال المغرب إلى الإسلام فإنه يعبر عن ذلك بعبارات يفهم منها معنى الغزو، والاحتلال فيقول : النفوذ الأجنبي

---

[1] – تاريخ الجزائر العام 23/1.

[2]- E.F.Gautuer ; les siècles obscures du maghreb, P : 221

Les Influences Etrangeres ثم يوضح ذلك في جملة مركبة تحتمل الشك والريب : المؤسسات البربرية ونفوذ المسلمين

La societe Berbere et L influence Musulmane [1]

وقد عبر شارل اندي جوليان بالأسلوب نفسه عن الفتح حيث قال "فتح خرافي" وهو تعبير كذلك يحتمل عدة أوجه لتفسير الهدف منه وزرع نوع من الشك[2].

نستخلص من هذا أن هؤلاء الكتاب [3] كانوا على منهج واحد، وإن اختلفت تعابيرهم، ومصطلحاتهم، وطرق طروحاتهم، في نظرتهم إلى طبعة الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب، لذلك عمل الجيلالي على تصحيح هذه المفاهيم كما صححها قبله غيره من الكتاب الجزائريين لا سيما الميلي فمهد للحديث عن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بموضوعين عنون الأول : "الجزائر العربية المسلمة" ويلاحظ أنه يحدد بلاد العرب في جنوب غرب آسيا وبالذات شبه الجزيرة العربية، وهو ما لا ينسجم مع العنوان والثاني بـ "العرب في شمال افريقية" تأصيلا للوجود العربي الإسلامي الطبيعي ثم بعد ذلك تحدث عن "فتح افريقية" مبرزا صلات بلاد المغرب بالعرب في اليمن معتمدا رواية ابن خلدون[4].

وبعد أن تعرض للفتوحات الإسلامية الواسعة أتى إلى فتح إفريقية فقال:" أنه من الطبيعي والمعقول أن يفتح العرب بلاد المغرب، وذلك من أجل تصفية النفوذ البيزنطي في شمال إفريقيا، والقضاء على الاضطرابات فيها"، وهو هنا يجعل من الفتح العربي الإسلامي عملية

---

[1] - Jean Despois :**Opcit p** :115 ;134

[2] – جوليان شارل اندري : **تاريخ إفريقيا الشمالية**، (تونس 1978/1398) .الدار الشوكسة للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع.ج09/2

[3] – ليس هؤلاء أفضل من غيرهم أو أدق الكتاب الفرنسيين على الخصوص إنما لأن مؤلفاتهم كانت بين يدي حال اعداد هذه الدراسة

[4] – الذي فيقول ابن افريقش من التبابعة غزا افريقية كما ارجع أصل سكان بلاد الغرب أنهم من ولد كنعان أنظر، **تاريخ العلامة ابن خلدون**، (بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1968)أ 191/176/6

طبيعية وضرورية، وليست غزوا كما أدعى الكتاب الذين سبقت الإشارة إليهم وغيرهم. وفيما يخص فتح المغرب الأوسط – الجزائر- أبرز مسألة القضاء على كسيلة الذي كان مركزه جبال الأوراس، وأن أبا المهاجر جعل ديار قيادته العليا بميلة فابتنى بها دار الإمارة وجعلها ملاصقة للجامع، كما أوردها البكري[1]، ومكث الأمير بها سنتي 59 ؛ 60 / 678 / 679، وقد حضيت الجزائر طيلة هذه المدة بشرف إمارة شمال إفريقية الإسلامية[2]، وبهذا تعد الجزائر قلعة متقدمة للفتوحات الإسلامية باتجاه الغرب، وعاصمة مبكرة لبلاد المغرب الإسلامي، وبها أسست نواة الدولة الجزائرية، حيث أن دار حكم الإمارة، والجامع هما المركز الروحي والإجتماعي، والسياسي للجماعة الإسلامية .

وعندما انتقل الجيلالي إلى الفترة الموالية للفتح وعصر الولاة، وهي فترة تكوين الكيانات السياسية الجديدة في ظل الإسلام أبرز كيان الدولة الجزائرية مصطلحا ومحتوى، فقد سمي الإمارة الرستمية بالدولة الرسمية ، كما أطلق اسم الدولة على الكيانات التي قامت في المغرب الأوسط بعد الفتح العربي الإسلامي، وهو هنا يرفع من شأنها ولا يسميها بالممالك التي حاول الكتاب الاستدماريون تسميتها بها حتى يفصلون ذهنيا وفكريا بين الحكام والشعب، ويبعدون بذلك عن العقول صفة الشورى التي هي إحدى ركائز الحكم في الدولة الإسلامية، ولو في بعض الأوقات كانت شكلية لإفراغ حركات المجتمع الإسلامي من مضامينها الحقيقية حتى يسهل غزوها فكريا وعسكريا، فمثلا نرى الكتاب الذين ذكرتهم سابقا يطلقون على هذه الدول اسم الممالك فقوتي E.F.Gaetier يطلق على إمارات الخوارج "مملكة الخوارج" Unroyaume Issu Khandjisme ومملكة تاهرت Le Royaumes De

---

[1] البكري أبو عبيد: **المسالك والممالك ، تحقيق، جمال طلبة ، (بيروت : دار الكتب العلمية،2002/1424)، 245/2، = وقد أخطأ الجيلالي عندما قال:**" كما شهدها البكري بنفسه" أي ميلة، والبكري لم يخرج من الأندلس، ولم يزر بلاد المغرب.

[2] – **تاريخ الجزائر العام،** 127/1

Tiant ومملكـــة قبائـــل صنـــاهـــجـــة Le Royaume Des Kabyles Sanhadja [1] ونلاحظ أن شارل أندري جوليان عندما تحدث عن إمارة الأغالبة أطلق عليها (دولة الاغالبة) حتى يشرذم ويذم تاريخيا الدولة الإسلامية، أو الخلافة العباسية، علما بأن إمارة الأغالبة هي إمارة تابعة للخلافة العباسية، وكأني به يريد أن يحدث فجوات في تاريخ بلاد المغرب في الفترة الإسلامية المزدهرة. ويلاحظ أن الجيلالي أحيانا لا يتحكم في أمر المفاهيم والمصطلحات، وتغلبه أو ينساق وراء الخبر التاريخي دون الانتباه إليها ، من ذلك أنه في حين يعنون بعض المواضيع باسم الدولة يسميها في المتن مرة بالمملكة، ومرة أخرى بالإمارة، وثالثة بالدولة، ورغم أن لكل من الدولة والمملكة معاني محددة إلا أنهما يتداخلان، كما يبعد مصطلح الإمارة وهو المشهور في كتب التاريخ والأحكام السلطانية.

وقد حاول في سياق منهجه المدرسي التحدث عن الدولة من حيث نظامها السياسي وحدودها الجغرافية مبرزا أهم الوقائع والقادة والزعماء، والمذاهب والعقائد والحضارة والعمران لينتهي إلى ضعف الدولة وانهيارها متوجا ذلك بقوائم عن أمرائها مضبوطة بالتاريخ، وأهم ما في عرضه هو ترجمته لمشاهير تلك الدولة أو الفترة مبينا أهم العطاءات الحضارية ولا سيما الوسائل الفاعلة في هذا العطاء، وهذه الشخصيات التي ترجم لها تعد من طرف الجيلالي وثائق تاريخية، وعامل لشحذ العزائم والهمم لدى الشباب الذين يبحثون عن قدوة لهم لاسيما في الأوقات الصعبة التي بلغ فيها الاستيلاب الفكري والتاريخي أوجه في تشويه الحقائق التاريخية محاولة من الاستدمار ربط هذا الوطن بالبلد المستعمر، والأسلوب هذا اتبع فيه الجيلالي المؤرخون الجزائريون والمغاربة مثل ابن

---

[1] - **opcit** , P 256-292

عذاري، وابن مريم، وبعض الغربيين[1] فمنذ عصر الولاة وحتى العهد الزياني 2هـ/8م حتى 10هـ/16م . ترجم لحوالي سبع وخمسين شخصية علمية وفكرية إضافة للقوائم التي تضمنت أسماء السياسيين من ولاة وقادة و حكام[2]، وهو عمل جمع فيه بين الترجمة لسيرة والشخصية، وبين المجالات العلمية والفكرية، كما أنه التقي مع كتابات بعض المؤرخين ونقل عنهم أمثال ابن خلدون الذين أرخوا للقبائل البربرية والعربية، ولدورها السياسي مثل زناتة ، وكتامة ، وصنهاجة ، ولم يكن في رأي اهتمامه هذا نابع من الحقائق التاريخية فحسب، بل هو رد فعل على أولئك المستشرقين، والكتاب الفرنسيين الذين ركزوا على دور القبيلة في الكيان السياسي والاجتماعي في بلاد المغرب، موظفين في ذلك كتابات ومواقف بعض المؤرخين العرب لاسيما ابن خلدون فهذا قوتي E.F Gauter يعنون فصول الفترة الإسلامية بـــــ :

Les Temoigngzs Des Auteurs Arabes Sur La Vvauc Des Grands Nomades Chameliers, C est- a- Dire Des Bot Et Zenata [3]

وعن استعانة أو معرفة الخلفاء الفاطميين لقبيلة كتامة يقول أيضا :

La Naissance Du Kalifat Fatimide Les Kabyles Ketama [4]

فأهمية القبيلة في الحياة الإجتماعية وتركيباتها التي ركز المستشرقون والكتاب الفرنسيون عليها لا كواقع اجتماعي وسياسي كان قائما بالفعل بإجابياته وسلبياته التي ارتبطت بتطور حضاري متميز، بل بالتفرق والتخلف وهو الأمر الذي من شأنه زرع الشك في قدرة العطاء لهذه الأمة، وينفي وجود دولة لها في ماضيها خاصة في العصر الإسلامي (العصر الوسيط)، وهي دعوة ضمنية إلى الرضا بالأمر الواقع لأجل هيمنة القوة

---

[1] يعتبر ابن عذارى اخباريا ترجم في بيانه لكثير عن الشخصيات العلمية والفكرية في بلاد الغـــرب والأندلس وكذا ابن مريم في البستان ليبرزوا شخصيات من المغرب الاوسط أو الجزائر اليوم .

[2] - للمزيد من المعلومات *** الرجوع إلى مصنفه ج 1،2.

[3] **Opcit**. p 190 -

[4] OPCIT P309

الاستعمارية التي جاءت لتخرج هذا الشعب من الفوضى، وترقيه إلى مستوى الحضارة الحديثة، وانطلاقا من هذا التصور فإن ما كتبه الجيلالي، وغيره من الوطنيين يعد عملا هاما في مقاومة هذا الغزو الفكري المبني على المنهج العلمي، والتحليل المنطقي، وفي إزالة الشك، والثورة على الأمر الواقع لأجل تغييره ببعث روح الانتفاضة في المواطن من خلال إحياء مجد أجداده، وقدرتهم على البناء السياسي، وإقامة الدولة، والإسهام في العطاء الحضاري في كافة المجالات وأفضل سلاح يستخدم في هذه المعركة هو التاريخ.

ومن خلال تعرض الجيلالي للجوانب الحضارية التي جسدها في ثلاثية الثقافة والحضارة والعمران، يبدو أنه اعتمد على ما كان بلوره ابن خلدون لا سيما في مقدمته [1] فحاول من خلال ذلك الجيلالي إبراز معالم الشخصية الجزائرية، ورغم أن حديثه عن الثقافة والحضارة والعمران يكتسي طابع العمومية، والإنشاء فإنه لا يخلو من فائدة عاطفية ومن فائدة علمية وذلك من خلال إبرازه لبعض الجهود التي تبلورت في المجال الصناعي بصناعة الشمع التي تميزت بجاية بتصيدره، والذي أخذ منها اسمه بوجي Beugie عند الأوربين، وأشار أيضا إلى العلاقات التي كانت قائمة بين العالم المسيحي (أوروبا) والجزائر ضاربا بعض الأمثلة للتدليل على ذلك مثل تعلم الرياضي والمهندس الإيطالي العظيم اليونا نيونشي المولود سنة 1175/571 العلوم الرياضية وخاصة علم الجبر والمقابلة وأدخلها إلى أوربا [2] . وعليه فالجزائر لم تكن كيان سياسي وعسكري فحسب بل هي كيان حضاري أسهم في بناء وتطور الحضارة الإنسانية بما توفرت عليه من إمكانات بشرية ومادية، و لم تبق الجزائر متقوقعة على نفسها بل انخرطت في المنظومة العالمية بالأخذ والعطاء فكانت تستقبل طلبة من جنوب أوربا وتقوم بالتالي بتصدير العلوم والمكتشفات العلمية، كما كانت تصدر المنتجات الزراعية والصناعية، وبالتالي فقد تأثرت بالحضارة الإنسانية وأثرت

---

[2] تاريخ الجزائر العام 291/1

فيها . وبذلك تمكن الجيلالي من بلورة أوجه المقاومة والتأصيل، وأسهم في تصحيح بعض المفاهيم والمصطلحات في تاريخ الجزائر، وحقق هدفه من تصنيف الكتاب مبرزا معالم شخصية الدولة الجزائرية لا سيما في فترة الازدهار العربي الإسلامي التي حاول الكتاب الغربيون الإستدماريون الانتقاص منها، ووصفها بالمظلمة ؟.

منهج الشّيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي في كتاب: "تاريخ الجزائر العام": تاريخ دولة بني عبد الواد نموذجا-

د. لطيفة بشاري (زوجة بن عميرة)
جامعة الجزائر 2 – بوزريعة –

جمع المرحوم الشّيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي أخبار الجزائر، منذ فجر التّاريخ إلى السّتينات من القرن الماضي، في كتاب عنوانه "تاريخ الجزائر العام"[1].

وقد قسّمه إلى فترتين، أطلق على الأولى في المقدمة فترة "ما قبل الإسلام" وأطلق على الثانية مصطلح "العصور الإسلامية".

وقبل الشّروع في تدوين الأخبار التّاريخية، قام المرحوم بكتابة مقدّمة ذكر فيها أسباب تأليفه وتتمثّل في وضع كتاب يوضّح تاريخ الوطن الجزائري، ويكون جامعا "للحقائق التّاريخية مجرّدة، آت بذكر تفاصيل الوقائع معلّلة بأسبابها، ونتائجها، منذ أقدم العصور إلى الآن...".

وتحدّث عن المنهج الذي طبقه، ويتمثّل في الاقتصار "على ذكر الأهم فالأهم من حوادث التاريخ الجزائري... محكّما فيه الروح العلمية، والأمانة التّاريخية المحضة، متجرّدا ما استطعت، من كلّ تحمّس أو انفعال، كيفما كان نوعه... جامعا فيه ما لا يسع الإنسان جهله، ولا يحسن... إغفاله... مكتفيا في بعض المواضع بالإشارة الخاطفة إلى أبرز الوقائع وأهمّها. وذلك لضيق المجال عن التّفصيل، أو لقلّة فائدته، مع الإلماع إلى سير العمران، والحضارة الجزائرية، وسيرة مشاهير الوطنيين، من عباقرة الجزائر في مختلف العصور والأحقاب"[2].

---

(1)- اعتمدت على "تاريخ الجزائر العام"، منشورات دار مكتبة الحياة، الطبعة الثانية، بيروت، 1384 هـ/ 1965م.

(2)- تاريخ الجزائر العام، جـ 1، ص. 7- 8.

ووضّح الأهداف التي رمى إليها وتتمثّل في تتبّع أحوال الماضي لخدمة المستقبل، ولتجنّب الوقوع في الأخطاء التي ارتكبها "الأشرار من الأسلاف" حسب تعبيره.

ثمّ انتقل إلى الحديث عن الصّعوبات التي واجهته في إنجاز هذا العمل. وخصّص صفحة لإهداء ثمرة جهده هذه للفاتح عقبة بن نافع الفهري.

ويبدو أنّ الشّيخ في هذه المقدّمة، قد اقترب من الطّريقة المعاصرة، التي يقدّم بها الباحثون رسائلهم العلمية، لاحتوائها أسباب التّأليف، ومنهجه وأهدافه، والصّعوبات التي واجهت الباحث.

وبعد المقدمة، والإهداء، أثرى الكتاب في حوالي 30 صفحة بمواضيع متنوّعة حيث وضع قائمة بأهمّ مصادره ومراجعه، ثلاثة أرباع منها مصادر ومراجع باللّغة العربية يطغى عليها الطّابع العام، وحوالي ربع عددها مراجع باللغة الفرنسية تميّزت أيضا بالعمومية. ثمّ انتقل لتسجيل "طائفة من آراء مشاهير علماء الشّرق والغرب، في التّاريخ، استغرقت حوالي 10 صفحات. حمّلها نصوصا وأقوالا لبعض المعاصرين، الذين حاولوا تعريف "التاريخ"، دون تدخّل منه. من هؤلاء: الصلاح الصّفدي، وحسان بن يزيد، وأبي منصور الثّعالبي، وأحمد بابا التنبكتي، وحسين هيكل، وعبد الرحمن صدقي، والأمير شكيب أرسلان وابن القيم الجوزية، وأحمد شوقي، وابن شاكر الكتبي، وجعفر الحسني، وأحمد فخري، وأبي حيان، وابن الأثير. وكلّ هؤلاء غير متخصّصين في التّاريخ، عموما، وتاريخ الجزائر خاصة، وأغلبهم معاصرون للشّيخ. ونفس الملاحظات حول أقوال وتعاريف الغربيين للتّاريخ من أمثال: دافيد هيوم وولفنستن، وكيرك ونقل ثلاث أقوال لـ غوستاف لوبون. ولم يذكر الشّيخ مواطن استفادته منها في مؤلّفه.

وحاول بعد ذلك الحديث عن ماهية التّاريخ، بطرح سؤال، جاءت الإجابة عنه في صفحتين تحت عنوان: "ما هو التّاريخ؟" ثمّ سجل قرار المؤتمر الثّقافي- العربي الأول لجامعة الدّول العربية، الذي انعقد ببيت مري، في لبنان، يوم 9 سبتمبر 1947م. والذي وافق عليه مجلس الجامعة العربية في جلسته المنعقدة يوم 22 فبراير 1948م. وقد اهتمّ

المؤتمر بالتاريخ، كمادة للتّدريس، ونصّ على تلقين هذه المادة، بدءًا بالمرحلة الابتدائية، ثمّ الثّانوية، ووضّح المواضيع التي يجب تدريسها في مختلف المراحل.

ومن التّوصيات التي جاءت في تقرير هذا المؤتمر "أنّه ينبغي أن يدرس التّاريخ دراسة علمية، ويناقش مناقشة قائمة على منطق إنساني، عادل، وأنّه يُستحسن أن تكون طريقة تدريس التّاريخ أساسا للتّدرج من القديم إلى الحديث...

أن يدرس تاريخ العرب على حسب الدّول، والعصور المتتابعة، وفقا للطّريقة التّقليدية....

أن يدرس تاريخ الحضارة العربية متّصلا، بالتّاريخ العربي العام، بمعنى أنّه بعد الانتهاء من العرض العام، لكلّ عصر، يدرس الطالب حضارة هذا العصر...

إبراز الأحداث العظيمة، والمواقف الحاسمة لنواحي البطولة...

وواصل الشّيخ عبد الرحمن الجيلالي، كتابته فدوّن في صفحتين، طريقة التّأريخ عند الشّعوب القديمة، ثمّ تحدّث عن التّاريخ الميلادي، وبعده الهجري. تحت عنوان أشهر سني ابتداء التأريخ.

وبعد هذه المواضيع المتنوعة، انتقل إلى التّعريف بجغرافية الجزائر باختصار، وقد برّر ذلك بقوله: "ولست في حاجة إلى بسط القول بالتّعرّض إلى ذكر تفاصيل جغرافية هذا القطر، الاقتصادية، والسياسية، وتدقيق البحث فيها من النّاحية الطّبيعية إلخ... فإنّ ذلك ليس من مباحث هذا الكتاب، وكيفما كان الحال فإنّي لا أحبّ أن أمر عن هذا المبحث دون ذكر شيء من خصائص القطر الجزائري، وميزاته، التي خصّه الله بها، ومنحته الطّبيعة إيّاها". وهكذا تطرّق الشّيخ إلى التّضاريس، والمناخ، والثّروات، الطبيعية والسّكان. وقد استغرقت هذه المباحث المختلفة حوالي 37 صفحة.

ثمّ وضع، ثلاث خرائط، الأولى وضح فيها حدود القطر الجزائري الحالية، والثانية رسم فيها مواقع مختلف المناجم، في شمال الجزائر، والثالثة أشار فيها إلى المناطق الفلاحية في الشمال، والهضاب العليا.

وقد تناول الفترة القديمة في 118 صفحة. وقسّم المادّة الإخبارية إلى عدّة مباحث. وبدأ الكتابة عن مرحلة "ما قبل التاريخ". وأفرد لها ست صفحات، لينتقل بعدها للحديث عن البربر، في مختلف العصور. ثمّ دخل الحقبة التّاريخية، وتناول فيها تاريخ الفينيقيين، وبعدهم تعرّض للرومان، وتلاهم بأخبار الواندال، وختم هذه المرحلة بالكتابة عن البيزنطيين؛ جاء هذا السّرد للأحداث التّاريخية تحت عنوان "الجزائر العتيقة". وفي نهاية الحديث عن كلّ دولة، وضع جدولا بأسماء الملوك والأباطرة وجدولا آخر بأهم الأحداث.

ورغم طول هذه المرحلة وكثرة أحداثها فإنّ الشّيخ لم يفرد لها سوى 118 صفحة، في حين خصّص للفترة الإسلامية أضعاف ذلك. "لعدم تعلّق الغرض الشّديد بها"، حسب تعبيره. فهذه الجملة، وإن أتت غامضة نوعا ما، فإنّها تدلّ على أنّ هدف المؤلّف من مشروعه، هذا، هو تدوين أحداث الجزائر الإسلامية، ما ينمّ عن اتّجاه الرجل الديني، والعربي، والوطني. وقد عبّر عن ذلك مرارا في ثنايا كتابه. كما أنّ اهتمامه بأحداث الفترة القديمة (أي ما قبل انتشار الإسلام في ربوع هذه البلاد)، يدلّ على تأثّره بالمصادر العربية الموسوعية، مثل تاريخ الطبري، الأمم والملوك، وتاريخ ابن كثير، البداية والنّهاية وغيرهما، اللذان اهتمّا في مؤلّفاتهم بتاريخ الإنسان منذ أوّل الخلق، مع اختلافه عنهم، بقصره الموضوع على القطر الجزائري.

ولعلّ الشّيخ أدرك أنّ التّاريخ القديم جزء لا يتجزّأ من تاريخ البلاد وأساسا لما تلاه من أحداث فاجتهد في تسجيل أهمّها.

وانتقل إلى الكتابة عن تاريخ الجزائر، منذ الفتح الإسلامي إلى ستينيات القرن الماضي، تحت عنوان: "الأمّة العربية". وقسّم عمله إلى مباحث عديدة تطرّق فيها إلى فتح إفريقية، وأعمال أمرائها، والعلاقة بين المشرق والمغرب، في كلّ مرحلة، مع جداول لأهمّ الخلفاء الأمويين والعباسيين، وسيرة بعضمشاهير الجزائر، وجداول لأهمّ الأحداث.

وتتبع في دراسته لتاريخ الجزائر، أخبار الدّول التي تأسست فيها. وقسم كلّ دولة إلى أدوار، وقدم في نهاية كلّ دور جدولا باسم الأئمة بالنّسبة للدّولة الرستمية، والدّولة الادريسية، وجدولا بأسماء أمراء الدّولة الأغلبية، والخلفاء العبيديين، وأمراء الدّولة الزيرية، والحمادية، والمرابطية، والخلفاء الموحّدين والملوك الزيانيين، وسيرة بعض مشاهير الجزائر، وأهم الأحداث التّاريخية. وقد استغرق ذلك ثلثي الجزء الأول وكلّ الجزء الثاني.

ولنتفحّص الجزء الخاص بدولة بني عبد الواد، ولنتعرف على المنهج الذي اتّبعه الشّيخ لتقديم معلوماته، وعرض آرائه.

خصّص الشّيخ عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي حوالي 123 صفحة من الجزء الثاني، لكتابة تاريخ "الدّولة العبد الوادية- الزيانية" 633- 962هـ/ 1235-1554م. وقسّم ما كتبه إلى ثلاثة أدوار، وقسّم كلّ دور إلى مباحث. وأنهى كلّ مبحث بجدول أسماء ملوك بني عبد الواد، الذين حكموا في ذلك الدور، وتاريخ توليتهم. ثمّ انتقل إلى ذكر سيرة بعض مشاهير تلمسان (الجزائر). وذيل كلّ دور بجدول لأهم الحوادث التاريخية، التي اختارها من كلّ دور.

وواضح أنّ الشّيخ قسّم تاريخ بني عبد الواد إلى ثلاث فترات، دون الإشارة إلى دواعي هذا التّقسيم، وأطلق على كلّ فترة لفظ الدّور. وامتدّ الدّور الأول من ظهور الدّولة سنة 633هـ إلى أن احتلّها المرينيون سنة 737هـ للمرّة الثانية. وامتدّ الدّور الثّاني من سنة 737 إلى سنة 923هـ، أي منذ احتلال المرينيين لإمارة بني عبد الواد إلى الحملة الإسبانية على البلاد. أمّا الدّور الثالث فيمتدّ من سنة 923هـ إلى سنة 962هـ، تاريخ انهيار دولة بني عبد الواد، ودخول الأتراك تلمسان، بعد صراعهم مع الاسبان وبعض الأمراء الزيانيين، والقبائل الموالية لهم.

وقبل البدء في عرض ما كتبه الشّيخ أريد أن أوضّح بأنّ دراسة تاريخ بني عبد الواد، كما جاءت في هذا المؤلّف، تحتاج إلى وقت طويل، ووقفات كثيرة. وبما أنّ المدّة التي توفّرت لديّ لم تتعدّ بضعة أيّام، فقد اخترت على عجل بعض العيّنات للوقوف

عندها وتوضيح منهجية الشّيخ، وطريقة معالجته بعض الأحداث، وتقديمه للمعلومات، واختياره المصادر والتّهميش، والتّوثيق.

جاء تاريخ الدّور الأول في 25 صفحة، تحت عنوان: "الدّولة العبد الوادية، الزيانية"، و هنا استوقفني العنوان، بحيث لاحظت أنّ المؤلّف يرى أنّ بني عبد الواد هم الزيانيون. فلم يتوقف عند الاختلاف في التّسميتين، كما فعل الكثير من الذين كتبوا تاريخ هذه الدّولة. فاسم القبيلة، هو: بني عبد الواد، أمّا الزيانيون فهو نسب مشتق من اسم والد يغمراسن. وقد ذكر الشّيخ في ثنايا حديثة عن الأمير أبي حمو موسى الثاني الذي تولى حكم تلمسان، يوم 8 ربيع الأوّل عام 760هـ/ 7 فيفري 1359م، أنّ أبا حمو هو الذي أطلق لقب الدّولة الزيانية بدل دولة بني عبد الواد على دولته(1) دون أن يشرح الأسباب التي دفعت الأمير إلى تفضيل الانتساب إلى زيان عن الانتساب إلى القبيلة.

واكتفى الشّيخ في بداية كتابته عن نشأة هذه الدّولة، بتعريف أصل قبيلة بني عبد الواد؛ فعاد بها إلى زناتة، فذكر في عشرة أسطر مواطن هذه الأخيرة في بلاد المغرب؛ وأشار إلى أنّها كانت تنتشر أكثر في المغرب الأوسط. وتحدث عن بعض صفات رجالها الإيجابية. ثمّ عاد للحديث عن علاقة بني عبد الواد بالموحّدين، واستقرارهم في تلمسان. ويتّضح من هذه المعلومات انّه ينتقي تلك التي لها علاقة بالمغرب الأوسط وبني عبد الواد.

وقد استقى مجمل المعلومات التي سجّلها من مؤلفي العبر، والمقدّمة لعبد الرّحمن بن خلدون. و لم يتوقّف الشّيخ عند الأسباب المباشرة التي سمحت لبني عبد الواد بالاستقرار في منطقة تلمسان، واكتفى بالقول: "وعملوا [يقصد بني عبد الواد] على حمل الموحّدين على التّنازل لهم عن إمارة تلمسان"؛ في حين ذكرت المصادر أن الموحّدين "اتّخذوهم (أي بني عبد الواد) حماة لقطر تلمسان، وأقطعوهم أراضي خصبة، تمتدّ من البطحاء إلى ملوية"(2).

---

(1)- تاريخ الجزائر، جـ. 2، ص. 172

(2)- ابن خلدون يحيى، بغية الرّواد، جـ. 1، ص. 198.

ويرى الشّيخ أنّ دولة بني عبد الواد بدأت على يد يغمراسن بن زيان بن ثابت سنة 633هـ/ 1235م. لأنّ ولاء رجال القبيلة قبل يغمراسن، كان للدّولة الموحدية، على حدّ قوله. فإذا كان رمز الولاء الخطبة فإنّها، بقيت للموحّدين إلى 29 محرم سنة 640هـ/ جوان 1242م. تاريخ زحف الأمير أبي زكرياء الحفصي على تلمسان، والذي أجبر الأمير الزياني على إقامة الخطبة له دون الرّشيد الموحّدي، وكان ذلك شرطا في الصّلح، الذي انسحب بمقتضاه الأمير الحفصي من مدينة تلمسان.

أمّا بداية إمارة بني عبد الواد فكانت على يد جابر بن يوسف الذي اجتمع النّاس عليه، عندما تغلّب على إبراهيم بن إسماعيل بن علاّن، وتمكّن من إبعاد خطره عن أهل المدينة، وطمأن قبيلته، فأقرّه المأمون حاكما على تلمسان سنة 627هـ/ 1230م[1]. فكان أوّل من فتح الباب أمام أبناء قبيلته للملك.

وانصبّ اهتمام الشّيخ، في الدّور الأوّل، على أعمال الأمراء الخمسة الأوائل بدءا بيغمراسن ثمّ ابنه عثمان وبعده محمد الأوّل وخلفه أبي حمو موسى الأوّل، وأبي تاشفين عبد الرّحمن الأوّل بن موسى. دون الإشارة إلى مجهودات جابر بن يوسف الذي فتح باب السّيادة لبني عبد الواد في تلمسان.

وخصّص حوالي تسع مباحث للحديث عن الأمير يغمراسن من 28 مبحث، ركّز فيها على الصّراع الذي دار بين الأمير والموحّدين، والأمير والحفصيين والأمير والمرينيين، والمنافسة الدّاخلية حول السّلطة.

وواصل تدوين أخبار الإمارة، من خلال الحديث عن أمرائها الواحد بعد الآخر، مراعيا التسلسل الزمني، فكتب على سبيل المثال 5 مباحث عن أبي حمو موسى الأوّل، خصّصها كلّها لنشاط الأمير العسكري، في إطار تثبيت ملكه، بحيث عمل على إخضاع مغراوة، وبني توجين وقضى على إمارة الثّعالبة بمتيجة. إلاّ أن كلّ هذه الأخبار جاءت مختصرة جدّا بحيث اختزل الشّيخ نشاط أبي حمو موسى الأول العسكري في المناطق

([1])- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، مج. 7، ص. 152- 153، (ط. بيروت)؛ بغية الرّواد، جـ 1، ص. 199- 200.

الشّرقية، والذي دام حوالي إحدى عشرة سنة، في صفحتين اثنتين، بحيث بشعر القارئ أنّه أمام إشارات مختصرة جدّا كقوله: "فبعث بجنوده أولا إلى الزاب الجزائري، فاستولى عليه سنة 710هـ/ 1310م، وأذعنت لطاعته بلاد الجزائر الشّرقية..."[1] كما تحدث عن علاقة أبي حمو موسى الأول مع بني مرين بنفس الطريقة، حيث كتب "سعى في مسالمة بني مرين ومهادنتهم"[2].

واهتمّ الشّيخ بالصّراعات حول مناطق النّفوذ، ومحاولات توسع سلاطين بلاد المغرب من حفصيين، وزيانيين، ومرينيين، كل قبيل على حساب القبيل الآخر.

فهذه الطّريقة في الكتابة التّاريخية تفيد القارئ العادي، الذي لا تهمه دقائق الأمور، وآراء الدّارسين، كما هو شأن المؤرّخ الذي يبحث عن أسباب الأحداث وتطوّرها، وملابساتها، ونتائجها، وآراء المحلّلين فيها. ولعلّ هذا ما عناه الشّيخ عندما كتب في مقدّمته أنّه يقتصر على "ذكر الأهمّ.. مكتفيا في بعض المواضع بالإشارة الخاطفة إلى أبرز الوقائع وأهمّها".

وأختتم الشيخ أخبار المحور الأوّل بجدول لملوك الدّولة الزيانية، ثمّ انتقل إلى كتابة سيرة بعض مشاهير تلمسان، بدءا بالأخوين ابني الإمام عبد الرّحمن وعيسىظظظظظظن وتلاها بسيرة محمد بن إبراهيم الآبلي، ثم محمد ين خميس، وعيسى المتكلاني، وأحمد بن أبي حجلة التّلمساني، وسعيد العقباني. ورغم اتّفاق الجميع على أنّ هؤلاء من مشاهير تلمسان، إلاّ أنّ معايير اختيارهم غير واضحة. ووضع بعد ذلك جدولا لأهمّ الأحداث التي عرفتها الدولة الزيانية، في دورها الأوّل، أي بين سنة 633 و737هـ/ 1236-1337م فجاءت هذه الجداول، لتختصر وتوضّح ما دوّنه الشّيخ في عدّة صفحات. وبهذا يجمع المؤلف بين طريقة الكتابة الموسوعية القديمة، وجانبا من طريقة تقديم الأخبار في الكتب المدرسية، وفيما يتعلّق بالمصادر والمراجع اكتفى بالقول "أجمع علماء التّاريخ

([1])- تاريخ الجزائر العام، جـ. 2، ص. 145.

([2])- نفسه.

والسير والتّراجم بالمغرب العربي..."[1]. وهنا يبدو واضحا أنّ الشّيخ يكتب لكلّ قارئ يريد أن يعرف شيئا عن تاريخ الجزائر.

ومع كلّ ذلك فإنّ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي لم يغفل عن الإشارة إلى الأوضاع العامة التي سادت المغرب الأوسط، في تلك المرحلة فسجل ضعف قبيلة زناته قائلا: "فابتدرها الهرم الذي هو سنة الكون في الكائنات أفرادًا وجماعات..."[2] دون التّوقف عند أسباب هذا الضّعف أو إبراز مظاهره.

وأنهى الشّيخ أخبار هذا الدّور بالحديث عن نهاية أبي تاشفين البطولية. فصوّره، وهو يدافع عن قصره، وحرمه، أمام المرينيين، إلى أن قبض عليه، فلم يفرّ ولم يستسلم، رغم مقتل كلّ من كان حوله.

وواصل الشّيخ تاريخه لدولة بني عبد الواد في محور ثان، أطلق عليه الدّور الثاني، تحت عنوان "سيادة بني مرين" (737- 760هـ/ 1337- 1359م).

حدّد المؤلّف في البداية الفترة التي استغرقها الوجود المريني في المغرب الأوسط، والتي دامت حوالي ثلاث وعشرين سنة. واللافت أنه رأى أنّ "استيلاءهم في هذه المرّة كان في صالح الوطن الجزائري ماديا، وأدبيا. وأنّهم لم يعملوا يومئذ على تقويض كيان الشّخصية الجزائرية، كما فعلوا أوّل مرّة. بل حافظوا على جميع مظاهرها، ونظمها، ومقوّماتها، وسائر مراسيم الدّولة النّاشئة بها، مع مسايرة رؤساء القبائل والمشيخة، غير أنّ ذلك لم يكن ليرضي دولة بني عبد الواد الجزائرية الحرّة الأبيّة. فسكنت مرغمة. وكلّما سنحت لها فرصة المقاومة، نشطت لها"[3].

إنّ المتأمّل في هذه الفقرة يجد نفسه أمام العديد من الأسئلة يمكن تلخيصها فيمايلي: إذا كانت "السّيادة المرينية" كما سماها الشّيخ تتمثّل في إسقاط الإمارة الزيانية، بقتل أميرها، والاستيلاء على البلاد، كيف يكون ذلك في صالح "الوطن الجزائري ماديا،

([1])- نفسه، ص. 152.

([2])- تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ص. 148.

([3])- نفسه، ص. 167.

ومعنويا"؟ هذا كلام يحتاج إلى كثير من التّوضيح. وإذا كان سليما لابدّ من تقديم براهين مصداقا لذلك. ويضيف بأنّ المرينيين لم يعملوا على تقويض الشّخصية الجزائرية والسّؤال هنا، هل فكّر المرينيون في "الشّخصية الجزائرية" وإذا عملوا على الحفاظ عليها كيف كان ذلك؟ وهل كان مفهوم الشّخصية موجودا في تلك الفترة؟ ويطوّر الشّيخ استنتاجه هذا بقوله: "حافظوا على جميع مظاهرها (أي الشّخصية الجزائرية) ونظمها، ومقوّماتها. وهنا يطرح سؤال عن مفهوم مظاهر الشّخصية، وعن مفهوم نظم الشّخصية، فمصطلح النّظم معروف ويضاف للدّولة أو الإمارة أو المملكة. وكيف يحافظ المرينيون على سائر مراسيم الدّولة، وقد أسقطوها وقتلوا أميرها أبي تاشفين؟ وقد قدّم الشّيخ الدّليل على عكس ما ضمّنه هذه الفقرة لما أردف كلامه بالجملة التّالية "غير أنّ ذلك لم يكن ليرضي دولة بني عبد الواد الحرّة الأبية فسكنت مرغمة".

وفي الختام لماذا توصف دولة بني عبد الوادِ بالنّاشئة، وقد تكوّنت منذ ما يزيد عن قرن؟.

ثمّ إنّ الشّيخ ينسب هذا الكلام الذي استهلّ به حديثه عن الدّور الثاني للمؤرّخين فيقول: "ولقد حقّق المؤرّخون..." ولم يأت على ذكر أسماء أو عناوين مؤلّفات هؤلاء، لا في المتن ولا في الهامش. كما أنّ استعمال حقّق يدلّ، على موافقته هذا الرّأي، خاصة وأنّه لم يناقشه البتّة.

وانطلق الشّيخ في تتبّع أخبار الأمراء الزيانيين، وكان اهتمامه منصبّا على نشاط المرينيين في غرب المغرب الأقصى، وغزوهم المتواصل، للمغرب الأوسط، وضغطهم المستمرّ على الأمراء الزيانيين، وتدخّلاتهم المباشرة في شؤون الحكم بتلمسان، واستعمالهم الأشخاص الموالين لهم، للحفاظ على مناطق نفوذهم، وللضّغط على الحفصيين في المغرب الأدنى. ومحاولة هؤلاء انتهاج سياسة بني مرين مع الزّيانيين، من الجهة الشّرقية، كلّما سنحت لهم الفرصة.

وكما دأب الرّجل، فيما سبق من دراسته هذه، فإنّه ذيل الأحداث التّاريخية بجدول، سجل فيه أسماء أمراء تلك الفترة، ثمّ كتب سيرة بعض المشاهير، دون تبريـر

اختياره لهم، وانتقى أهمّ الأحداث في هذا الدّور، فختم بها المرحلة الثّانية من تاريخ بني زيان.

أمّا الدّور الثّالث، فقد جاء في حوالي 67 صفحة، تحت عنوان: "الحلمة الإسبانية والأتراك".

وقد قدم عبد الرّحمن بن محمد الجيلالي لهذا الدّور متحدّثا عن بداية نفوذ الإسبان، وظهور الأتراك في البحر الأبيض المتوسط. والصّراع بين القوّتين للسّيطرة على المغرب الأوسط. وركّز فيه على لجوء الأمراء إلى الاستنجاد بالقوى الخارجية، الإسبانية والتّركية.

وخصّص تسع صفحات، من هذا المحور، للتّأريخ السياسي والعسكري. أمّا بقية الصفحات، فاهتمّ فيها المؤلّف بالمجتمع الجزائري، وجانب من اقتصاد البلاد وتطرّق إلى المذاهب، والمعتقدات، التي كانت منتشرة في المغرب الأوسط، والثّقافة والحضارة والعمران، على حدّ تعبيره، دون التّوقّف عند هذه المصطلحات.

ومن خلال ما سبق، يبدو أنّ الشّيخ، رحمه الله، قد اقتبس الكثير من توصيات المؤتمر الثّقافي العربي الأوّل لجامعة الدّول العربية، وأسّس عليها منهجه في كتابه "تاريخ الجزائر العام". بحيث "تدرّج في الكتابة من القديم إلى الحديث". فكتب عن الجزائر في فترة ما قبل التاريخ، ثمّ تناول أخبار البلاد في القديم وإن كان باختصار، ومرّ إلى الكتابة عن العصور الإسلامية الوسطى والحديثة. فجاء سرده للأحداث "حسب الدول، والعصور المتتابعة، وفقا للطّريقة التّقليدية... وتطرّق في نهاية كلّ دور إلى بعض الجوانب الحضارية، فقدم سيرة بعض العلماء، وتعرّض لبعض الجوانب الاقتصادية والعمرانية. وأبرز بعض الأحداث في جداول مختصرة. وكان عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ملتزما بما كتبه في المقدمة، حيث قال: "مقتصرا فيه (أي في الكتاب) على ذكر الأهم... من حوادث التّاريخ... جامعا فيه ما لا يسع الإنسان جهله، ولا يحسن بالجزائري... إغفاله، مكتفيا في بعض المواضع بالإشارة الخاطفة، إلى أبرز الوقائع وأهمّها، وذلك لضيق المجال عن التّفصيل".

وقد استطاع المؤلّف أن يخص تاريخ الجزائر بمؤلف، بعدما كان تاريخها متناثرا بين الكتب، وقد كتب في هذا السياق؛ "وأعتقد أنّني بذلك خلصت تاريخنا من أن يبقى مكتوبا عرضا، في تاريخ الأمم، والشّعوب، والأقطار المستعمرة، أو أن يكون كفصل، ملحق لكتاب، مبعثر، مشوه العرض...".

ويشترك هذا المؤلف مع الموسوعات في تناوله فترة زمنية طويلة تبدأ منذ مرحلة ما قبل التّاريخ إلى الستينات من القرن العشرين، ويشترك مع الدّراسات العلمية، في مقدّمته وفي إثراء مؤلّفه ببعض النّصوص، والمعاهدات، ومع الكتب المدرسية في اختزال المعلومات في جداول، وفي الخرائط التّوضيحية.

ولا يسعنا، في الأخير، إلاّ أن نترحّم على الشّيخ، ونحفظ جميله، فله سبق الكتابة، حول تاريخ الجزائر، وما من طالب، كتب رسالة ماجستير، حول تاريخ بلاد المغرب، في العصر الوسيط، إلاّ ويذكر من بين مراجعه "تاريخ الجزائر العام".

ولا يفوتنا، كذلك، أن ننوه بمجهوده الكبير، الذي بذله، في تلخيص أحداث متداخلة، في الزمان والمكان. وفي تبسيط الجانب السياسي، والعسكري، الذي ساد تاريخ الدّولة الزيانية، لا سيما في الدّور الثاني، والأخير. حيث عاشت الإمارة بين فكّي الرحى، المرينيون من جهة الغرب، والحفصيون من جهة الشّرق. وقبل أن تتخلص من ضغط، هاتين الجارتين، وجدت نفسها، في عين الصّراع الإسباني التّركي.

وقد جاء ما كتبه الشّيخ، في لغة عربية، سليمة، فقدناها عند طلاّبنا، وبين باحثينا. وأسلوب سلس لا إطناب فيه، ولا استطراد، ولا تكرار. ما يدفعنا إلى مطالعة المؤلّف دون عناء.

طيّب الله ثراء شيخنا، وفقيد جزائرنا، ورزقنا بمثله إن شاء الله.

الشيخ عبد الرحمان الجيلالي وهاجس التأريخ للوطن

أ.د. مولود عويمر

جامعة الجزائر

عطاؤه العلمي:

ألف الشيخ الجيلالي مجموعة كتب وهي: تاريخ الجزائر العام، ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب، مسرحية المولد، تاريخ المدن الثلاث، سكة الأمير عبد القادر...

يمثل كتاب "تاريخ الجزائر العام" أهم ما ألفه. وصدر الجزء الأول منه في عام 1953 عن المطبعة العربية.

وكانت طريقة الشيخ الجيلالي في كتابة التاريخ تعتمد على سرد الأحداث حسب تسلسلها التاريخي، وذكر مشاهير الجزائر في ذلك العصر، ووضع جدول تاريخي يلخص ما ورد في الكتاب. توقف الجزء الرابع عند بداية الثورة التحريرية.

واعتمد في هذا الكتاب على المصادر والمراجع العربية والفرنسية. وقد ساعدته زوجته أم غالب على جمع المادة والترجمة. كما استعان بالمعلومات التي سجلها من المحاضرات التي سمعها، كمحاضرة الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) ألقاها بمركز الإعلام العربي بالجزائر يوم الأربعاء 9 مارس 1966.[1] واستعمل كذلك شهاداته للكتابة على الشخصيات التي عاصرها أمثال: الدكتور محمد بن العربي وعبد الحليم بن سماية ومحمد بن أبي شنب... الخ.

وترك كتبا مخطوطة، منها: شرح على كتاب الجوهر المرتب في العمل على الربع المجيب للشيخ المكي بن عزوز، تاريخ الموسيقى العربية، الإستشراق الغربي والثقافة الإسلامية،...الخ.

---

[1]عبد الرحمان الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. دار الثقافة، بيروت، 1983، ط6، ج 4، ص 271.

مؤلفاته كما يراها العلماء والباحثون المعاصرون:

رحبت مجلة الشهاب الإصلاحية بصدور كتاب "ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب"، ودعت « كل جزائري يجري في عروقه دم الشهامة والغيرة الإسلامية»[2].إلى اقتناء هذا الكتاب ومطالعته.

أما رواية المولد فقد لقيت رواجا كبيرا، ومثلت كمسرحية عدة مرات، وبثتها بعض الأقسام العربية لإذاعات دولية في لندن ونيويورك وباكستان ومصر.[3]

رحبت الحركة الإصلاحية بكتاب "تاريخ الجزائر العام"، فكتب عنه الشيخ محمد علي دبوز سلسلة من المقالات في جريدة البصائر. كما سارعت جريدة المنار إلى بيت الشيخ الجيلالي وحاورته في مضمون هذا الكتاب ودوافع تأليفه وهو مازال قيد الطبع. قال لهذه الجريدة أن دافعه الأساس من كتابة هذا التاريخ هو غموضه وتشعبه وتشتته. وأنه لحد الآن لم يدرس دراسة واضحة فأردت أن أطهره من هذه العيوب كلها التي جعلت الناس يجهلونه.»[4]

وسيردد هذا الكلام في عام 1990 عندما صرح لجريدة السلام قائلا: « لأنني رأيت الجزائر مهضومة التاريخ كتبت تاريخ الجزائر ».[5]

وأضاف الشيخ عبد الرحمان الجيلالي في الحوارين السابقين أنه كان يقصد من تأليف ذلك الكتاب بث الوعي القومي لدى الجزائريين وهم يقرؤنا هذا التراث الذي يؤكد لهم أنهم ينتمون لأمة تملك "تاريخا ماجدا تستطيع أن تفتخر به."[6]

---

[2] الشهاب، ج13، مج 9، ديسمبر 1933.

[3] أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 1954-1962. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص 329 و 570.

[4] المنار، العدد 45، 10 جويلية 1953.

[5] جريدة السلام، العدد 8، 14 نوفمبر 1990 .

[6] المنار، العدد 45، 10 جويلية 1953.

أما فيما يتعلق بالكتابة الصحفية، فقد كتب مقالات تاريخية وأدبية في عدة جرائد ومجلات: النجاح، الإقدام، البصائر، الشهاب، هنا الجزائر، الأصالة، الثقافة، الشعب... الخ. وركز في مقالاته وبحوثه على أعلام الجزائر (المكي بن عزوز[7]، محمد البشير الإبراهيمي[8]، مبارك الميلي[9]، عبد الحليم بن سماية[10]...) وحواضرها (الجزائر، بجاية، تلمسان، قسنطينة، المدية...) ليبيّن إسهامات هذه البلاد في الثقافة العربية الإسلامية في العصور القديمة والحديثة.

ذكرياتي عن الشيخ الجيلالي:

وأنا طفل صغير سمعت في بلدتنا الكبار يتحدثون عن دروسه الإذاعية والتلفزيونية بإعجاب وتقدير حتى أن بعضهم لا يفرق بينه وبين الشيخ عبد القادر الجيلاني، مؤسس الطريقة الصوفية الشهيرة: القادرية.

ومازلت أتذكر يوم الأربعاء 6 ديسمبر 2005 الذي التقيت فيه هذا العالم الشهير بالمركز الثقافي الإسلامي الكائن بشارع علي بومنجل. فقد جلس الشيخ الجيلالي في الصف الأول مع العالم الجليل الشيخ عبد الرحمان شيبان ينصتان إلى محاضرتي بعنوان: " الوعي التاريخي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين."[11]

---

[7] المكي بن عزوز. الشهاب، ج1، مج 7، فبراير 1931.

[8] أسطر حول نشاط الإبراهيمي. الثقافة، العدد 87، ماي-جوان 1985.

[9] من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي. الثقافة، العدد 80، مارس-أفريل 1980.

[10] جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي والثقافي 1283-1313 هـ/ 1886-1933م. الأصالة، العدد 12، جانفي-فيفري 1973.

[11] سبق لي وأن قدمت محاضرات في المركز الثقافي الإسلامي: مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب في ظل العولمة (7 جوان 2004)، الفكر التاريخي عند مالك بن نبي (5 نوفمبر 2005)، تقديم كتابي: مالك بن نبي رجل الحضارة (7 نوفمبر 2007)، أحداث 11 ديسمبر 1960: الحدث والعبر، ديسمبر 2008.

وبعد المحاضرة، سمعت بدوري لمناقشات وتعقيبات أساتذتي: عبد الرحمان شيبان وعبد الرحمان الجيلالي وسعيد شيبان ومحمد حمداوي (مدير المركز الثقافي) ومحمد العلمي السائحي والطاهر بن عيشة وسعدي بزيان. تدخل الشيخ عبد الرحمان الجيلالي فأثنى على محاضرتي ثناء جميلا، فوصفني بأوصاف أكبر مني بكثير.

تحدث بعد ذلك عن تجربته الشخصية في كتابة التاريخ، وبدايات اهتمامه بالبحث التاريخي حينما كان معلما بمدرسة الشبيبة الإسلامية. فقال إنه كان يجد صعوبة في تدريس تاريخ الجزائر لقلة المراجع، فالكتاب الوحيد المؤلف باللغة العربية آنذاك هو "مختصر تاريخ الجزائر العام" للمؤرخ التونسي عثمان الكعاك (1903-1976). فعزم على تأليف كتاب تاريخ الجزائر العام مستعينا بكراريسه التي كان يحضر فيها دروسه للطلبة.

وبهذه المناسبة الفريدة التقطنا صورة تذكارية جماعية مع الشيخ عبد الرحمان الجيلالي والشيخ عبد الرحمان شيبان وبعض الطلبة الذين أصروا على القعود والاستفادة من الشيخين الجليلين، ولكن للأسف لم نتمكن من إخراجها لسبب تقني. وهكذا ضاعت صورة تذكارية نادرة جمعت بين الجيلين الحاملين لهم الإشعاع الثقافي في البلاد.

كلمة ختامية:

وأحب أن أختم هذا المقال بفقرة اقتبستها من مقال كتبه الشيخ الجيلالي عن الشيخ المكي بن عزوز وهو يعدد خصاله ويشيد بجهوده ويدعو إلى الوفاء لذكره، وهي عبارات تنطبق عليه اليوم[12]: « فرحمك الله ... حيث أحييت ذكر الجزائر في أقصى

---

[12] بثت إذاعة القرآن الكريم حصة على المباشر يوم الخميس 25 نوفمبر 2010 من 10 سا إلى 12 سا عن حياة وإنتاج الشيخ عبد الرحمان، شارك فيها: السيد مختار بوروينة رئيس بلدية سيدي امحمد (الجزائر العاصمة)، الدكتور عبد الرزاق قسوم، أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر، الدكتور محمد إدير مشنان مدير التعليم القرآني بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف، وكاتب هذه السطور. كما ألقى هذا الأخير محاضرة عن الشيخ عبد الرحمان الجيلالي بدعوة من مركز الأصالة للدراسات يوم 15 جانفي 2011 بقاعة سينيما الأبيار بالجزائر العاصمة.

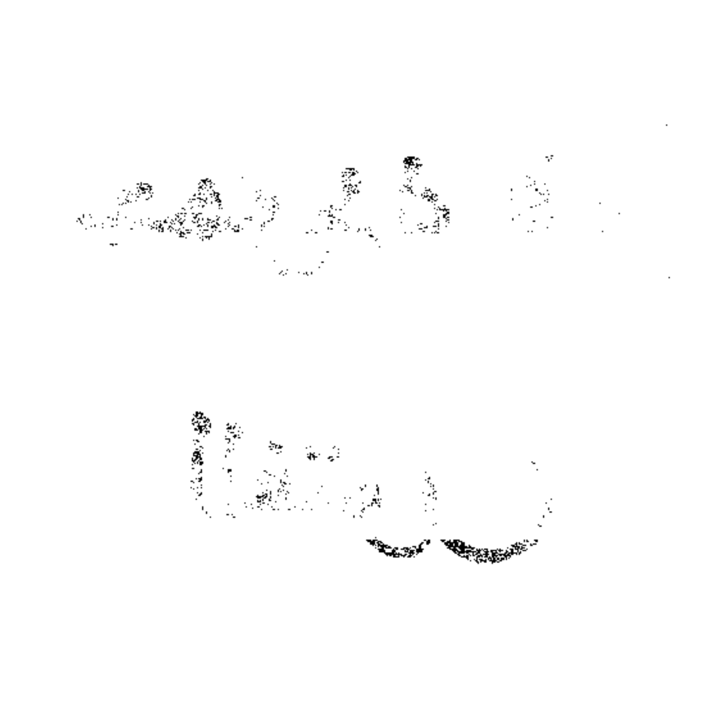
المشرق وأظهرت للمنصفين العقلاء أن فيها قوما لو قيسوا بكثيرين لربوا عنهم وما هم عنها بغافلين ... إن هذا الرجل أحيى هذا القطر بعلمه فمن الواجب على القطر أن يحي ذكره ويخلده بعد موته »[13].

ونتمنى أن ترى مخطوطاته النور هذه السنة، وتصدر ضمن الكتب المبرمجة في إصدارات تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية أو ضمن مشاريع ثقافية أخرى.. الخ.

---

[13] الشهاب، ج1، مج 7، فبراير 1931، ص 20-21.

جهوده في الفتوى



مميزات فتاوى الشيخ عبد الرحمان الجيلالي (رحمه الله)

أ.د. سعاد سطحي

جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

إن للشيخ عبد الرحمن الجيلالي رحمه الله ثقافة متنوعة، وهو من الشخصيات الجزائرية البارزة في مجال الفتوى، وله مكانة فقهية كبرى، ولا غرابة في ذلك فهو الذي تتلمذ في الزوايا والمساجد، وتلقى العلم على يد المفتين والفقهاء منهم الشيخ أبو القاسم الحفناوي صاحب كتاب (تعريف الخلف برجال السلف)، والذي عين للفتوى سنة 1927، إذ يعتبر الحفناوي مفتي العاصمة في وقته، وعين الشيخ الجيلالي في لجنة [illegible] التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد حماني رحمه الله.

وكان للشيخ عبد الرحمان الجيلالي برنامج بعنوان سؤال وجواب في الإذاعة والذي [illegible] بالإجابة على أسئلة المواطنين في مختلف القضايا الشرعية، وكانت الحصة من [illegible] الأستاذ عمارة عبد الكريم، وكانت له حصة تلفزيونية بعنوان أنت تسأل والمفتي [illegible] وهي حصة فقهية أسبوعية، وتعتبر وجها من أوجه نشاط لجنة الفتوى التابعة [illegible] الشؤون الدينية، وكان الشعب الجزائري يلجأ إلي هذه الحصص في كل ما يشغله [illegible] دينه، قال الشيخ رحمه الله عندما كرمته جريدة الشروق اليومي بمناسبة مرور مائة [illegible] من عمره يوم الأربعاء 10 سبتمبر 2008 م الموافق لـــ 10 رمضان 1429 هـــ .

:"كانت أسئلة المستمعين تصلني بكثافة، وكنت أحاول الإجابة عنها بدقة، مستعملا أسلوبا سهلا يتماشى وثقافة المواطنين." [1]

ولقد لقيت فتاواه انتشارا واسعا بين صفوفه لأنها كانت تمتاز بالمواصفات الآتية:

---

[1] صحيفة الشروق اليومي ليوم الخميس:2008/09/11 ، Difaf. Net موقع ضفاف الإبداع .

ـــ الدقة في الإجابة على أسئلة المواطنين:
مثال ذلك في حصة أنت تسأل والمفتي يجيب ورد عليه سؤال نصه : " رجل تقدم لخطبة بنت ورضع مع أخت والدها، هل يصح هذا الزواج ؟"
أجاب الشيخ رحمه الله :" إذا كان هذا الخاطب رضع أم السيدة تعتبر هذه البنت بنت أخيه فهو عمها، فكيف يجوز الزواج بها وهو العم؟، ثم يوجه الكلام للمعني ويقول: لا تحل لك : فهي بنت أخيك وأنت عمها رضاعا ."
ـــ إتباعه المذهب المالكي ، لكونه المذهب الأكثر انتشارا في الجزائر .
ففي حصة أنت تسأل والمفتي يجيب ورد عليه سؤال من امرأة تقطن بالقبة بالعاصمة نصه:" هل يصح زواج بنت أختها بابنها البالغ من العمر 32 عاما، مع العلم أنها أرضعت بنت أختها المتزوجة الآن، وأختها أرضعت بدورها ابنها ووقع ذلك في يوم واحد ومرة واحدة."
أجاب الشيخ رحمه الله :" بما أن ولدك رضع خالته أي أختك فجميع أبناء أختك هم إخوة له لأنه رضع أمهم، ويكفي هذا الجواب ."
فأفتى بأن قليل الرضاع وكثيره يحرم، وهو مروي عن علي وابن عباس والثوري والأوزاعي والليث[2]، وسعيد بن المسيب والحسن والزهري وقتادة والحكم وحماد[3]**المالكية**[4] .
واستدلوا على ذلك بما يأتي :
قال الله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ﴾ النساء:23

---

2 – فتح الباري 146/9.
3 – زاد المعاد 174/4.
4 – الإشراف 803/2، الاستذكار 259/18، المعونة 947/2.

فالآية أطلقت الحرمة ولم تخص قليل الرضاعة من كثيرها[5] ومعلوم بأن المطلَق يبقى على إطلاقه ما لم يرد دليل بتقييده.

حديث : "يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة ".[6]

إن الله عزّ وجلّ علق التحريم باسم الرضاع فأينما وجد اسمه وجد حكمه، وهذا الحديث ليس فيه ذكر لعدد الرضعات بل ورد مطلقا [7].

ـــ الاختصار في الإجابة عن أسئلة المواطنين:

ـــ خلال حصة سؤال وجواب وردت رسالة من امرأة نصها :" رضعت إحدى أخواتي مع بنت خالتي، فهل يجب علي أن أتحجب من إخوتها الذكور أي أبناء خالتي؟ ".

أجاب الشيخ الجيلالي بقوله : " باختصار وإجمال نقول إن كل من يحل التزوج معه أو به يعتبر في الشرع أجنبيا ، ويعامل معاملة عادية كجميع الناس، فأبناء خالتك أو عمك أو خالك هم في هذا الموضوع كسائر الناس."

ـــ وخلال حصة أنت تسأل والمفتي يجيب التلفزيونية ورد عليه سؤال نصه:" امرأة زوجها جدها وعمرها خمسة عشر عاما، ولم يسجل هذا الزواج إداريا، بل كان بالفاتحة فقط ومرت الأيام في عذوبة وانسجام، ثم حدث خلاف حاد بين الزوج وجد الزوجة الذي استبقاها في البيت(الجد) ومنعها من العودة إلى بيت الزوجية، بل طلقها جدها من زوجها، ومرت الأيام وزوّجها جدها ثانية دون أن يطلقها الأول، فما الحكم الشرعي في هذه القضية ؟ "

---

5 – الاستذكار 261/18..

6 – البخاري، كتاب النكاح، باب : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب 139/9 ـــ بالفتح ـــ ومسلم كتاب الرضاع 20/10 ـــ بشرح النووي.

7 – سبل السلام 1151/3.

أجاب فضيلته بقوله :" زواجها الأول شرعي وصحيح، أما الثاني فلا معنى له، لأن جدها حرمها من زوجها الأول، فهي متزوجة ، وزواجها الثاني فساد في فساد ولا يصح."

ـــ التفصيل في بعض الإجابات :

ومثال ذلك في حصة سؤال وجواب وردت رسالة من م ح من ميلة نصها :" فتاة أراد أن يتزوجها شخص ابن عمها مثلا ولكنهما اكتشفا بعد ذلك أن أخ هذا الشخص أرضعته أم الفتاة، ما حكم الشرع في مثل هذا الزواج إن تم؟ ".

أجاب الشيخ الجيلالي بقوله : " بما أن الزوج أو الخاطب لم يكن هو الذي رضع من أم المخطوبة إذا فلا حرج بأن يتزوج هذه الفتاة ، وإنما تحرم على أخيه الذي رضع أم الفتاة ، هو الذي لا تحل له، ولا يحل لها ، لا على أخيه الآخر والله أعلم ."

ـــ علاجه للقضايا المعاصرة :

ففي حصة أنت تسأل والمفتي يجيب التلفزيونية ورد عليه سؤال من عمال إحدى المؤسسات يسألون عن حكم الغذاء المقدم في مطعم مؤسستهم، والذي يحتوي غالبا على اللحم المستورد، كما يسألون عن حكم أكل اللحم المعلب والمستورد من بلدان غير إسلامية.

فأجاب فضيلته بقوله :" هذه المسألة ترى فيها خلافا بين عالمين معاصرين حسنين محمد مخلوف ومحمد متولي الشعراوي .

ولقد سئل حسنين محمد مخلوف عن حكم البولوبيف وهو لحم الثور المستورد فقال بأن ما غاب عنا من ذبائح أهل الكتاب يحل لنا شرعا مستشهدا بقوله تعالى "وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم" مع حسن الظن بهم .

أما الشيخ محمد متولي الشعراوي فقال بأن هذا أمر فيه ريبة، ولا يغرنكم ما جاء مكتوبا على بعضها :" ذبحت طبقا أو حسب الشريعة الإسلامية" .

[illegible] والخلاصة: فإن حققنا أن هذه اللحوم المستوردة من ذبائح أهل [illegible] كلناها ، وإن كان هناك ريب نتوقف والله أعلم ".

[illegible] في بعض المواطن:

— فمثال استشهاده بالقرآن الكريم :

ففي حصة أنت تسأل والمفتي يجيب التلفزيونية سئل عن امرأة تتضرر باستعمال [illegible] فتأخر الصلاة [illegible] فذكرها بقوله تعالى: ﴿ **فَتَيَمَّمُوا** ﴾ [8] وقال بأن الرخصة [illegible] وذكر [illegible] قوله تعالى :﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا** ﴾ [9]

ــ ومثال استشهاده بآثار الصحابة:

ففي حصة أنت تسأل والمفتي يجيب التلفزيونية سئل عن حالة طفل أُخر ختانه بسبب أنه حدث له نزيف، فذكرهم بقول الإمامين مالك بن أنس والليث بن سعد بأن الختان يكون ما بين سبع إلى عشر سنوات ، وبقول الصحابي الجليل ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: " كانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك أو يقارب الاحتلام ."

ــ تطبيقه لقاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان :

وردت إليه رسالة من فتاة خلال حصة أنت تسأل والمفتي يجيب التلفزيونية تقول فيها:" هناك شاب يريد أن يتقدم لخطبتها، وهي متأكدة من رفض وليها له بدعوى أنه ليس من

---

(8) النساء : 43. الآية بأكملها ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

(9) النساء : 103 .

الشرفاء ومن المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه "[10].

فأجاب: ' قوله صلى الله عليه وسلم : "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه " هذا هو الحكم الشرعي، وهذه هي الكفاءة ، ينبغي أن تكون هي كفأة له وهو كفئ لها ، وغير ذلك باطل لا أصل له" واستشهد بقوله : كلكم من آدم ..." [11].

ـــ نلاحظ من خلال فتواه أمرين :

الأمر الأول : أنه قصر الكفاءة على الدين فقط، ولم يعتبر الصفات الأخرى، موافقا بذلك رأي جمهور الفقهاء الذين استدلوا على اعتبار الصلاح من شروط الكفاءة بقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات : 13، وقوله ﷻ أيضا : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ السجدة : 18.

اعتبر الشيخ الكفاءة في الدين فقط وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ حيث قال : "فالذي يقتضيه حكمه ﷺ اعتبار الدين في الكفاءة أصلا وكمالا، فلا تزوج مسلمة بكافر ولا عفيفة بفاجر، ولم يعتبر القرآن والسنة في الكفاءة أمرا وراء ذلك، فإنه حرم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث ولم يعتبر نسبا ولا صناعة ولا غنى ولا حرفة فيجوز

---

[10] – تتمة الحديث " إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" رواه الترمذي، السنن، كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، عن أبي هريرة 274/2، ورواه أيضا عن أبي حاتم المزني وقال هذا حديث حسن غريب، وأبو حاتم المزني له صحبة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث، 274/2 .

[11] الحديث بأكمله: "لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب" البيهقي، شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، 289/4.

لعبد الغني نكاح الحرة النسيبة الغنية إذا كان عفيفا مسلما وجوز لغير القرشيين نكاح القرشيات ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات وللفقراء نكاح الموسرات"[12].

الأمر الثاني : ذكر الفقهاء قديما بأن الكفاءة مطلوبة في جانب الرجل دون المرأة فعلى الرجل أن يماثل المرأة في أمور مخصوصة، فلا يكون أقل منها شأنا، فهي تشرف بالارتباط برجل يماثلها أو يكون أحسن منها بينما تعيّر هي وأولياؤها إذا كان هذا الرجل دونها في الكفاءة.

يقول صاحب **المغني ــ رحمه الله ــ** :"الكفاءة معتبرة في الرجل دون المرأة فإن النبي ﷺ لا مكافئ له، وقد تزوج من أحياء العرب وتزوج صفية بنت حيي وتسرى بالإماء، وقال من كانت عنده جارية فعلّمها وأحسن تعليمها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران" متفق عليه. ولأن الولد يشرف بشرف أبيه لا بأمه، فلم يعتبر ذلك في الأم"[13].

بينما يرى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بأن الكفاءة لا تكون في جانب الرجل فقط بل تشمل المرأة **كذلك** ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن الصابوني وذلك أن الرجل يعيّر إذا ارتبط بامرأة غير مكافئة له وتعيّر أسرته ، ويقول في ذلك : "... لو خطب شخص من أسرة محترمة فتاة تعيش في المقاهي والمراقص تشرب الخمر وتسهر الليالي الحمراء، أنّ أسرة هذا الرجل تتعيرّ بهذا الزواج، ألا يتكلم الناس أن فلانا ابن فلان تزوج فتاة صفاتها كذا وكذا ويجعلونه حديث المجالس"[14].

---

12 – زاد المعاد 22/4.

13 – المغني 379/7.

14 – شرح قانون الأحوال الشخصية السوري 211/1.

ـ تفريقه بين الألفاظ التي تختلط على الناس :

وردت رسالة من ع م من تلمسان إلى حصة سؤال وجواب نصها:" كم من شابة كانت تقول لي، والله ما أنا متزوجة بفلان، لكن مع مرور الزمن جمعت الأيام بينهما، ثم فرقت بينهما. ما حكم الشرع في هذا الزواج؟."

فأجاب فضيلته بقوله:" فرق بين الأيمان والإيمان، الإيمان العقيدة والأيمان يمين القسم، الإيمان بالقضاء والقدر ثابت أي التصديق به، لكن المسألة تتعلق باليمين على المستقبل، يعتبر شرعا حانث، عليه كفارة يمين، إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، أو صيام ثلاثة أيام ."

ـ استعماله لبعض العبارات العامية انطلاقا من مبدأ مخاطبة الناس بما يفهمون :

خلال حصة أنت تسأل والمفتي يجيب التلفزيونية ورد سؤال ينص على أن هناك تاجر اشترى كمية من الإسمنت ، وقسمها على أكياس متفاوتة في الوزن، وباعها.

فأجابه بقوله :" هذا غش وهو تطفيف في الميزان، وهذا محرم لقوله تعالى :" ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" [15]

والتطفيف من أخص المعاصي يكفي أن القرآن يقول له ويل أي بوه عليك .

أما إذا كان يبيع كل كيس حسب وزنه فهذا جائز .

ـ تطبيقه لفقه الأولويات :

ومثال ذلك وردت رسالة من عبد الحفيظ ب من الميلية إلى برنامج سؤال وجواب الإذاعية نصها:" هل يجوز للشاب الأعزب الحج قبل زواجه أم لا ؟ مع العلم أنه معه مقدار من المال لا يكفيه للزواج والحج معا بل يكفيه للزواج وحده أو للحج وحده، وهو

---

15 – سورة المطففين 1 — 3 .

يرغب في الحج ويتمنى الحج أكثر من الزواج، فهل يصح له أن يحج ويترك الزوج أم لا؟"(٢)

أجاب فضيلته بقوله:" بالنسبة لهذا الشاب الأعزب، وقد توفرت لديه الاستطاعة مع وجود المال، فله أن يقدم الحج؛ لكون الحج ركن من أركان الإسلام الخمس بخلاف الزواج، فلا يبلغ شأن الزواج مبلغ الحج، لأن الحج ركن وفرض مع الاستطاعة، ويصح منه الحج ويسقط عنه الفرض ويتزوج ، ويبارك الله له في حياته حتى يتزوج ."

فنلاحظ بأنه أفتاه بتقديم الحج على الزواج لأن رغبة الشاب في الحج أقوى من رغبته في الزواج .

ـــ عدم ذكره للخلاف الفقهي بل يفتي بما يراه راجحا :

ورد إليه سؤال خلال حصة سؤال وجواب الإذاعية من تقرت قال فيه صاحبه ما ملخصه بأنه أقسم في حالة غضب أن يتجنب زوجته وتتجنبه ، ما الحكم الشرعي في هذا ؟

فأجاب بقوله:" السائل ذكر التحريم، ثبت عليه الطلاق، وكانت تحيط به ظروف الغضب نفتيه بحكم الطلاق البائن، الذي يترتب عليه تجديد عقد الزواج إن أراد مراجعة زوجته بجميع أركانه وشروطه ...."

فالملاحظ أن المسألة خلافية لكن الشيخ أفتاه بما هو راجح عنده ولم يدخله في الخلافات الفقية .

من خلال ما سمعناه من فتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي نلاحظ بالإضافة [illegible]

الآتي :

– أسلوب الشيخ في الفتاوى سهل وبسيط يفهمه جميع المواطنين .

– الوسطية والاعتدال، حيث كانت فتاواه وسطا لا إفراط فيها ولا تفريط.

– فهم المجتمع الجزائري، وذلك بمعرفة عاداته وتقاليده، فكانت الفتوى تشخص الداء وتعطي الدواء المناسب، وتشفي المريض .

– حل الأسئلة التي كانت تطرح عليه في فقه العبادات، ثم في الأحوال الشخصية وأقلها في المعاملات المالية.

– كان الشيخ يختصر في إجاباته لكي يتسنى له الإجابة على أكبر عدد ممكن من أسئلة المواطنين، وبالتالي تعم الفائدة على الجميع .

منهج الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في الفتوى

د. نور الدين صغيري

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

تمهيـــد

إن المولى عز وجل أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم حجـــة على خلقه بأن أحكامه تعالى قد بلغتهم فعرفوها؛ يقول عز وجل: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ"[1]

ولا يتم ذلك إلا بالبلاغ، والمبلّغ هو الرسول ﷺ - في حياته وحضوره -، والقائمون مقامه من أهل العلم – في غيبته وبعد وفاته –؛ لذلك ألزم الله سبحانه من لا يعلم أحكامه أن يسأل عنها ويتعلمها ليعمل بها بقوله تعالى: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ[2]

كما أوجب على أهل العلم أن يبيِّنوا ما عندهم من العلم، ويعلّموه للناس بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ[3]

و في الحديث قوله ﷺ ((من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار))[4]

---

1) الأنفال 42 :

2) النحل: 43.

3) آل عمران: 187

4) أخرجه أحمد في مسنده،كتاب: الجهاد، باب: الترغيب في الجهاد وفضل الشهادة. (ط: بيروت: دار الفكر

و بهذا يلتقي الطرفان على معرفة أحكام الله في أفعال العباد فتقوم الحجة، و عليه تكون إجابة السائل عن حكم الله سواء كان في واقعة أم في غيرها واجبا على الجملة، لذلك كان المفتي خليفة النبي صلى الله عليه وسلم في الإفتاء؛ لأنه يبيّن للمستفتي ما فهمه من النصوص التي جعلها الله أدلة عليه، لمن لا يستطيع فهمه منها مباشـــرة،كما أن عمله لا يقتصر على مجـــــرد نقل معـــاني النصوص وإنما يتجاوزها، فينظر في حال المستفتي و صورة النازلة، فيعرف الحكم عند تحقيق مناطه فيها بما أنه يجتهد أحيانا الاستنباط فيكون مبلغا ومخبرا عن الله تعالى كالنبي ﷺ[5]

وتتأكد أهمية الفتوى وخطرها من جهة أخرى؛ ذلك أن هذا المنصب تولاه سبحانه و تعالى بنفسه إذ يقول:]يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ[6]

فالصحابة استفتوا النبي ﷺ فلم يكل الله تعالى إليه الفتوى، بل تولاها بنفسه وأسندها إلى ذاته المقدسة.

ولذلك كان الإفتاء عظيم الخطر، بعيد الأثر في حياة الفرد و الأمة، فالفقهاء الذين دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، والذين خُصّوا باستنباط الأحكام وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، هم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يهتدي الحيران، وحاجة الناس إليهم عظيمة؛ وإذا كنا لا نتصور الاستغناء عن الأطباء بادعاء أنّ النّاس يمكنهم النظر في كتب الطب والأخذ ما يلزمهم منها، فكذلك – هنا – نقول: إنه ليس

5) الشاطبي، الموافقات، شـــرح: عبد الله دراز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 2003، 178/4؛ 179.

6) النساء: 176.

بالإمكان استغناء الناس عن المفتين، فأثبت للعلماء خصيصة فاقوا بها سائر الأمة، لما هم بصدده من أمر الفتوى ؛ يقول ﷺ:(العلماء ورثة الأنبياء)[7]، واستنادا إلى هذا الحـــديث يقرر الشاطبي: « أن المفتي قائم في الأمة مقام النبي ﷺ [8]

فنظرا لأهمية هذا المنصب ارتأيت أن أجعل مدخلا تمهيديا أتناول فيه حياة الشيخ عبدالقادر الجيلالي ثم أتناول بعض الجوانب المهمة المتعلقة بالإفتاء، ، التي تساعد القارئ فيما بعد على فهم منهج الشيخ الإمام عبدالقادر الجيلالي .

ورغم صعوبة الموضوع وشح وندرة المصادر المكتوبة التي يمكن اقتباس منهج الشيخ في الفتوى منها إلا أن ما أسعفنا به وتفضل بإحضاره سعادة نائب المدير الأستاذ الدكتور محمد السامعي من أقراص مدمجة لبرنامج سؤال وجواب كان كفيلا بأن يغطي بعض الجوانب من هذا البحث. فقد استمعت لكل الحلقات ، وكانت متنوعة في أبواب مختلفة في الفقه الإسلامي مما ألهمني استنباط منهج للشيخ في الفتوى.

منهجه في الفتوى من خلال برنامجه الإذاعي "لكل سؤال جواب"

كما سبق أن قلت بعد استماعي إلى تلك الحلقات أمكنني أن ألخص منهجه وأمثل لكل مطلب بمثال أو مثالين من فتاواه على الهواء في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الإخـــلاص والورع والتثبت في الفتوى

السلامة بين يدي الله عز وجل في موقف الحساب العظيم، فلا نبدل ولا نغير في دين الله ما لم يأذن به سبحانه. ومن هذا المبدأ شعرت وأنا أسمع الشيخ عبدالرحمن من خلال برنامج "سؤال جواب" روح الإخلاص والورع في الفتوى والتثبت خاصة عند ختم كل إجابة بقوله: الله أعلم فهو

---

7) أخرجه أبو داود في سننه، ح:3641 (317/3)؛ وابن حبان في صحيحه، ح 88. (289/1).
8) الموافقات، 178/4

المطلب الثاني: الإفتاء بمشهور المذهب المالكي

مسائل الفقه الإسلامي مسائل كثيرة ومتنوعة ومتعلقة بجميع ميادين الحياة وممارسات البشر، وقد ترك لنا علماء الإسلام ثروة هائلة من الأحكام والتشريعات التي تنير حياة الناس بأنوار الحكمة الربانية، وتبني اختياراتها الفقهية والتشريعية على أساس متين من مصادر التشريع المعتبرة، التي هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس والمصالح المرسلة.

وقد استقر هذا التراث الفقهي في أربعة من المذاهب الفقهية المعتبرة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، ووقع الإجماع على اعتمادها واعتبارها طرائق موصلة إلى تحقيق رضوان الله عز وجل، وإلى حفظ مصالح البلاد والعباد.

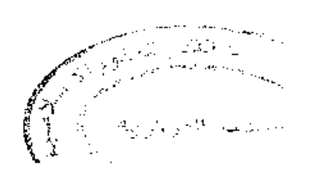
ولما كانت دائرة الإفتاء العام حلقة من حلقات المسيرة العلمية للحركة الفقهية العامة، اختارت أن تعتمد واحداً من المذاهب الفقهية الأربعة منطلقاً وأساساً للاختيارات الفقهية المفتى بها، كي يتحقق من خلال هذا الاعتماد ما حققته الحركة الفقهية عبر التاريخ الإسلامي كله من فوائد ومصالح عظيمة

المطلب الثالث: اعتماده في فتاويه على كتب المتأخرين

اختار الشيخ عبدالرحمن مذهب الإمام مالك أساساً ومنطلقاً للفتوى في بلادنا المباركة، وذلك لسببين اثنين:

أولاً: أنه المذهب الغالب في بلادنا عبر التاريخ، و مراعاة الغالب مقصد شرعي.

ثانياً: أنه مذهب وسطي جمع بين أصول مدرستي الحديث والرأي، وخرج باجتهادات فقهية كانت وما زالت سبباً في تحقيق مصالح الأمة وجمع كلمتها، وهذا السبب –وإن كان متحققاً في المذاهب الفقهية الأخرى– إلا أن مذهب الإمام مالك حاز قصب السبق فيه.



والتزام الشيخ بالفتوى على مذهب الإمام مالك لا يعني التقليد التام لاجتهادات فقهاء المذهب، بل له رؤية متقدمة في طريقة الاستفادة من جميع مفردات المذاهب الفقهية ضمن المعطيات الآتية:

إذا تعلقت المسألة بنازلة جديدة من نوازل العصر غير منصوص عليها في اجتهادات الفقهاء، أو كانت من المسائل العامة التي تتعلق بالمجتمع كله أو الأمة كلها، سواء في مسائل المعاملات المالية أو النوازل الطبية أو غيرها: فلا بد للدائرة حينئذ من إعداد أبحاث خاصة لدراسة المسألة في ضوء الأدلة الشرعية والقواعد الفقهية والموازنة بين المصالح والمفاسد، تخلص من خلالها إلى حكم شرعي يعرض على (مجلس الإفتاء) للبحث والتداول، ثم الوصول إلى قرار خاص بشأن تلك المسألة.

إذا كان اجتهاد المذهب المالكي في مسألة معينة لا يناسب تغير الزمان والمكان والظروف المحيطة بسؤال المستفتي، كأن يؤدي إلى حرج شديد، أو مشقة بالغة، أو اختلفت العلة التي من أجلها نص فقهاء الشافعية على ذلك الاجتهاد، أو استجد من المعلومات والحقائق العلمية ما يدعو إلى إعادة البحث في الاختيار الفقهي: ففي جميع هذه الحالات يقوم الشيخ عبدالرحمن بإعادة دراسة المسألة في ضوء القواعد الفقهية والمقاصد الشرعية، وتستفيد من اجتهادات جميع المذاهب الإسلامية للوصول إلى الحكم الشرعي الأقرب إلى مقاصد الشريعة.

وأما في قضايا الأحوال الشخصية، كالنكاح والطلاق والحضانة والميراث، فإن الشيخ وجدته يعتمد في الفتوى مذهب مالك ولا يكاد يخرج عنه قيد أنملة.

المطلب الرابع: أهم المصادر التي اعتمـــدها في فتاويه

ومن مصادره المعتمدة مختصر خليل وشروحه[9] وقد جاء في كثير من إجابته على أسئلة المستمعين نصوص من هذا المختصر فعلى سبيل المثال لا الحصر .
عندما سئل عن الشخص الذي لم يصل طوال النهار الصلوات الخمس ولما جاء وقت صلاة العشاء كيف يمكن له قضاء هذه الصلوات.
قال الشيخ رحمه الله: الجواب عن ذلك هو أنه يقضيها بالترتيب ، وإن شاء صلى العشاء ثم يأتي بالصلوات الفائتة من يوم الحاضر مرتبة من الصبح إلى المغرب ، وصلاة المغرب

---

(9) مختصر خليل . أما صاحب المختصر فهو أبو المودة خليل بن إسحاق بن موسى الجندي الفقيه التقي الورع كان مجتهدا في التحصيل وكان لا ينام الا قليلا حتى قيل انه ظل اربعين سنة لم ير فيها النيل، توفي رحمه الله سنة: 776هـ - 1374م ومن أشهر مشايخه الإمام أبو عبدالله بن الحاج صاحب المدخل ومن اشهر تلامذته الامام بهرام بن عبدالله الدميرى وهو أحد شراحه من أهم مصنفاته كتاب التوضيح وهو شرح مختصر ابن الحاجب المسمى جامع الامهات وفيه اختياراته الفقهيه، شرح على مختصر ابن الحاجب الاصلى ،شرح المدونه لم يكمل ، له منسك فى أحكام الحج .

أما مختصره فبعد أن قام الإمام خليل بن إسحاق بشرح مختصر الإمام بن الحاجب الفرعي المسمى بجامع الأمهات الذي جمعه من أمهات كتب المالكية في كتاب أسماه "التوضيح" وهو يقع في ست مجلدات قام باختصاره إلى مختصره المشهور الذي أصبح عمدة الفتوى وقد كتبه إلى النكاح وجمعه بعده تلميذه بهرام وقد كتب الإمام بهرام باب المقاصة أي أنه أضافه للكتاب. انظر: المصادر الآتية مع شيء من التصرف المدخل الى دراسة المذاهب الفقهيه د/على جمعه محمد طبعة دار السلام مصر، والاصطلاح عند المالكيه د/ محمد إبراهيم على طبعة دار البحوث بالإمارات العربية.

ومن شروح خليل -شرح الامام الاجهورى مخطوط ، شرح بهرام بن عبدالله الدميرى فى ثلاثة شروح صغير ووسط وكبير
،ابن المواق شرحه فى التاج والإكليل مطبوع ،الإمام الحطاب شرحه فى مواهب الجليل مطبوع، الإمام الخرشى وعليه حاشية العدوى مطبوع ،الامير الكبير كما فى الاكليل مطبوع قديما ، صالح بن عبد السميع الأبي الأزهري كما في جواهر الإكليل مطبوع

داخلة في هذا الترتيب ، فإذا وجد جماعة يصلون العشاء يصلي معهم ثم يقضي ما بقي مرتبا " **وهل أربع أو خمس خلاف**" كما قال خليل، ولا يعيد العشاء إذا صلاه.

وموطن الشاهد هو الاستدلال بكلام الشيخ خليل رحمه الله[10].

مثال آخر: مواطنة تسأل تقول بعد العادة الشهرية يسيل مني سائل أبيض وأنا صائمة، فهل يا ترى أنا صائمة أم مفطرة.

يقول الشيخ الجواب : إنما تعتبر الحائض طاهرة بإحدى شيئين – فهي تقول:(أنها حائض ويأتيها ماء أبيض..الخ) والشيئان اللذان هما الطهر هما: إما جفوف كما قال خليل أو شيئ آخر وهو ما يسمى بالقصة، وهو ماء أبيض يخرج من الفرج، فإذا رأت الماء أي هذه المادة فمعناها أنها طهرت من الحيض فتشرع إذن في الغسل وتأتي بالواجبات والعبادات كالصلاة والصوم قال خليل ": والطهر بجفوف أو قصة"[11] وهذه قِصَّة القَصَّة.

---

10) يقول الحطاب وهل) أكثر اليسير (أربع) وهو مذهب الرسالة وظاهر المدونة عند جماعة (أو خمس) وهذا قول مالك رضي الله تعالى عنه وتؤولت المدونة عليه أيضا ، وقدمه ابن الحاجب واقتصر عليه الجلاب وعبد الوهاب ، وصوبه في المقدمات وشهره المازري من الصلوات من أصل الفوات

والباقي بعد قضاء بعضها في الجواب (خلاف) أي قولان مشهوران ، هذه طريقة ابن يونس وطريقة ابن رشد أن الأربع مختلف فيها كالخمس ذكرهما عياض وأبو الحسن ومفهوم يسيرها تقدم الحاضرة على كثيرها وهو كذلك ندبا إن اتسع وقتها ووجوبا إن ضاق. منح الجليل شرح مختصر خليل محمد بن أحمد عليش دار الفكر سنة النشر: 1409هـ/1989م رقم الطبعة: د.ط 285/3.

11)

المطلب الخامس: تغليب روح التسهيل والتيسير على التشدد والتعسير

المطلب السادس: مراعاة أعراف المستفتين وعاداتهم

المطلب السابع: مراعاة مقاصد الشريعة بجلب المصالح ودفع المفاسد

المطلب الثامن: حرصه على اتباع السنة ومحاربته للبدع

مثال أما سؤالكم الثاني المتعلق بصلاة النافلة بعد الوتر ، فنعم إن كان بعد فصل كأن يقوم بعمل أو ينتقل إلى مكان آخر أو محل آخر كأن يخرج من المسجد إلى داره فله أن يتنفل ، أو يتربص قليلا بعد الوتر ثم يتنفل ، أما من نوى أن يصلي الشفع والوتر ثم يتنفل فهذا مكروه **وهذا هو المخالف للسنة** والله أعلم

وموطن الشاهد مخالفة للسنة

الفتوى والتجديد الفقهي عند العلامة عبد الرحمن الجيلالي

د. عبد القادر جدي

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

تعد دراسة آثار الشخصيات العلمية و الأدبية مدخل لمعرفة الصناعة الحضارية في أمة من الأمم، و إذا كان بعض الأفراد يعدون مفاتيحا للولوج إلى شخصية أمة في فترة من فترات تاريخها، فإننا لا نبالغ إذا زعمنا أن عبد الرحمن الجيلالي يعد بحق بما تركه من إرث فقهي و تاريخي و ادبي، و بما تمتع به من أريحية في شخصيته، و تعدد في مواهبه، و تنوع في كتاباته، سماحة في خطابة، و شعبية في لغته، و تفنن في معارفه، يعد مفتاحا للشخصية الجزائرية المثابرة و المجتهدة لتحقيق الارتقاء في سلم الحضارة و المدنية.

و سنحاول في هذه المقالة أن نبرز شخصيته في ميدان واحد فقط مما كان له في البروز والظهور، فالفتوى و هي احدى المجالات التي اشتغل فيها و برز و بز أقرانه و معاصريه في سهوله مأخذه فيها و إقبال المستفتين على الارتشاف من ينبوعها الصافي.

لقد اهتم الشيخ بالفتوى أيما اهتمام، و أعطاها من عمره عشرات السنين، و سجل مئات التسجيلات الصوتية التي يتوجب على طلبة العلم الاهتمام بنشرها و تحقيقها.

و دراستنا المختصر لمنهجه في الفتوى جعلناها مدخلا للدعوة إلى تجديد الفقه الإسلامي، سواء بتبسيط خطابه ليراعي محددات الأعراف العامة،أو بضرورة تأطير الفتوى و حمايتها من الدخلاء و غير المؤهلين، و هذا لا يكون إلا بالتفكير جديا في إنشاء دار للفتوى ومجمع فقهي

الفتوى في اللغة : طلب الجواب عن الأمر المشكل، و منه قوله تعالى: ولا تستفت فيهم منهم أحدا، و قد تكون مجرد السؤال ومنه قوله تعالى: (فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا[1])، أي أسألهم.

أما الفتوى في الاصطلاح: فهي الإخبار بحكم الله تعالى عن الوقائع بدليل شرعي[2]، أي تبيين الحكم الشرعي لمن سال عنه بدليل، و هذا يشمل السؤال في الوقائع و غيرها، و قيل: هي إظهار و تبيين المشكل من الأحكام على السائل[3]، و عرفها القرافي بقوله: (الفتوى إخبار عن الله تعالى في إلزام أو إباحة، أو هي الإخبار بالحكم من غير إلزام[4]).

و قال آخرون: هي ما يخبر به المفتي جوابا لسؤال أو بيانا لحكم من الأحكام، و إن لم يكن سؤالا خاصا، و قد فصل الشيخ شلتوت المعنى الاصطلاحي بقوله: الفتوى بيان لشأن لم يسبق فيه بيان، و احتاج الناس إلى معرفة حكم الله تعالى فيه، فسألوا عنه.

أو هي بيان لشأن نزل فيه من قبل و لكن اتصلت به عند الناس جهات و اعتبارات جعلتهم في حاجة إلى توضيحه، فسألوا طلبا للتوضيح و الكشف عنه لأن الناس قد درجوا من عهد التنزيل إلى يومنا هذا أن يبين لهم علماؤهم أحكام دينهم بيانا كأسلوب القرآن الكريم:

-إما بيانا للأحكام بطريق لم يسبق بسؤال.

- أو بيانا مسبوقا بالسؤال، و هو الفتاوى[5].

1- سورة الصافات، آية 11.

2-ابن حمدان، صفة الفتوى و المفتي،4

3-الألوسي، روح المعاني،159/5.

4- القرافي، الفروق،53/4.

5- شلتوت، فتاوى معاصرة،ص 7.

فالفتوى إذن حكم شرعي يبينه و يظهره المفتي، فقيه النفس المتمكن من معرفة أحكام الوقائع بالدليل الشرعي للمستفتي الذي طلب جوابا لما أشكل عليه من الأحكام الشرعية[6].

لذلك قال ابن القيم: المفتون هم فقهاء الاسلام الذين دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، و الذين خصوا باستنباط الأحكام، و عنوا بضبط قواعد الحلال و الحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، و حاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام و الشراب، و طاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات و الآباء بنص الكتاب[7].

شروطه:

– لا شك أن الجيلالي كان على دراية بالمذهب المالكي الذي تفقه به على شيوخه، و لقد كان يشير في فتاواه إلى بعض مصادر المذهب كالموطأ و الرسالة، و إشارته إلى المرشد المعين ليست من باب ذكر أصول المذهب بل هو من باب ذكر ماهو متعارف عليه عند المتعلمين على المذهب المالكي، فإن هذا المؤلف الصغير في الحجم الغني بأهم الأحكام الأصولية و العقائدية و العبادية و السلوكية التي كان ينشأ عليها أطفال الجزائر، كان متداولا و معروفا في القطر الجزائري و كان حفظه و استظهاره و الفتوى بناء عليه يعطي قوة للفتوى و مصداقية للمفتي.

– و هل تعد إحاطة العلامة الجيلالي بالمذهب تبحرا و تمكنا و اجتهادا أم مشاركة و تفننا؟ لا شك أن ما بين أيدينا من تراثه السمعي و المرئي في الفتاوى لا يسمح لنا بإعطائه صفة الفقيه المجتهد، و إن أمكننا بأن نصفه بالمفتي المجد الحي العالم بتقاليد بلده و أسلوب الخطاب و التواصل مع أكثر الفئات الشعبية، نقرر ذلك بناء على الشروط الكثيرة التي ذكرها الفقهاء للمفتي المجتهد، فقد نقلوا عن الشافعي قوله: لا يحل لأحد أن يفتي في دين

---

6 حسين الملاح، الفتوى، نشأتها و تطورها، أصولها و تطبيقاتها، 398/1.

7 ابن القيم، اعلام الموقعين، 9/1.

الله تعالى إلا رجلا عارفا بكتاب الله ، بناسخه و منسوخه، و بمحكمه و متشابهه، و تأويله و تنزيله، و مكيه و مدنيه، و ما أريد به به، و فيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله –ص– بالناسخ و المنسوخ، و يعرف من الحديث ما عرف من القرآن، و يكون بصيرا باللغة، بصيرا بالشعر، و بما يحتاج إليه للعلم و القرآن، و يكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأمصار، و تكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هكذا، فله أن يتكلم و يفتي في الحلال و الحرام[8].

و قال حجة الإسلام:ينبغي على المفتي أن يكون محيطا بمدارك الشرع، متمكنا من استثارة الظن بالنظر فيها، و تقديم ما يجب تقديمه و تأخير ما يجب تأخيره عالما بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية، و بما يشترط في الأدلة، ووجود دلالتها، و يكفيه اقتباس الأحكام منها، فقيه النفس سليم الذهن، صحيح التصرف و الاستنباط يمكنه الاستدلال بالدلائل الشرعية على الأحكام له ملكة يقتدر بها على استخراج الأحكام الشرعية من مآخذها المعتبرة.

فمن قامت فيه الملكة الفقهية، و أهلية الاجتهاد و استطاع أن يستخرج الأحكام من أدلتها عن طريق البحث و الاستنباط فهو المفتي المجتهد الذي يحل له الافتاء.

أما إذا لم يكن من أهل الاجتهاد، و كان يحفظ أقوال المجتهد، فلا يحل له أن يفتي إلا بطريق الحكاية، فيحكي ما يحفظ من أقوال الفقهاء، و فتواه ليست بفتوى؛ بل هي نقل كلام المفتي ليأخذ به المستفتي[9].

و يستخلص من هذا أن من كان في درجة التقليد و إن كان عارفا بالأدلة و مسالك اجتهاد إمامه تحل له الفتوى بل يعد مفتيا، و إن إحاطة العلامة الجيلالي بالفقه و التاريخ و الأدب، و ما شهد له به من سعة الذاكرة و ذرابة اللسان و سعة الأفق ليشهدان له بالفطانة في الفقه و القوة في تحقيق مناط الحكم و حسن الفتوى و التنزيل على الوقائع و الأحداث الجديدة.

---

[8]– البغدادي، الفقيه و المتفقه،157/2.

[9]- الغزالي، المستصفى، 350/2.

- و من الشروط المتحقق بها من لدن العلامة الجيلالي تيقظ الذهن، و قد تولى عديد من الأعلام شرح معنى هذا الشرط، فذكر العلامة ابن عابدين معناه بقوله:و شرط بعضهم تيقظ المفتي احترازا عمن غلب عليه السهو و الغفلة، قال: و هذا شرط لازم في زماننا، فلا بد ان يكون المفتي متيقظا، يعلم حيل الناس و دسائسهم، فإن لبعضهم مهارة في الحيل و التزوير، و قلب الكلام و تصوير الباطل بصورة الحق، فغفلة المفتي يلزم منها ضرر عظيم في هذا الزمان[10].

أما الخطيب البغدادي فقد شرط في المفتي: أن يتعلق بطرق من معرفة كل شيء من أمور الدنيا و الآخرة، و إلى معرفة الجد و الهزل، و الخلاف و الضد، و النفع و الضر، و أمور الناس الجارية بينهم، و العادات المعروفة منهم، و لن يدرك ذلك إلا بملاقاة الرجال، و الاجتماع مع أهل النحل و المقالات المختلفة، و مساءلتهم، و كثرة المذاكرة لهم، و جمع الكتب و درسها و دوام مطالعتها[11].و قال ابن القيم: ينبغي للمفتي أن يكون بصيرا بمكر الناس و خداعهم و أحوالهم، و أن يكون حذرا فطنا فقيها بأحوال الناس و أمورهم يوازره فقهه في الشرع و إن لم يكن كذلك زاغ و أزاغ، فالغر يروج عليه زغل المسائل كما يروج على الجاهل بالنقد زغل الدراهم، و ذو البصيرة يخرج زيفها كما يخرج الناقد زغل النقود، و كم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه و تنميقه في صورة حق، بل هذا أغلب أحوال الناس، فإن لم يكن المفتي بصيرا بمعرفة أحوال الناس تصور له المظلوم في صورة الظالم و عكسه[12].

مكانة المفتي من الأمة:

---

[10]-ابن عابدين، رد المحتار،301/4.

[11]- الخطيب البغدادي، الفقيه و المتفقه،158/2.

[12]- ابن القيم،أعلام الموقعين،229/4.

- مثل الجيلالي في الجزائر و قيامه بفرض التعليم و الفتوى، كمثل الأنبياء و قيامهم بمهمة التبليغ و البيان ، و لذلك قال الشاطبي: المفتي قائم في الأمة مقام النبي-ص- و هذا القيام يكون بجملة أمور:

منها:الوراثة في علم الشريعة بوجه عام.

و منها: بذل الوسع في استنباط الأحكام في مواطن الاستنباط.و الدليل على ذلك أمور:

أولا: النقل الشرعي في الحديث:و إن العلماء ورثة الأنبياء، و إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما و إنما ولاثوا العلم[13].

ثانيا: إنه نائب عنه في تبليغ الأحكام لوله-ص- ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب[14].و إذا كان كذلك فهو معنى كونه قائما مقام النبي-ص- بوصفه وارثا لعلم النبوة، و مبلغا إياه للناس، و بوصفه معلما و مرشدا للأمة و منذرا لها و مبشرا.

ثالثا: إن المفتي شارع من وجه، لأن ما يبلغه من الشريعة، إما منقول عن صاحبها، و إما مستنبط من المنقول.فالأول يكون فيه مبلغا، و الثاني: يكون فيه قائما مقامه في إنشاء الأحكام، و إنشاء الأحكام إنما هو للشارع، فإذا كان للمجتهد إنشاء الأحكام بحسب نظره و اجتهاده فهو من هذا الوجه شارع، واجب اتباعه، و العمل على وفق مقاله.

و على الجملة: فالمفتي مخبر عن الله تعالى كالنبي، و موقع للشريعة على أفعال المكلفين بحسب نظره كالنبي، و لذلك سموا أولي الأمر، و قرنت طاعتهم بطاعة الله و رسوله[15] في قوله تعالى: يأيها الذين آمنوا و أطيعوا الله و الرسول و أولي الأمر منكم[16].

---

[13] - أخرجه أبو داود، في العلم، باب الحث على طلب العلم،317/3. و الترمذي، باب ما جاء في فضل الفقه و العبادة 48/5.

[14] - البخاري، باب ليبلغ الشاهد الغائب، 199/1.

[15] - الشاطبي، الموافقات،245/4-246.

[16] - سورة النساء، آية 59.

– و هكذا كان الجيلالي يستشعر هذا المعنى و يركز عليه في فتاويه المسموعة و المرئية، فقد كان لا يفتأ يذكر بالمعاني الإلهية و المقاصد الشرعية العليا في الأحكام، و يديم تذكير السائلين بأن ما يجيبهم به ليس مجرد أحكام جافة يتلقونها و يفهمونها ثم ينصرفون، بل يدمج في إجاباته الدعوة إلى حسن الخلق و الاستجابة للخالق، ففي فتوى حول المتكاسل عن صلاته بين رحمه الله مذهب المالكية في المسألة بالقول: إن الصلاة أفضل العبادات بعد الإيمان بالله و هي ثاني أركان الإسلام، و هي من أفضل أعمال البر، و هي فرض عين على كل مكلف،و جاء بحديث أبي هريرة،قال سمعت رسول الله –ص– يقول: إن أول ما يحاسب به العبد بصلاته، فإن صلحت فقد أفلح و أنجح، و إن فسدت فقد خاب و خسر[17]، ثم قال و الذي عليه أكثر أهل العلم، أن من ترك الصلاة تكاسلا ليس بكافر، و لكنه فاسق عاص مرتكب كبيرة من الذنوب، يستحق عليها أبشع العقاب، و استند إلى حديث معاذ قال: سمعت رسول الله يقول:خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا، استخفافا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، و من لم يأت بهن، فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه و إن شاء أدخله الجنة[18].

ـ كان يراعي المصالح الاجتماعية في الفتوى، و كان مع سداد وقوفه على أنواع المصالح لا يتوسع فيها حتى يبطل النص أو يلوي عنقه لتحقيقها، ففي فتوى له في الطلاق، أفتى بوقوع الطلاق باللفظ الكنائي، الذي يترل مترلة اللفظ الصريح إذا قارنته النية بتنجيز الطلاق، مراعيا في ذلك المجمع عليه عند فقهاء المذهب و غيرهم، و لما ذكر له أن صاحب المسألة ندم ، و أن له العديد من الصغار، أهمه ذلك و لكن أوقع طلاقه و نصح المستمعين كافة أن يتنبهوا لما تنطق به ألسنتهم، و ألا يجعلوا جهلهم سببا لخرابهم، حتى لا يكون مصيرهم و عوائلهم مثل هذا المستفتي.

---

[17]– النسائي، 187/1.

[18]– الموطأ، 123/1.

فهو لا يفتي متسترا بالمصلحة ايتخذ منها هدفا للتفلت من أحكام الشريعة،أو يتحايل عليها اتباعا لهواه، ثم يدعي أن ذلك من الأخذ بالرخص و التيسير، فهذا تجديف باطل، و تلبيس على العباد، و اتباع للأهواء و الشهوات باسم التيسير، و ترك التشديد وصولا إلى تحلل المجتمع المسلم من شريعته و قيمه و أحكامه.

مثال ذلك: ما يفتي به اليوم أدعياء الحرية و المساواة من مخالفة شرع اللع تعالى بتحريم الطلاق، أو تعدد الزوجات، أو بمساواة الذكر بالأنثى في الميراث تحت ستار المصلحة الموهومة لحماية الاسرة، رغم علمهم أن هذه المصلحة مخالفة للنصوص الشرعية و الإجماع.

أو من ينصب نفسه ليفتي بأن من مصلحة اقتصاد البلاد زراعة المخدرات و تصنيعها ثم بيعها، أو تصنيع العنب خمرا ثم بيعها تنمية للاقتصاد و تحقيقا لمصلحة البلاد، لأن في تركه حسب زعمه تضييعا للمصلحة و مضرة بالعباد و البلاد.

أو كمن يفتي بأن الربا أو ما يسمى أرباح البنوك-أو العوائد، حلال و طريق سليم لاستثمار المال، لأن تحديد الأرباح مسبقا من قبل البنوك التجارية هو الأقرب إلى الإسلام، و ذلك لأن فيه مصلحة لرب المال حيث ينمو و يزداد[19]، فمثل هذه الفتاوى تجنبها فقيهنا و تبرأ منها لم يستسلم لضغط الأهواء أو إغراءات الواقع .

_ لم يكن الشيخ من أنصار الفتاوى التبريرية أو الترخيصية، كما لم ينهج فيها إرضاء رغبة الحاكم و تحقيق أمانيه و رغباته، و لم يكن يفصل الفتوى حسب الطلب كما هو حال الكثير من المفتين في البلاد العربية، إذ صار الحاكم لا يسأل المفتي عن حكم الشرع، بل يطلب منه فتوى شرعية تبرر موقفه و عمله، فالحاكم هو الذي يفصل الفتوى و يطلبها من المفتي، و المفتي عليه أن يعمل بمهارته للبحث عن النصوص، أو لتأويل النصوص و لي أعناقها ليقدم للحاكم ما يطلبه، فالشيخ لم يخض في العقود البنكية المشوبة بالربا، كما لم يبح بيع أو التصرف في الأراضي الوقفية، و لم يتسامح في تطاول المتطاولين على قانون

---

[19] حسين الملاح، الفتوى، 496.

الأسرة، بدعوى العصرنة و التطور.و كان مالكيا قحا في مسائل الرضاع ، فلم ينهج منهج التوسع في إباحة الزواج مع وجود شبهة الرضاع أو أقل عدد ثابت فيه، بل كان يحض على ترك الزواج تحريما أو احتياطا لأدنى شبهة، حرصا منه على أن تبنى هذه العلاقة على السكينة التي لا يشوبها ندم، و على المحبة التي لا يعكرها اشتباه.

– أثناء الفترة العصيبة التي مرت بها الدولة الجزائرية منذ عشرين سنة كان من رأي الشيخ تداعي الجميع إلى الشرع و الحكمة و التوسل بالعدل و القسط في التعامل مع الفتن، و كان رأيه ناصعا و بيانه صادحا في نصرة قضية المصالحة الوطنية، إذ رأى فيها الملاذ الآمن و الحكم الراشد لحقن الدماء و دفع المظالم و إزالة الفتن و تقوية البلاد حتى لا يبقى لمظلوم مترع و لا لطامع أجنبي في خيرات البلاد مسلك و لا لصاحب هوى في الداخل مدخل للشر و الإفساد.

– كان الشيخ من الدعاة إلى التجديد و فتح باب الاجتهاد، و كان من رأيه أن الاجتهاد مرغوب فيه في كل عصر، ضرورة أن الاحكام الشرعية منها أحكام ثابتة لا تتغير،ولا تتبدل،لأنها قطعية الثبوت، و قطعية الدلالة على مضمونها، و هناك أحكام عرضة للتغير و التبدل لأنها قامت على المصلحة المعتبرة، أو التي قامت على العرف الصحيح، فمن الممكن أن تفهم الواقعة فهما جديدا بناء على معطيات الزمان، و هذا من مرونة التشريع الإسلامي[20]، فالاجتهاد أمر لابد منه في حياتنا المعاصرة من أجل مواكبة تطورات الحياة، و معرفة حكم المسائل المتجددة و المشكلات المتعددة، و العقود و التصرفات المتطورة مع كل زمان و مكان.

ذكر الشاطبي ضرورة استمرار الاجتهاد جيلا بعد جيل، فقال:لا يمكن أن ينقطع الاجتهاد حتى ينقطع أصل التكليف، و ذلك عند قيام الساعة[21]، فالاجتهاد بمثابة الروح للشريعة الاسلامية، و هو منبع الحياة لفقهها، إذ كيف يعقل أن تكون تلك الشريعة أخيرة

---

[20]– حسين الملاح، الفتوى،788/2. و انظر، الشوكاني،إرشاد الفحول،254.

[21]– الشاطبي، الموافقات، 89/4.

و خالدة، و أن يكون فيها حكم لكل موضوع،و لكل حادث واقع، أو ممكن الوقوع، إذا لم يكن فيها اجتهاد قائم دائم.

– يعد الشيخ نموذج للمفتي المطلوب في الجزائر، و الذي يصلح أن يكون مفتيا للديار، لما تتمتع به من صبر و أناة و علم و دراية، و هو و إن لم يدع رتبة الاجتهاد في الفتوى لكنه كان من المؤهلين في زمنه لتحمل مسؤولية هذا المنصب، الذي يصعب أن ينال فيه المتولي رضا العامة و السلطة في آن واحد كما نالهما الشيخ العلامة ، و هو واجب على الأمة أن تعد رجالا يتسلموا مهام الافتاء و بيان أحكام الشرع للعامة و الخاصة، و من الواجب ان تصرف الأموال و تعد الأوقاف الغزيرة لهذا الغرض،و أن يتم هذا الإعداد منذ مراحل الطلب الأولى،(فإذا من الله على الطالب و ارتقى إلى درجة توافرت فيه شروط الاجتهاد، و صارت له ملكة يقتدر بها على فهم النصوص، و الأحكام الشرعية، و استنباط الحكم، وجب عليه النظر و البحث في الأدلة الشرعية ليستنبط بنفسه أحكام ما يعرض له من الوقائع و النوازل، التي يجوز الاجتهاد فيها، فإذا اجتهد في واقعة منها، و اهتدى إلى الحكم الشرعي فيها لزمه أن يعمل بما أداه إليه اجتهاده، و هذا النوع من العلماء يجب أن يرشح ليكون عضوا في المجامع الفقهية ، أو أن يكون مفتيا لبلاده و شعبه، فإذا نصب مفتيا فيجب أن يحاط بمجلس استشاري من ذوي الخبرة الواسعة في شتى ميادين الحياة، لأنه لا يستطيع إنسان وحده أن يكون خبيرا ماهرا في الشريعة، حاذقا في الاقتصاد، و التجارة، و الصناعة، و الطب و السياسة و الاجتماع، و عادات أهل الزمان،لأن الحكم الشرعي موقوف في كثير من معاملاتنا المعاصرة على الخبرة في فنون متنوعة؛ لذلك يجب أن يستعين المفتي بخبراء هذه العلوم، و في الموضوعات التي تخصهم، قبل أن يستنبط حكم الواقعة و يفتي به[22].

و المستجدات الفقهية و السياسية و الاقتصادية في بلدنا كثيرة، كما أن فوضى الافتاء ، و الجنوح إلى الشاذ من الأقوال، و غير المشهور من الآراء صار ديدن الكثير من المتصدين

---

[22] الزرقا، الاجتهاد و دور الفقه، بحث مقدم إلى ملتقى الفكر الاسلامي في الجزائر،سنة 1403ه، ص،15-16.

المتطفلين على الفتيا. لذلك أصبح من اللازم تدارك هذا الوضع قبل أن يتفاقم و يشتد. و لا يكون ذلك إلا بإنشاء مؤسسة للفتوى ، تكون سندا للفقه الوسطي الصحيح، و تقدم المؤهلين للفتوى و تزكيهم و تسندهم، و تسد الطريق على المتطرفين و المغالين و المنحرفين و المتطفلين،كما أنه من اللازم أن ينشأ في بلدنا مجمع فقهي يتولى الفتوى في النوازل العامة و القضايا الوطنية و يستشار في سائر التشريعات المزمع إصدارها، يتكون من نخبة الفقهاء و الباحثين و الخبراء، فاجتهاد الجماعة أحكم و أسلم و أبعد عن الهوى و التعصب و أكثر عصمة من الخطأ.

الشيخ العلامة عبد الرحمن الجيلالي فقيها - رحمه الله تعالى

أ.د. كمال لدرع

جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

تمهيد

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من علماء الجزائر في العصر الحديث، تميز بسعة العلم والمعرفة، وتبحر في علوم الشريعة.كثيرا ما أشاد العلماء والمثقفون بمكانته الأدبية واللغوية والفقهية، واهتمامه بتاريخ الجزائر، وهذه المقالة كشف لجانب آخر من شخصيته العلمية، وهي مكانته الفقهية، وإسهامه في المجال الفقهي ضمن ما تميز به الرجل من فتاوى ودروس فقهية مختلفة.

نشأته:

ولد الشيخ العلامة عبد الرحمان الجيلالي سنة 1908 بالجزائر العاصمة، وهي إحدى المدن العريقة بالقطر الجزائري، وكانت في مطلع القرن الماضي ساحة حرة وخصبة للنشاط الثقافي والديني، قاده أعلام من الفقهاء والأدباء والصحافيين، من أمثال الشيخ محمد السعيد بن زكري الزواوي المتوفى سنة 1914م الذي كان مفتي مدينة الجزائر في ذلك الوقت، وكان مدرسا بالجامع الأعظم وإماما بجامع سيدي رمضان بالقصبة ومفتيا شهيرا[1] على المذهب المالكي، وكذلك الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان يشرف على تسيير الحركة التعليمية بالمدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كان مقرها بنادي الترقي بساحة الشهداء بالعاصمة، والذي كان ملتقى للنخبة المثقفة الجزائرية، حيث كان يحتضن أمسيات ثقافية وحوارات ومناقشات علمية كان ينشطها أعلام من علماء جمعية العلماء من أمثال الشيخ الطيب العقبي والشيخ العربي التبسي وغيرهما من المشايخ والعلماء الآخرين من غير الجمعية.

ويعود نسب الشيخ عبد الرحمان الجيلالي إلى الأسرة الموسوية القادرية وفروعها الأشراف القاطنين بسهول متيجة، وتصل سلالتهم إلى الشيخ عبد القادر الجيلالي[1] سليل الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(1) الشيخ عبد القادر الكيلاني أو عبد القادر الجيلاني (470 هـ - 561 هـ)، الإمام الصوفي والفقيه الحنبلي الذي يوصف بـ "تاج العارفين" و"محيي الدين" و"شيخ الشيوخ". إليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية. يعود نسبه إلى الإمام الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب زوج السيدة البتول فاطمة الزهراء بنت رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني في جيلان (تقرأ بالجيم العربية كما تقرأ بالجيم المصرية فيقال لها جيلان أو كيلان) سنة 470 هـ الموافق 1077م، وهي تقع في شمال إيران حالياً على ضفاف بحر قزوين أو يقال في جيل العراق وهي قرية قرب المدائن جنوب بغداد. ولمتابعة طلبه للعلم رحل إلى بغداد ودخلها سنة 488 هـ الموافق 1095م وعمره ثمانية عشر عاماً في عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله العباسي. وبعد أن استقر الشيخ عبد القادر في بغداد انتسب إلى مدرسة الشيخ أبو سعيد المخرمي التي كانت تقع في حارة باب الأزج، في أقصى الشرق من جانب الرصافة، وتسمى الآن محلة باب الشيخ. وتفقه على مجموعة من شيوخ الحنابلة ومن بينهم الشيخ أبو سعيد المُخَرمي، فبرع في المذهب والخلاف والأصول وقرأ الأدب وسمع الحديث على أيدي كبار المحدثين. وقد أمضى الشيخ من عمره ثلاثين عاما يدرس فيها علوم الشريعة أصولها وفروعها. وكان الشيخ عبد القادر عالما متبصرا يتكلم في ثلاثة عشر علماً من علوم اللغة والشريعة، حيث كان الطلاب يقرأون عليه في مدرسته دروسا من التفسير والحديث والمذهب والخلاف والأصول واللغة، وكان يقرأ القرآن بالقراءات . صنف الشيخ عبد القادر الجيلاني مصنفات كثيرة في الأصول والفروع وفي أهل الأحوال والحقائق والتصوف، منها ما هو مطبوع ومنها مخطوط ومنها مصور، منها: إغاثة العارفين وغاية منى الواصلين. وآداب السلوك والتوصل إلى منازل السلوك. الغُنية لطالبي طريق الحق: وهو من أشهر كتب الشيخ في الأخلاق والآداب الإسلامية وهو جزءان. الفتح الرباني والفيض الرحماني: وهو من كتب الشيخ المشهورة وهو عبارة عن مجالس للشيخ في الوعظ والإرشاد. أثنى عليه علماء كثيرون كالإمام النووي وابن حجر العسقلاني والعز بن عبد السلام وابن قدامة المقدسي وابن تيمية والذهبي وغيرهم. توفي ليلة السبت 10 ربيع الثاني سنة 561 هـ وقد بلغ تسعين سنة من عمره. وللشيخ عبد القادر رحمه الله تلاميذ بالجزائر، منهم القطب الرباني الغوث سيدي أبي مدين شعيب الإشبيلي المتوفى سنة 1198 والموجود ضريحه بتلمسان. (ابن الجوزي، **المنتظم**، ج10، ص219 – ابن رجب الحنبلي، **ذيل على طبقات الحنابلة**، ج1، ص290 – الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج20

توفي الشيخ الجيلالي رحمه الله تعالى صبيحة يوم الجمعة 6 ذي الحجة 1431هـ الموافق 12 نوفمبر 2010 بالجزائر العاصمة في مستشفى عين طاية، ودفن في مقبرة سيدي امحمد. وصلى عليه الأستاذ الدكتور عمار طالبي في مسجد النجاح بالمحمدية في جمع غفير من الناس.

شيوخ العلامة الجيلالي في الفقه:

أخذ الجيلالي علم الفقه وقواعده وأصوله عن علماء بارزين، كان لهم الأثر في تكوينه العلمي والفقهي والأدبي وكلهم من داخل الوطن، مما يدل على أن تكوينه محلي، وإنتاج خالص للمدرسة الجزائرية، إلا أنه استطاع أن يستفيد من الثقافة الأزهرية عن طريق أحد شيوخه كما سيأتي ذكره.

ويلاحظ من خلال الشيوخ الذين أخذ عنهم الجيلالي منذ بداية حياته، أنه تلقى تكوينا فقهيا متينا على أيدي كبار العلماء في عصره. وعلم الفقه ليس منعزلا عن العلوم الأخرى، لذلك استكمل تكوينه الفقهي بأخذ فنون أخرى من العلم والمعرفة عن مثقفين وشيوخ آخرين.

إن هذا التكوين المتين للشيخ الجيلالي، وتلقيه العلم عن الشيوخ ذوي العلوم المتنوعة، إضافة إلى مواصلته البحث والتكوين العصاميين جعل منه مثقفا واسعا، وفقيها متميزا محيطا بأقوال الفقهاء وعلماء الشريعة، ومؤرخا مدققا، وأديبا نابغا، لم تستفد منه الجزائر ولم تحتف به كما ينبغي أن يحتفي أي مجتمع بعلمائه الكبار، فلا تدرك قيمتهم إلا عند قرب وفاتهم أو بعد وفاتهم.

و أبرز شيوخه، هم:

ص443. – جمال الكيلاني، **كتاب الشيخ عبد القادر الكيلاني رؤية تاريخية معاصرة**، دارمصر، مرتضى للكتاب، بيروت 2011، ص23).

1 — الشيخ عبد الحليم بن سماية[2]:

وهو من الشيوخ الكبار في الفترة الاستعمارية، خلف والده، وكان من منتقدي النظام الاستعماري ومعارضيه بشدة رغم أنه كان أستاذا في إحدى المدارس الرسمية. أسندت إليه مهمة التدريس بالجامع الجديد الحنفي مكان والده، فشرع في تدريس علوم اللغة والشريعة والمنطق، كما درّس الفقه الحنفي، وبخاصة كتب المذهب الحنفي كنور الإيضاح في الفقه الحنفي للشُرُنْبُلالي، والمختصر في الفقه الحنفي للطحاوي، والمنافع في فوائد النافع في فروع الفقه الحنفي للنسفي، وحاشية ابن عابدين، ومع ذلك فكان محترما للمذهب المالكي الذي هو المذهب السائد في الجزائر، وكثيرا ما كان يشير على تلامذته وعموم الناس بدراسة رسالة أبي محمد بن أبي زيد القيرواني المالكي والتفقه عليها باعتبارها رسالة مختصرة وسهلة وجامعة لأهم مسائل المذهب المالكي.

فتلقى عنه الشيخ الجيلالي ــ إضافة إلى علوم اللغة والمنطق والحديث ــ علوم الفقه وبخاصة الفقه الحنفي، وعلم أصول الفقه، وفي ذلك يقول عنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: «وكان فيما أخذناه عنه وتلقينا منه من الكتب التي اقرأها في تدريسه بالمسجد خلال سنوات (1343-44-45 هـ الموافق لـ:1924-25-26م): ورقات إمام الحرمين الجويني في الأصول، وشطرا من تنقيح الفصول للقرافي، ورسالة العضد في علم الوضع،

---

[2] عبد حليم بن علي بن عبد الرحمن بن حسن خوجة (1283هـ-1866م/ 1351هـ-1933م)، أصله تركي، محيط بعدة علوم، درّس بعدة جوامع بالجزائر العاصمة، تلقى تكوينه الأول عن والده، كما لازم مشايخ عصره كالشيخ علي بن الحاج موسى، والشيخ القزداري، والشيخ علي ابن الحفاف والشيخ ابن طاهر الوتري المدني، وحضر دروس محمد سعيد ابن زكري، والشيخ علي بن حمودة، وكان ممن أخذ عنهم أيضا من كبار العلماء علامة القطرين الشيخ محمد المكي بن عزوز حينما كان يتردد على الجزائر، فأخذ عن هؤلاء الكثير من العلوم والفنون؛ كاللغة وآدابها وعلوم الشريعة وفنونها، كما تلقى علم الحساب والفرائض، وعلم الفلك والتوقيت، وعلم الإسطرلاب وفي 15أكتوبر1900م. (عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام.4/410. وانظر: أيضا: عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر من صدر الأسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980، ص187-188.

وشرح السجاعي على المقولات العشر، والجوهر المكنون في البلاغة للأخضري بشرح مؤلفه المخطوط، ونظم الخزرجية في العروض، وقطر الندى في النحو، وتفسير سورة البقرة بالجواهر الحسان للثعالبي، ودروسا في كتاب البصائر النصرية في علم المنطق لابن سهلان، بتعليقات الشيخ محمد عبده».[3]

2- الشيخ المولود الزريبي الأزهري[1]:

ممن اشتهر بالعلم في فترة الاستعمار الفرنسي، من فقهاء المالكية ورواد الإصلاح، أخذ الفقه وعلوم الشريعة واللغة عن العالم المصلح سيدي حامد العبيدي في الزاوية الحفناوية، كما أخذ الفقه والعلوم الأخرى عن مشايخ الأزهر، كالشيخ محمد بخيت، والعلامة الشيخ محمود الحطاب. وبعد عودته إلى الجزائر اشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد والإصلاح الاجتماعي في بلدته الأوراس، ثم تحول في الجزائر العاصمة. حيث تولى التدريس بالجامع الكبير و مسجد قرية بوفاريك، فأخذ عنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ولازم حلقته، ومن جملة العلوم التي تلقاها الشيخ الجيلالي عنه النحو والفقه

---

[3] وهو المولود بن محمد بن عمار الزريبي، وهي قرية عربية واقعة في الزاب من دائرة بسكرة، فقيه مالكي، من رواد الإصلاح في منطقة أوراس، ولد في زريبة الوادي (جنوب شرق العاصمة) سنة 1315هـ الموافق لـ 1897م، ودرس على العالم المصلح سيدي حامد العبيدي في الزاوية الحفناوية التي تبعد عن الزريبة بسبعة أميال، ثم ألتحق بجامع الأزهر فأكمل دراسته خلال أربع سنوات، ومن أشياخه بالأزهر الشيخ محمد بخيت قاضي الإسكندرية، والعلامة الشيخ محمود الخطاب. نال شهادة العالمية. ثم عاد إلى بلده واشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد والإصلاح الاجتماعي في بلدته الأوراس، ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة حيث باشر التدريس بالجامع الكبير، كما تولى تحرير جريدة (الصديق) التي أصدرها محمد بن بكير التاجر اليسجني المزابي سنة 1920م، ثم سمي إماماً خطيبا بمسجد قرية بوفاريك، إلى أن وافاه الأجل سنة 1897هـ/1925م، ومن آثاره (شموس الأحلام أو بدور الأفهام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام) مطبوع و(شرح على قدسية الأخضري) و(شرح على كتاب البيوع من مختصر خليل) و(كتاب الأخلاق) لم يتمه، وله شعر جيد منثور في الصحف والمجلات.(**عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر،ص 158-159**)

[4] عبد الرحمن الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ج:4، ص:410.

والتوحيد وشرح الموطأ وهو كتاب يجمع بين الفقه والحديث، وكانت حلقة شيخه الزريبي الأزهري تكتظ بالطلبة والعوام.[5]

3 —**الشيخ محمد بن أبي شنب**[6]:

وهو محمد بن العربي بن محمد أبي شنب، أتقن عدة علوم ولغات أجنبية، نال شهادة الدكتوراه في الأدب العربي سنة 1920م، فأحرزها بدرجة ممتاز. عين معلما بالمكتب الرسمي في قرية سيدي علي قرب المدية، فدرس وعلّم فيه أربعة أعوام إلى سنة 1892م، فعينته الدولة معلماً بمكتب الشيخ إبراهيم فاتح الرسمي بالجزائر فانتقل إليه وسكن فيه. كما ناب عن الشيخ أبي القاسم بن سديرة في دروس العربية بالجامعة فمكث في هذه النيابة عاما كاملا.

---

[5] عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص: 158-159.

[6] وهو محمد بن العربي بن محمد أبي شنب، ولد عام 1869م في مدينة المدية بناحية (تاكبو عين الذهب)، والده من المزارعين الكبار. و المعروف عن تاريخ أجداده أنهم يعودون في المنشأ والجنس لأتراك بلدة بروسة من إيالة الأناضول من ذوي الشرف والمجد. تلقى تعليمه بالجزائر، ألحقه والده مع شقيقه أحمد بالمكتب القرآني فأخذ القرآن عن شيخه أحمد بأرماق، ثم تدرج في المدارس إلى أن نال شهادة البكالوريا الأولى في سنة 1896م، ثم درس اللغة الاسبانية والألمانية واللاتينية، فبرز فيها، ثم درس الفارسية والعبرانية، حتى أتقنهما، كما أتقن اللغة الانكليزية. عين في سنة 1898م أستاذاً بالمدرسة الكتانية بقسنطينة، خلفا عن شيخها العلامة الأستاذ عبد القادر المجّاوي، عندما انتقل هذا الأخير إلى المدرسة الثعالبية بالجزائر، فاقرأ بها الشيخ ابن أبي شنب النحو والصرف وعلوم الأدب مع الفقه، وفي سنة1901م عين مدرسا بالمدرسة الثعالبية بالعاصمة في مقام الشيخ عبد الرزاق الأشرف. وفي سنة 1920م، تقدم لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، فأحرزها بدرجة ممتاز، وكان مبرزا متفوقا في علوم اللغة والآداب. وفي سنة 1924م عيّن أستاذا رسميا بكلية الآداب الكبرى في العاصمة، فتخلى يومئذ عن المدرسة الثعالبية بعدما قضى فيها 23 وعشرين كلها جهاد في سبيل العلم والمعرفة. ولم يزل الأستاذ قائما بالتعليم والتدريس، إلى أن أصابه المرض، فتوفي في 5 فيفري سنة 1929م. (عبد الرحمن الجيلالي: **محمد بن أبي شنب حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر**، 1984، ص: 18، 19).

ثم عُين في سنة 1898م أستاذا بالمدرسة الكتانية بقسنطينة، خلفا عن الشيخ العلامة عبد القادر المجّاوي، عندما انتقل هذا الأخير إلى المدرسة الثعالبية بالجزائر، فدرّس بها الشيخ ابن أبي شنب النحو والصرف وعلوم الأدب مع الفقه، وفي سنة 1901م عين مدرسا بالمدرسة الثعالبية في مقام الشيخ عبد الرزاق الأشرف. وكان يدرس بها اللغة والنحو والمنطق والعروض والبيان وغيرها، ثم أضيفت له دروس أخرى يلقيها بالجامعة في علم العروض وترجمة الرسوم الشرعية والبحث في اللغة الدارجة (العامية)، فاجتهد الشيخ في أداء الواجب بالمدرستين معا على خير وجه.

وبالمدرسة الثعالبية تلقى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من الأستاذ محمد بن العربي بن محمد أبي شنب، ولازمه في مساجد العاصمة لا يتخلف عنه، فأخذ عنه الفقه واللغة والحديث، يقول عنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: «وفي حوالي سنة1904م أسندت إليه دراسة صحيح البخاري رواية (الحضور) بجامع سفير بالعاصمة، وفي سنة 1908م ارتقى إلى رتبة أستاذ محاضر بالجامعة، فعمر هذه الرتبة وقام بها حق القيام» [7]. ورغم انتقال أبي شنب سنة 1924م أستاذا رسميا بكلية الآداب الكبرى في العاصمة، وتخليه عن المدرسة الثعالبية بعدما قضى فيها 23 وعشرين، فقد كانت له بالجامعة دروس خاصة يلقيها على طلبته ومن جملتهم الشيخ الجيلالي، يتم الإعلان عنها في الصحف اليومية. [8]

4 ـــ الشيخ أبو القاسم الحفناوي[9]:

---

[7] عبد الرحمن الجيلالي، **محمد بن أبي شنب حياته وآثاره**، المؤسسة الوطنيـــة للكتـــاب، الجزائـــر، 1983، ص:18.

[8] عبد الرحمن الجيلالي، **محمد بن أبي شنب حياته وآثاره**،ص: 19.

[9] وهو الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الملقب والمعروف بابن عروس بن الصخري ولد سنة (1266هـــ-1850م) بقرية (الديس) قرب مدينة بوسعادة، ونشأ في بيت علم وفقه، والده من أعيان علماء عصره أخذ الحفناوي مبادئ العلوم في اللغة والأدب والتوحيد، وإليه كانت الرحلة في طلب النحو والصرف، والتوحيد، والمنطق، والفقه والحساب، وعلوم البلاغة والعروض. ثم ارتحل في طلب العلـــم فاتصل بشيوخ كبار الزوايا، فنـــزل بزاوية طولقة ببسكرة، واستقر بها مدة أربع سنوات، فأخذ فيهـــا العلـــم عن

هو الشيخ المحقق أبو القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الملقب والمعروف بابن عروس بن الصغير، أخذ العلم عن والده وشيوخ الزوايا في وقته. وكان ذا قريحة وقادة مع سرعة في الحفظ، صاحب كتاب (تعريف الخلف برجال السلف)، مفتي العاصمة في وقته، ومن الصحفيين الذين عملوا في جريدة المبشر الرسمية طويلا .

أخذ عن علماء عصره كالشيخ علي بن الحفاف المفتي المالطي، والشيخ محمد القزداري مدرس الجامع الكبير، والشيخ حسن بريهمات مدير المدرسة الرسمية. تولى التدريس بالجامع الكبير في العاصمة منذ 1897م، ومنصب المفتي المالكي بعد إلحاح الكثير من العلماء سنة 1925م. وبالجامع الكبير تتلمذ على يديه الشيخ الجيلالي ولازمه فأخذ عنه الفقه وعلوم الشريعة واللغة، وكانت علاقته به وطيدة حتى كان الناس يظنون أن الحفناوي هو أبو عبد الرحمن الجيلالي، يقول عنه الشيخ الجيلالي: «فتقلده الشيخ ـــ أي التدريس بالجامع الكبير ـــ بالإضافة إلى عمله الإداري وشرع من حينه في تدريسه علوم الشريعة و الأدب، فاقرأ الفقه و التوحيد والنحو والصرف والحديث واللغة والمنطق والفلك

مؤسسها الحفناوي بن الشيخ علي بن عمرو، والشيخ مصطفى بن عبد القادر، كما رحل إلى زاوية ابـــن أبي داود بتاسيلت بآقبو فأخذ علوم القرآن مع دراسة الفقه والفلك، وأخذ التفسير والحديث الشريف عن مؤسـس زاوية الهامل محمد بن أبي القاسم الشريف الهاملي.[9] و أخذ الربع المجيب بأرجوزته، وعلم العروض عن ابـــن أخته الإمام محمد المكي بن عزوز أثناء زيارته للجزائر قادما من تونس. كما تلقى عن علماء العاصمة كالشيخ علي بن الحفاف المفتي المالطي، والشيخ محمد القزداري مدرس الجامع الكبير، الشيخ حسن بريهمـــات مـــدير المدرسة الرسمية، ثم تلقى دعوة رسمية من الولاية العامة، أين قدم للتحرير بجريدة المبشر الرسمية. الأمر الذي دفعه إلى تعلم قواعد اللغة الفرنسية عن العالم المستشرق أرنو رئيس المترجمين بالجريدة. كما شغل الحفناوي أيضـــا منصب التدريس بالجامع الكبير في العاصمة منذ 1897م، ومنصب المفتي المالكي بعد إلحاح الكثير من العلماء سنة 1925م. ومن مؤلفاته كتابه الحافل، (تعريف الخلف برجال السلف) الذي جمع فيه تراجم علماء الجزائر. توفي الحفناوي في ذي الحجة 1360هـــ / جانفي 1942م. (عادل نـــويهض: **معجـــم أعـــلام الجزائـــر**، ص:121. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج:4، ص:429)

والحساب. وأخذنا نحن ذلك عنه، وكان وئيدا في إلقاء الدرس لا يتسرع كثيرا، متعمقا في البحث مع كثير من التأمل».[10]

فعن هؤلاء العلماء الكبار، تخرج الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، ونبغ في علوم الشريعة واللغة، يضاف إلى ذلك جهوده الخاصة ومطالعاته الذاتية، التي عمقت تكوينه، حتى صار شيخ المؤرخين، وإمام النحويين، ومفتي المفتين.

أثر التعليم المسجدي في التكوين الفقهي للشيخ الجيلالي:

من خلال الشيوخ الذين تلقى عنهم الشيخ الجيلالي الفقه يتبين أنه تلقى تعليمه في أعرق مساجد الجزائر العاصمة، منها الجامع الكبير وجامع سيدي رمضان بالعاصمة ومسجد ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي روضات للعلم والتفقه في الدين الإسلامي، فكان الشيخ عبد الرحمان الجيلالي واحدا من الذين تلقوا تعليمهم الديني منها، وقد تناولها بالدراسة في العديد من الأبحاث التي صنفت هذه الآثار ضمن المعالم الإسلامية الأكثر أهمية في الجزائر العاصمة، حتى أنه أعد دراسات عنها بين فنياتها المعمارية والصناعية الدقيقة، وهو ما فتح له باب البحث والتعمق في دراسة المجتمع الجزائري، فكانت أبحاثه مرجعا للدارسين الجزائريين والأجانب، ومنهم الباحث المستشرق الفرنسي الشهير جورج مارسي.

ومن المساجد التي تلقى فيها الشيخ الجيلالي علوم الفقه وغيرها الجامع الجديد الذي أخذ الفقه وأصوله من خلال ورقات إمام الحرمين الجويني في الأصول، وتنقيح الفصول للقرافي عن الشيخ عبد الحليم بن سماية.

وبمسجد قرية بوفاريك والجامع الكبير تلقى الفقه أيضا وعلومه عن الشيخ المولود الزريبي الأزهري، فأخذ عنه الشيخ الجيلالي ولازم حلقته. وبالجامع الكبير أيضا كان يحضر حلقة الشيخ أبو القاسم الحفناوي الذي تتلمذ على يديه ولازمه كثيرا فأخذ عنه الفقه وعلوم الشريعة واللغة، وكانت علاقته به كبيرة.

---

[10] عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**4 ج:4، ص:429.

وبالمدرسة الثعالبية تلقى الشيخ الجيلالي من الأستاذ محمد بن العربي بن محمد أبي شنب، ولازمه في عدم مساجد من العاصمة لا يتأخر عن درسه في أي مسجد ألقاه، فأخذ عنه الفقه واللغة والحديث.

مباشرته لتدريس الفقه وأصوله في مساجد العاصمة ومعاهدها:

بعد التكوين العلمي والفقهي الذي تلقاه عن بعض شيوخ زمانه، إضافة إلى تميز الشيخ الجيلالي بالثقافة العصامية، التي شملت القرآن والحديث والأدب والتاريخ والفقه وأصوله؛ أهله ذلك لأن يتولى في تدريس الفقه في عدة مساجد ومدارس مما عمّق تكوينه الفقهي وكرس أكثر على الإفتاء، فقد درّس الفقه الإسلامي، وتصدى للإفتاء والإجابة عن أسئلة الناس في مختلف القضايا والأحكام، وهذا يدل على تبحره في مسائل الفقه وأبوابه المختلفة.

ومن أهم المدارس التي درّس فيها: الجامع الكبير و مسجد سيدي رمضان ومسجد السفير والجامع الجديد.

وسوف أقتصر على مسجدين يعتبران من أقدم المساجد بالعاصمة واللذين تعاقب عليهما علماء كبار اشتهروا بالعلم والفقه والفتوى.

1 ــ **مسجد الجامع الكبير:** يرجع تاريخ بناء الجامع الكبير بالعاصمة إلى القرن الحادي عشر للميلاد في عهد دولة المرابطين على يد يوسف بن تاشفين وبالضبط في أول رجب عام 490هـ الموافق لـ 18 جوان سنة 1097 م وهو ما يؤكده التاريخ المنقوش على واجهة محرابه، حيث شُيد على أنقاض كاتدرائية مسيحية تعود إلى العهد الروماني. ويقع الجامع الكبير في قلب عاصمة الجزائر بساحة الشهداء، ويعد حسب المصادر التاريخية أقدم مسجد في العاصمة، و يتميز هذا الجامع بمنبره ذي الهندسة المتفردة، والذي يعد تحفة معمارية غاية في الأهمية منبر جامع الكبير الشاهد الأكبر على تاريخ بناء المسجد. له شكل مستطيل، وهي ميزة المساجد المرابطية و يشبه إلى حد كبير الجامع الكبير بتلمسان ومساجد الأندلس وهذا الشكل أيضا اعتمدته الدولة العثمانية بعد دخولها إلى الجزائر في

بناء مساجدها. وكان الجامع الكبير بالعاصمة منارة للعلم والمعرفة و مركز إشعاع حضاري، تعاقب عليه علماء كبار درّسوا فيه عدة علوم مما جعله قبلة المصلين ووجهة لطلبة العلوم الدينية فبات الشاهد الوحيد على الحضارة المرابطية بهذه المنطقة، ولا عجب أن يواصل المسيرة العلمية الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الذي تولى التدريس فيه خلفا لشيوخه الذين درسوه فيه أمثال الشيخ المولود الزريبـــي الأزهري والشيخ أبو القاسم الحفناوي.

2 ـ **مسجد سيدي رمضان:** بني في عهد الدولة العثمانية على طراز الهندسة المرابطية ذو الشكل المستطيل كالجامع الكبير، ويقع بالقصبة السفلى بالعاصمة. وقد تولى التدريس فيه شيوخ العلم والفقه، ومنهم شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كالإمام محمد السعيد أبي يعلى الزواوي[11] وغيره. تولى الشيخ الجيلالي التدريس فيه بعض العلوم كالفقه، والتصدي لفتاوى المصلين وطلبة العلم ممن يحضر مجالسه العلمية.

كما تولى التدريس أيضا في مدرسة الشبيبة الإسلامية أثناء إدارة الشاعر محمد العيد آل الخليفة لها خلال الثلاثينات. كما درّس أيضا في مدرسة الإحساس ومدرسة الهداية.

نشاطه العلمي والديني:

ساهم الشيخ عبد الرحمان الجيلالي بقلمه في الصحف والمجلات الجزائرية، كما ساهم في إثراء المكتبة الجزائرية بالعديد من العناوين الهامة، منها كتاب تاريخ الجزائر العام المنشور في جزأين، والذي يعتبر مرجعا لا يمكن لدارسي تاريخ الجزائر الاستغناء عنه، طبع عدة

---

(11) كاتب صحفي إسلامي خطيب له باع في الفقه والتاريخ، ولد ببلدة عزازقة بالقبائل الكبرى سنة 1295هـــ/1878م، من أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نشأ وتعلم بدمشق بعد نزوح عائلته إليها، ثم ذهب إلى مصر في مطلع الحرب العالمية الأولى، كتب في عدة جرائد عربية مصرية ولبنانية وتونسية وأيضا تركية. عاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى. اشتغل بالتعليم والوعظ والإمام بمسجد سيدي رمضان، حارب الخرافات والبدع في كتاباته. توفي بالجزائر العاصمة سنة 1373هـــ/1952م. من مؤلفاته "الإسلام الصحيح"،و"جماعة المسلمين"، و"تاريخ زواوة". (نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص:164)

طبعات. ومن كتبه أيضا كتاب تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، المدية، مليانة؛ وكتاب خاص بذكرى العلامة الدكتور محمد بن أبي شنب، وكتاب حول العملة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، وكتاب ابن خلدون في الجزائر.

كما تمكن الشيخ عبد الرحمان الجيلالي من إنتاج عشرات الأعمال في مختلف الميادين الدينية، الأدبية، الفنية والتاريخية، جعلته يتحصل على أوسمة استحقاق من مؤسسات علمية متخصصة.

كما حاز عضوية المجلس الإسلامي الأعلى غداة الاستقلال في لجنة الفتوى التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد حماني رحمه الله.

وقد عمل الشيخ عبد الرحمان الجيلالي مع نخبة من العلماء على إنشاء وتنظيم نِظَارات الشؤون الدينية بمختلف ولايات القطر. كما ساهم في تأسيس مجلة الأصالة الصادرة عن المجلس الإسلامي الأعلى التي ساهمت مساهمة فعالة في الترويج لملتقى الفكر الإسلامي، كما كانت منبرا هاما للمناقشة الهادفة. للإشارة، فإن الشيخ الجيلالي قدم محاضرات في 14 طبعة من مؤتمر الفكر الإسلامي، كما كان عضوا فعالا في الديوان الوطني لحقوق التأليف.

الشيخ الجيلالي فقيها ومفتيا للجزائريين:

رغم أن الشيخ الجيلالي لم يُنصّب رسميا مفتيا للجمهورية الجزائرية إلا أنه صار مفتيا للشعب الجزائري من خلال حصة الإفتاء التي لاقت قبولا واسعا من قبل المواطنين، وكان ينشطها في الإذاعة الوطنية والتي كان يجيب فيها على التساؤلات الفقهية المستمعين، فاشتهر ببرنامج لكل سؤال جواب الذي استحسنته الجماهير ونال رضاها، وبسبب نجاحه قررت إدارة الإذاعة إنتاج برنامج آخر هو رأي الدين في أسئلة المستمعين الذي أدى دورا كبيرا في توعية الناس بحكم اعتماده على نهج الإصلاح الديني، ثم تحولت أحاديثه إلى دروس ونشريات دقيقة مباشرة، مكتوبة بأسلوب متميز سهل الفهم بعيد عن التعقيد. ومع الأيام تحولت الإذاعة بفضل دروس الشيخ الجيلالي وفتاويه إلى مدرسة مباشرة للتربية

والتوجيه والتوعية يتغلغل من خلالها إلى كل البيوت، وكان تصله يوميا عشرات الرسائل من المواطنين، حتى أصبحت برامجُه أسبوعية ثابتة يجد فيها المستمعون الإجابة عن تساؤلاتهم الدينية والدنيوية على أساس خطاب شرعي معتدل يزاوج فيها بين الإفتاء والنصيحة والتوجيه.

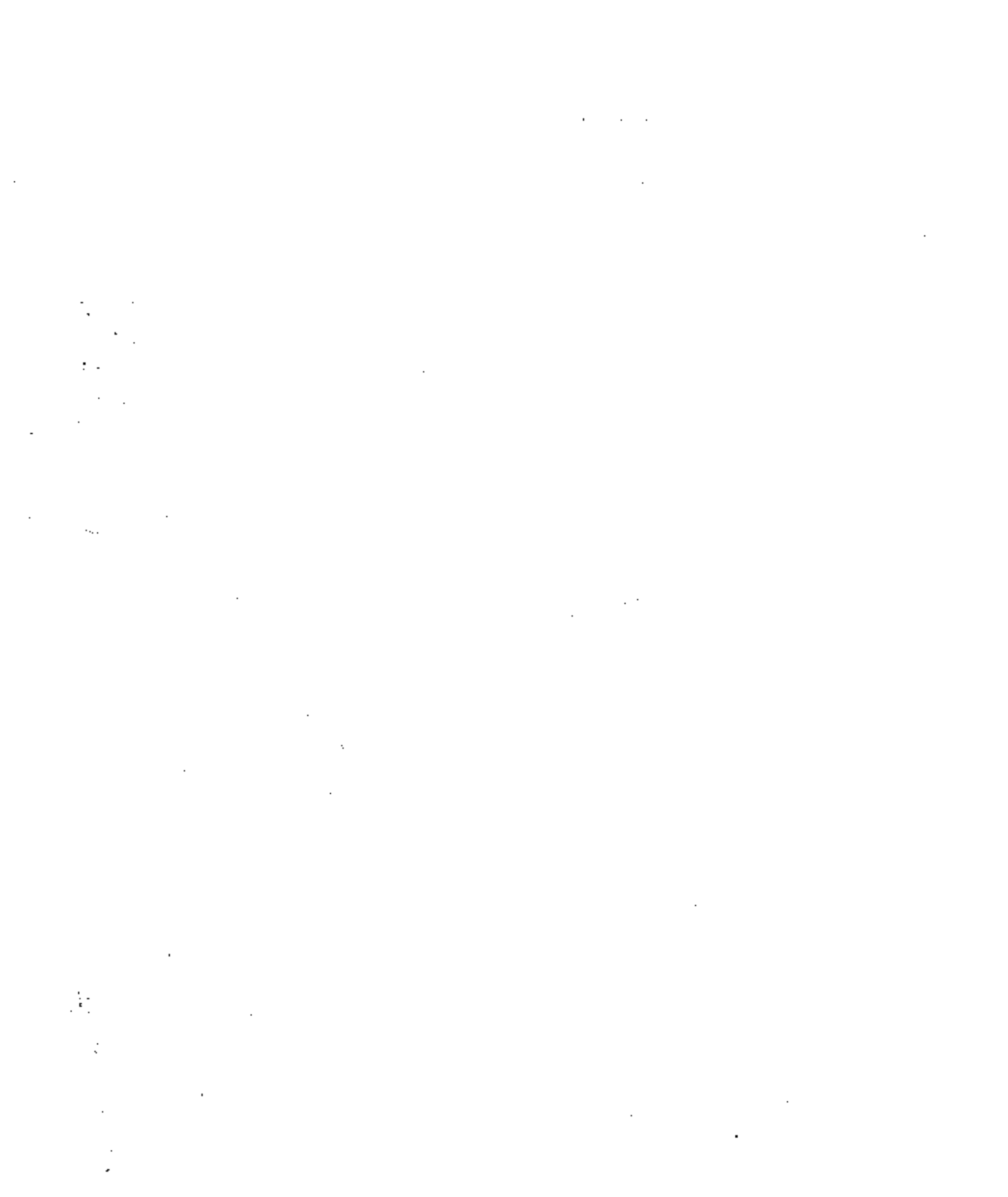
الآثار الفقهية

للشيخ الجيلالي فتاوى مكتوبة كثيرة ما تزال مخطوطة. ومقالات متعددة منشورة في الصحف والمجلات المختلفة، منها: جريدة الشعب الثقافي، ومجلة الجزائر الأحداث، ومجلة الثقافة، ومجلة الأصالة، ومجلة هنا الجزائر، وغير ذلك من المجلات القديمة والحديثة.

ويحتفظ أرشيف الإذاعة إلى اليوم بكمية هائلة من تسجيلات تلك البرامج إلى اليوم، لكنها حبيسة الأشرطة والأقراص. وفي سؤال وجه إلى الشيخ الجيلالي حول تحويل فتاواه التي كان يصدرها للمواطنين عن طريق الإذاعة منذ عام 1940 إلى كتاب يطبع ويستفيد منه الناس، قال الشيخ الجيلالي إن "الكرة في مرمى مؤسسة الإذاعة والتلفزيون حيث تمتلك كل أرشيفي".

وما تمناه الشيخ ينتظر الباحثين وطلبة العلم اليوم لتحويل فتاويه إلى كتاب مطبوع يخرج للناس للاستفادة منه، ولحفظ علم هذا الرجل، وتخليد ذكراه، وهو أقل ما يمكن أن يقدم لهذا الرجل الذي أفنى حياته في خدمة هذا البلد بالعلم والمعرفة كصدقة جارية يلحقه ثوابها إلى قبره.

جهوده الإعلامية والأدبية



توظيف البعد الديني في مسرحية (المولد) لعبد الرحمن الجيلالي

د. أحسن ثليلاني
جامعة 20 أوث 1955 سكيكدة

مهاد :

لعله من المفيد أن نشير في البداية إلى أن عملية توظيف البعد الديني في المسرح الجزائري يتحكم فيها عاملان متناقضان ومتصارعان هما ·

– أولا عامل الترغيب بحكم الظروف السياسية للجزائر، وهي ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي الذي سعى جاهدا إلى محو مكونات شخصيتها ولعل أهمها المكون الديني وذلك استجابة لسياسة التنصير التي انتهجها الاستعمار، فكان اهتمام المسرحي الجزائري باستدعاء هذا البعد الديني يشكل بالنسبة إليه ملمحا من ملامح المقاومة الثقافية، ومطلبا من مطالب إحياء الهوية الوطنية والدفاع عنها بمواجهة سياسة الاجتثاث والتنصير المنتهجة من قبل الفرنسيين الذين " عزموا على إبادة العنصر الإسلامي في الجزائر "[1]، وهو ما أدى إلى نشوء رد فعل عكسي بالنسبة للمسرحيين الجزائريين، تمثل في إحياء كل ما يمت بصلة للبعد الديني الإسلامي للشعب الجزائري واستلهامه مسرحيا. ومن هنا كان التوجه نحو توظيف هذا البعد .

– وثانيا عامل الترهيب لأن الشخصة الدينية تكتسي في المرجعية السوسيو ثقافية العربية، بطابع القداسة، ولذلك فإن الفنان المسرحي لا يجد في توظيفها حرية كبيرة، بل الأكثر من ذلك فقد "يشعر ببعض التحرج أمام الأحداث الدينية، أو أمام الشخصيات الدينية الأساسية، ولا سيما شخصيات الأنبياء والرسل ...فالكاتب المسرحي يهرب من توظيف هذه الشخصيات خشية الوقوع في تاويلها، واستعارة بعض صفاها، او إسقاط العصر على حياتها المقدسة. لذلك كان دائما ينقلها كما هي في مصادرها التراثية الدينية ."[2]

لقد حاول المسرح الجزائري منذ بواكير مسرحياته الأولى مراعاة هذين العاملين، في مختلف الأعمال المسرحية التي راهنت على توظيف البعد الديني من أجل تحقيق أهداف مختلفة .

مسرحية (المولد) ، أو بزوغ الحق وأفول الباطل

تذكر جريدة البصائر أن مسرحية (المولد) [3] قد كتبت وطبعت عام 1949، وقامت بتمثيلها فرقة الفنان المسرحي (محي الدين باش طارزي) سنة1951[4] . والمسرحية تتألف من ثلاثة فصول، تقوم على تشخيص قضية الصراع بين الحق والباطل ، وذلك من خلال استحضار الإرهاصات الأولى التي سبقت مولد الرسول – ص – حيث ظهرت علامات تبشر بميلاده، وتنذر ممالك الطغيان من فرس وروم بالزوال، فالمسرحية تنطلق من حادثة وردت في بعض كتب السيرة، "و هي أن كسرى رأى، فيما يرى النائم، رؤيا أزعجته فقام يلتمس لها المعبرين والمؤولين . وكانت تدور حول مولد النبي محمد – ص – ونشأته.[5] ولقد أشار المؤلف في المقدمة إلى أنه قد حاول جهد الاستطاعة في عرض حوادث المسرحية حسب منطوق الرواية التاريخية ونصوصها الواردة في كتب السيرة المعتمدة وتتبعها بالحرف إلا ما تعذر عليه– مثلما صرح– بسبب مقتضيات فنية يتطلبها المسرح[6] .

تجري حوادث الفصل الأول في قصر الشاه كسرى أنوشروان الذي يبدو ساقط الشرفات، فنرى كسرى مذعورا من نومه مسارعا إلى استدعاء وزرائه وكهنوت قصره ومنجميه، ليفسروا له مغزى ما يحدث من ظواهر خارقة، وما يراه من رؤى عجيبة، وما يتناهى إلى سمعه من أخبار مفزعة،فضلا عن انهيار أربع عشرة شرفة من القصر وما صاحب ذلك من ارتجاج عجيب، فإن نيران معابد المجوس قد خمدت لأول مرة منذ ألف عام ،كما أن بحيرة ساوة قد جفت، وأن مياه وادي السماوة قد نضبت.

" كسرى : (مهتما) كلكم على علم تام يا مرازبة مما حدث لي بالقصر من الخوارق والأهوال، وما كنت حدثتكم به البارحة من عجائب الأمور التي مرت بنا !..

الجميع : (في اهتمام) نعم، نعم..

كسرى : (مستمرا في حديثه) وما كنت أظن أن مثل هذه الفتن والهزاهز تقع لمثلي في هذا القصر المشيد، والبناء العتيد ...و ما كنت سمعت أو علمت بمثلها وقع في التاريخ ! وخاصة تاريخ الدولة الفارسية، منذ تملك جدنا ساسان ووضع التاج على رأسه إلى الآن ...

بهرام : إنه وحق النور والنار لأمر مدهش عجيب !

كسرى : (مرتاعا) حقا هالني الأمر !، وأفزعني ما رأيت وشاهدت ولقد أصابني الليلة من الروع والفزع مثل أو قريب مما أصابني في حينه بالأمس !..و استولى علي السهر والأرق وتوالت علي الهموم والأحزان حتى كدت أختنق !، ...(يضع يده على رأسه صائحا !) وارأساه فكان لزاما علي جمعكم الليلة لتروا رأيكم معي في هذا الحادث الجلل ! والخطب الجسيم!

الجميع :(في فزع)

كسرى : (متجلدا) لا تفزعوا ! .. لا تفزعوا! ..

فيروز : سيدي نحن الفداء !..

كسرى : (مسترسلا) فما هذا الارتجاج الهائل ؟ !.. وما هذه الزلازل المفزعة ؟ ! ..و ما هذا الصوت المزعج ؟ .. وما هذه الصواعق والرعود الفتاكة ؟ ! .. يقينا لو تمادى بي الأمر على ذلك لحظة واحدة لما كنتم تجدونني حيا أرزق . "[7]

وينتهي الفصل الأول بعد حوار مطول بين كسرى ووزرائه دون أن يهتدي جمعهم إلى معرفة سر تلك الخوارق،فيزداد فضولهم لاستكشاف مدلولها .

وتتواصل حوادث الفصل الثاني حول الفكرة نفسها وهي تطلع الناس وخاصة الملوك والكهان لمعرفة سر تلك الإرهاصات التي سبقت ميلاد النبي محمد – ص – ولقد قسم الكاتب هذا الفصل إلى مشهدين، بحيث يدور المشهد الأول في سوق قائمة ببادية العرب بجانبها صومعة راهب، فنرى القوم ومنهم أبا سفيان وأمية بن أبي الصلت

يتحاورون بشأن تلك الإرهاصات متطلعين إلى معرفة هوية النبي القادم ،بينما يسترق جاسوسان لقيصر الروم السمع، وعندما يستفسرون الكاهن ينبئهم قائلا :

" الكاهن : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها ..فالعزيز من والاه والذليل من لاحاه !..و الموتور من عاداه !..يا معشر بني قحطان !..أقسم بالكعبة والأركان والبلد المؤمن السدان، قد منع السماء عتاة الجان بثاقب بكف ذى سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشان ! يبعث بالتنزيل والفرقان ! .. وبالهدى وفاضل البرهان ! ..تبطل به عبادة الأوثان!.."[8]

أما حوادث المشهد الثاني فتدور في بلاد الروم، حيث يرى القيصر على عرشه وحوله عظماء الروم وبين يديه سفير كسرى، وقد تأكد لديهم جميعا أن تلك الإرهاصات التي سمعوا بها أو رأوها في يقظتهم ومنامهم، إنما تخص دنو لحظة ميلاد النبي العربي، فيصاب القيصر بالذعر ويقرر مراسلة كسرى لإخباره بما صح لديه من الأنباء .

"القيصر : (مستمرا في حديثه) يا هرمزان ! .. أجب سلطانك كسرى ملك الفرس بما رأيته أمامك هنا في القصر، وما سمعته بنفسك من حوادث بادية العرب ومن رجال الكهنوت .. وقل له (في عزم وقوة) إن القيصر يقول بإقبال زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، بين كتفيه خاتم النبوة، ولوددت أني عنده حين يولد فأشرب غسالة قدميه ! "[9]

ويعود المؤلف بحوادث مسرحيته في فصلها الثالث والأخير إلى قصر كسرى أنوشروان، حيث تتجمع لديه الأخبار وينكشف له سر سقوط شرفات قصره وانطفاء نيران معابد المجوس ونضوب المياه، حيث يستعين بمنجمه الكبير (بزرجمهر) الذي يخبره بدنو لحظة ميلاد النبي العربي وينذره بأن تلك الإرهاصات هي علامات انهيار المملكة الفارسية وتختتم المسرحية بانتشار نور عظيم، وسماع عبارات يرددها صوت هاتف معلنا ميلاد النبي محمد — ص —

" هاتف : (من وراء الغيب بصوت عجيب) يا طارق يا طارق !، ولد النبي الصادق، بوحي ناطق .

كسرى : (مرتاعا) ماذا أسمع ؟(سكوت عام وأضواء عجيبة ورعود وبروق..)

كسرى : (محتارا) إنها لأضواء عجيبة ! .. وكادت هذه الارتجاسات أن تجدد عهدها بالأمس !

هاتف : (من وراء الغيب بصوت عجيب) لقد ظهر النور وبطل الزور ! (أضواء جميلة متلونة مشرقة فيها مناظر مختلفة تتلوها وجبة عظيمة .)[10]

أهداف توظيف البعد الديني في المسرحية

نستشف مما تقدم من العرض الموجز الذي قدمناه لحوادث مسرحية (المولد) أنها تصور الإرهاصات العظيمة التي سبقت ميلاد النبي محمد – ص –، و" الموقف العدائي الذي أبداه كل من الفرس واليهود والنصارى ضد الإسلام، وذلك قبل أن يولد الرسول، لأنهم كانوا يرون في الإسلام خطرا على ملكهم وطغيانهم، فالمسرحية تطرح قضية تنم عن رؤية دينية. "[11] قصد الكاتب من خلالها تصوير انتصار الحق على الباطل، هذا الانتصار الذي يقترن بميلاد النبي المصطفى كما ورد في المسرحية على لسان (بزرجمهر) وهو يجيب (كسرى) عن سؤاله بخصوص صفات النبي القادم :

" بزرجمهر : إنه يزين العالم بالدين والعدل، وينقاد له الملوك، وتتيسر له الأمور، ويحصل في زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن ."[12]

إن مسرحية (المولد) قد نشرت وعرضت في وقت كانت فيه الجزائر تكابد ويلات الاستعمار الفرنسي الذي انتهج سياسة التجهيل والتفقير والاستعباد، ولم يكن هذا الاستعمار ليخفي نواياه الصليبية الحاقدة واستبدالها بالإسلام أو تشويهه، وتعد هذه المسرحية " تعبيرا صريحا عن سخط المفكرين الجزائريين إزاء نشاط الاستعمار لأجل تمسيح الشباب الجزائري، وضرب الحضارة العربية الإسلامية، ففي هذه الظروف التاريخية الصعبة، كان المجتمع الجزائري في أمس الحاجة إلى إحياء تاريخه بالرجوع إلى الأصل العربي

الإسلامي لبعث الحمية العربية الإسلامية والوطنية في نفوس الشعب ."[13] وفي هذا السياق نجد المؤلف يقول في إهداء مسرحيته : " إلى غير المتعصبين والمغرضين ...إلى المخلصين لمحمد صلى الله عليه وسلم "[14] فالدارس لهذه المسرحية لا بد وأن يستخلص مجموعة من القيم التربوية التي تضمنتها ومنها :

أولا :إحياء التاريخ الإسلامي، فالمسرحية تعود بالمتلقي إلى تلك الأجواء التي سبقت ميلاد النبي محمد – ص- وما رافقها من إرهاصات وعلامات جعلت الناس أعاجم وعربا، ملوكا ووزراء وكهانا ومنجمين وغيرهم يتطلعون في فضول عارم إلى معرفة سر تلك الإرهاصات العظيمة، فمن خلال هذه المسرحية " استطاع عبد الرحمن الجيلالي، أن يعيد المشاهدين، والمستمعين – حيث إنها مثلت في الإذاعة – إلى ما قبل ميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ينتقل بهم في اليمن القديمة، وبلاد فارس "[15]

ثانيا : الدعوة إلى تعظيم الإسلام وتمجيده باعتباره الأحق بالإتباع، والأجدر بالإخلاص، وهذا في مواجهة تلك الظروف العصيبة التي كان يحياها الشعب الجزائري تحت نير الاحتلال الفرنسي فالمسرحية تصور بطلان معتقدات الناس من فرس وعرب وروم ويهود، وإذا جاز لنا تحديد طرفي الصراع الدرامي في المسرحية لقلنا إنه بين الباطل الذي يجسده الواقع القائم من جهة، وبين الحق الذي يشخصه مولد النبي محمد – ص- من جهة ثانية، ولعل مثل هذا الطرح التجريدي الذي تراهن المسرحية على عرضه وإبرازه هو الذي جعل " المؤلف يبذل قصارى جهده في عرض الأحداث دون التركيز على رسم الشخصيات وتحديد أبعادها النفسية، وكان ذلك سببا قويا في سرد الأحداث وعرضها بدل مناقشتها وتداولها في الإطار الفني للمسرح المعتمد بالدرجة الأولى على الصراع . "[16] لذلك نرى أن الصراع قد جاء باهتا والشخصيات كثيرة العدد مسطحة والحوادث " لا تخضع في تسلسلها وتطورها للمنطق والسببية وإنما تتحكم فيها الصدفة والعشوائية، أو ربما رغبة الكاتب في الإغراب والإثارة، بحيث تبدو غير معقولة أو غير

مألوفة وبحيث تأتي النهاية مفتعلة ومتكلفة، لا غاية لها إلا تحقيق الهدف الخلقي التعليمي."[17]

ثالثا : استغلال بعض المواقف الدرامية من أجل بث قيم وتعاليم تربوية، فبالإضافة إلى إحياء التاريخ الإسلامي وتعظيم الإسلام والإشادة بالنبي محمد – ص – فإننا نجد الكاتب يسعى إلى تمرير بعض النصائح التربوية للمتلقي مثل الدعوة إلى تعلم اللغات الأجنبية في هذا المقتطف حيث يدور حوار في قصر كسرى يكشف فيه سفيرهم معرفته بلغة الروم :

" الهرمزان : وهناك أدركت فضل والدي المنعم حيث كان حريصا علي في تعلم اللغات الأجنبية فدعوت له في ذلك المقام وترحمت عليه !

الموبذان : (منشدا)

بقدر لغات المرء يكثر نفعه وتلك له عند الشدائد أعوان

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا فكل لسان في الحقيقة إنسان

الجميع : (مستحسنا) هو ذاك ! هو ذاك ! "[18]

ويبدو أن هذا الموقف يعكس رأي عبد الرحمن الجيلالي بخصوص قضية تعلم اللغات الأجنبية وهي القضية التي تنازعها رأيان داخل المجتمع الجزائري عموما في الحقبة الاستعمارية، يدعو أحدهما إلى مقاطعة اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية باعتبارها لغة المستعمر، فهي بذلك تشكل خطرا ليس على اللغة العربية فحسب، ولكنها خطر على هوية المجتمع في عمومه من دين وعادات وتقاليد، وبخاصة ما تعلق بالمرأة في تشبهها بالأوربيات آنذاك، في حين يدعو الرأي الثاني إلى تعلم اللغات الأجنبية لأن من تعلم لغة قوم أمن شرهم أو مكرهم كما يقال، وهو الموقف الذي تبناه الجيلالي من خلال الموقف الدرامي الذي أوردناه آنفا .

الخلاصة

إن مسرحية (المولد) قد وظف الإرهاصات التي سبقت مولد النبي محمد – ص – من أجل تحقيق أهداف تربويه تنسجم مع تطلعات الحركة الوطنية الجزائرية، وإذا سجلنا بعض الملامح الفنية على هذه المسرحية من حيث مدى نضجها أو ضعفها، فإن ذلك " قد يكون بسبب رغبة الكاتب في الإرشاد والتعليم وانصرافه إلى أداء مضمونه الفكري مما نتج عنه اتسام المسرحيه بالطابع التعليمي ."[19] وفي كل الأحوال فإن هذه المسرحية قد لبت ما كان منتظرا منها في وقتها وفي سياقها التاريخي، سواء ما تعلق بموضوعها، أو الفترة التي كتب عنها، أو الفترة التي كتبت فيها .

الهوامش

[1] دبوز، محمد علي : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ص 21

[2] إسماعيل، سيد علي : أثر التراث العربي في المسرح المعاصر، ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة) ، دار المرجاح (الكويت) ، سنة 2000 ، ص 185

[3] – الجيلالي، عبد الرحمن : المولد والهجرة، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1987.

[4] – جريدة البصائر ، السلسلة الثانية، ع 136 سنة 1950، الجزائر، ص 6 .

[5] – مرتاض، عبد الملك : فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931- 1954، د.م.ا، المطبوعات الجامعة الجزائر 1983 ، ص 224.

[6] - الجيلالي، عبد الرحمن : المولد والهجرة، ص 7.

[7] – المصدر نفسه ، ص 17 .

[8] – المصدر نفسه ، ص 48 .

[9] – المصدر نفسه، ص 65 .

[10] – المصدر نفسه ، ص 82 .

[11] – العيد، ميراث : أدب المسرحية العربية في الجزائر (نشأته وتطوره)، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، سنة 1988 ، ص ص 136، 137.

[12] – الجيلالي، عبد الرحمن : المولد، ص 81 .

[13] العيد، ميراث : أدب المسرحية العربية في الجزائر (نشأته وتطوره)، ص 138.

[14] – الجيلالي، عبد الرحمن : المولد، ص 4 .

[15] – مرتاض، عبد الملك : فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931- 1954، ص 226 .

[16] – لمباركية، صالح : المسرح في الجزائر ج2 : دراسة موضوعاتية وفنية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر 2005، ص 34 .

[17] – العيد، ميراث : أدب المسرحية العربية في الجزائر (نشأته وتطوره)، ص 141.

[18] – الجيلالي، عبد الرحمن : المولد، ص ص 71، 72.

[19] – العيد، ميراث : أدب المسرحية العربية في الجزائر (نشأته وتطوره)، ص 144.

العلامة عبد الرحمن الجيلالي والإعلام المسموع والمرئي

د. عبد المجيد قدور

جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة

عبد الرحمن الجيلالي هامة من هامات الجزائر، وأحد أعلامها الأفذاذ،متعدد المواهب ومتعدد الأسماء والألقاب، هناك من يدعوه بالشيخ ،وهناك من يدعوه بالأستاذ؛ بينما هناك من دعاه بالعلامة وبالشيخ الفقيه، ونحن نقول هو المؤرخ والفنان والأستاذ والمفتي أو قل هو جميع تلك الألقاب والأسماء أي العلامة عبد الرحمن الجيلالي.

عرف هذا الرجل المسرح والرياضة ،وأتقن المديح النبوي والغناء النقي، كالموشحات والأزجال ولاسيما ذات الطابع الأندلسي منها ،لكن عبد الرحمن بن الجامع الكبير والجديد وابن سيدي رمضان والسفير(صفر) خلال الثلاثينيات احتك برجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،وأصبح الأستاذ والشيخ شأنه شأن كل من ينتمي للجمعية خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي .

بعد تحمله لعبء وظيفة الإفتاء أصبح رجل رأي الدين ،فأصبح بذلك فوق الآخرين،لاسيما بعد أن اثبت جدارته ومقدرته العلمية والعقلية. وإذا اختير بعد الاستقلال ليكون عضو لجنة الإفتاء تحت إشراف المرحوم أحمد حماني .فهو الجدير بذلك.

وإذا كان الجامع الكبير وجامع سيدي رمضان بالعاصمة ومسجد ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي مراكز للعلم والتفقه في الدين الإسلامي للجزائريين، فقد كان الشيخ عبد الرحمن الجيلالي واحدا من أولئك الذين تلقوا تعليمهم الديني فيها، كغيرهم من أبناء العاصمة في بدايات القرن العشرين .ثم تحول إلى مدرس وواعظ بها.وكان العالم -آنذاك- يقف على مفترق الطرق ،ويعيش على أبواب حرب كونية مدمرة.

وقد تناول شيخنا هذه أو تلك الجوامع الثلاثة بالدراسة في العديد من أبحاثه التي صنفت هذه الآثار ضمن المعالم الإسلامية الأكثر أهمية في الجزائر العاصمة، حتى أنه أنجز

دراسات جدية غاية في الدقة ، ركز فيها على فنيات تلك المساجد المعمارية والصناعية الدقيقة، ولعل ذلك ما دفع به لميدان البحث والتعمق في رصد حركة المجتمع الجزائري ودراسة جوانبه السياسية والعلمية .الأمرالذي جعل كتاباته في هذا المجال مرجعا لكل الدارسين والباحثين والقراء من كل الفئات على المستوى الداخلي والخارجي ،لاسيما لدى الشعوب العربية لما تميزت به من دقة وشمولية،خاصة الجامع الكبير الذي حظي بدراسة مستقلة نشر ضمن أعمال الذكرى العاشرة للاستقلال الجزائر والذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر .وعلى رأس أولئك الدارسين المستشرق الفرنسي الشهير جورج مارسي.

الجيلالي الإذاعي ([1])

الشيخ عبد الرحمن كان متعدد المواهب ،أو موسوعة كما ذكر أحد الباحثين،كان خبير في فن الموشحات الدينية([2])والأناشيد الوطنية والدينية ،وهذا بدون شك سيجعله انداك محل إعجاب واحترام،إذ كان الجزائريون يستعملون هذا الفن للتعبير عن مكنونات الشعب

1- اخترت هذا الموضوع لأن المحاور الأخرى قد سبق وتناولها زملائي الباحثين. وعلاقة هذا العلامة تتصل بوسائل الإعلام ، فهو متبوع بالإذاعة سواء في تدشين أو في حديث ديني أو اجتماع .أو استطلاع الهلال.

[2] –الموشحات فن شرقي انتقل إلى الأندلس من المشرق العربي ثم جاء بة المهاجرون الأندلسيون إلى بلاد المغرب العربي الكبير.ابن خلدون عبدالرحمن.كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر.. بيروت،دارالكتاب اللبناني.1960،ج2،ص1138؛ عبد المجيد قدور .هجرة الأندلسيينالى المغرب الاوسط"الجزائر"ونتائجها الحضارية .خلال القرنين 16 و17.م جامعة الأمير عبد القادر ،معهد التاريخ. 1994.ص ص254-260.

وهو نوع من مقاومة المحتل ولاسيما في الاحتفال بالمولد النبوي والمناسبات الدينية ([3]).

وقد ورد أن الشيخ بوقندورة مفتي المذهب المالكي بالعاصمة كان يعقد حلقات للذكر بمسجد ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، تعرف ب "الحضرة أو القصادين"، إذ يقوم فيها الحاضرون بإنشاد القصائد الدينية أو ما يعرف بـــ المديح، وكان الشيخ عبد الرحمان الجيلالي يحضر هذه الحلقات، فاكتسب معرفة الأزجال والموشحات الأندلسية حتى أصبح خبيرا فيها، رغم أنها معقدة عروضيا ولها طابع صوفي تتشابك فيها أصول الألفاظ المعبرة المشحونة بالشعور العاطفي والدين،وهي تحمل ذكريات من زمن الحركة الإصلاحية.

ولحسن الحظ أنشأ العديد من مثقفي وفناني ورياضيي الجزائر العاصمة في تلك الفترة -العقود الأولى من القرن العشرين- العديد من الجمعيات والنوادي لممارسة أنشطتهم المختلفة، وكان في مقدمتها نادي الترقي بساحة الشهداء (حاليا)أكثرهم أهمية نظرا لنوعية رواده من كبار المثقفين ومشاهير العلماء. وفي نادي الترقي بالذات تمكن الشيخ عبد الرحمان الجيلالي من الاحتكاك برواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وهنا استطاع عبد الرحمن الاحتكاك بشخصيات بارزة ،مثل المحامي الطاهر بن علي الشريف، الذي أنشأ جمعية المهذبية الجزائرية ،وأحمد توفيق المدني وعمر راسم والشيخ محمد العيد آل خليفة وعبد الله نقلي، وكان لهؤلاء الفضل في انتشار الحركة المسرحية والثقافية في مختلف أرجاء الجزائر.وقد عرف كيف يستفيد من تجربة النشاطات المسرحية التي عرفت كثافة في تلك الفترة لكونها نالت اهتمام نخبة المثقفين أمثال هؤلاء([4]) .

---

[3]-المديح والأغاني الدينية كان لها شان في وقت ليس فيه وسائل ترفيه .وكان يدعى لها وتقام في الأفراح والأعراس، وفي الأعياد والمواسم الدينية كالمولد النبوي الشريف وغيره .

4- ملحق #2 10:29:21 14/11/2010ص 14

وقد ابتدأت برامجه الإذاعية تلك منذ سنة 1940، وبشهادة أرشيف الإذاعة الذي مازال يحتفظ بكمية هائلة من تسجيلات تلك البرامج إلى اليوم.واستطاع صاحبها بمرور الأيام من الاستحواذ على جمهور المستمعين وجذب انتباههم نحو الإذاعة وبرامجها، واستطاع بالتالي تحويل محطة الإذاعة المسموعة إلى مدرسة للتربية والتوجيه الجماهيري .([5])

ومن المعروف أن ذلك كان من أصعب الأمور،خاصة إذا تصورنا ظروف تلك المرحلة في وقت اشتد فيه ظلم المحتل،الذي نصيب عيونه في كل مكان وفي كل اتجاه،فما بالك بمحطة الإذاعة وهي مؤسسة من مؤسسات المحتل البغيض صاحب السيادة والكلمة .

وتكاد تجمع المصادر على أن الشيخ عبد الرحمان الجيلالي التحق بالإذاعة الوطنية التي قدم فيها برامجه للإجابة على تساؤلات المستمعين الدينية، كما اشتهر ببرنامج لكل سؤال جواب،الذي كان ركز فيه على مقومات الأمة ،وعلى مفاخر التاريخ القومي الإسلامي، فاستحسنته الجماهير الجزائرية ،ونال رضاها وإعجابها ([6]).

وقد أدى نجاح برنامجه الأول وشيوعه إلى أن فكرت إدارة الإذاعة وقررت في إنتاج برنامج آخر،وهو برنامج "رأي الدين في أسئلة المستمعين" الذي لعب دورا كبيرا في توعية الناس لاعتماده على نهج الإصلاح الديني والاجتماعي .ولكونه نوع من المقاومة للاستعمار الذي لا يمكن أن يسود مادام القرآن يتلى في بيوت أذن الله أن يذكر فيها اسمه.

ثم تحولت أحاديث الجيلالي إلى دروس وحلقات دقيقة تذاع وتنشر مباشرة،مكتوبة بأسلوب سلس سهل الفهم ، بعيد عن التعقيد. يفهمه الشعب الجزائري ،ومع الأيام تحولت الإذاعة بفضل الشيخ الجيلالي إلى روضة للتربية والتوجيه، تصلها يوميا عشرات

---

[5]- http://ejabat.google.com / ejabat/report

[6]– البرنامج كان يخدم القضية الجزائرية دون أن يدري المستعمر بذلك لأنه يستعمل رموز

الرسائل، مما جعل برامجه أسبوعية ثابتة يجد فيها المستمعون الإجابة عن تساؤلاتهم الدينية والدنيوية على أساس شرعي معتدل. وتحل ما يشغلهم من مشاكل أجتماعية.

وبديهي كانت الرسائل تأتي بالآلاف يوميا ،فما بالك في الأسبوع؟. وقال الأستاذ الجيلالي نفسه كنت أجيب على ما تيسر من أسئلة المستمعين .نظرا لاستحالة الإجابة عنها جميعا .

ومن المرجح أن علاقة الجيلالي بالإذاعة تعود إلى عقد الثلاثينيات ،وذلك كما اشرنا حينما أنشأ العديد من مثقفي وفناني ورياضي الجزائر العاصمة في بدايات القرن العشرين جمعيات ونواد يزاولون فيها أنشطتهم المختلفة، وكان نادي الترقي بساحة الشهداء –حاليا– أكثرها أهمية لكونه كان مقصدا للعباقرة ونخبة المثقفين والعلماء. الذين احتك بهم الشيخ عبد الرحمان الجيلالي وفيهم رواد جمعية العلماء المسلمين،وقد استفاد من تجاربهم ونشاطاتهم الثقافية التي عرفت كثافة منقطعة النظير، لكونها نالت اهتمام العديد من المثقفين مثل أحمد توفيق المدني وعمر راسم والشيخ محمد العيد آل خليفة وعبد الله نقلي،الذين نشروا الحركة المسرحية في الجزائر الكبرى،تركتأثرها في نفسية الجيلالي([7]).

ومن المتفق عليه أيضا أن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي التحق بالإذاعة الوطنية وقدم فيها برامجه ، واشتهر ببرنامجين اثنين هما:

1- برنامج لكل سؤال جواب الذي كان ركز فيه على مفاخر التاريخ القومي الإسلامي، فاستحسنته الجماهير ونال رضاها، وبسبب نجاحه قررت إدارة الإذاعة إنتاج برنامج آخر

---

7 - - http://difaf.net /main

2- رأي الدين في أسئلة المستمعين الذي لعب دورا كبيرا في توعية الناس بحكم اعتماده على نهج الإصلاح الديني، ثم تحولت أحاديثه إلى دروس ونشريات دقيقة مباشرة، مكتوبة بأسلوب متميز سهل الفهم بعيد عن التعقيد.

ومع الأيام تحولت الإذاعة بفضل الشيخ الجيلالي إلى مدرسة للتربية والتوجيه، تصلها يوميا عشرات الرسائل، ويقول الجيلالي مرارا وبلسانه:"كانت أسئلة المستمعين تصلني بكثافة، وكنت أحاول الإجابة عنها بدقة، مستعملا أسلوبا سهلا يتماشى وثقافة المواطنين ،وكنت أعد البرنامج مع الأساتذة عثمان بوقطاية، أحمد مكحل ومحمد الأخضر السائحي. "

وقد أكد هذا شاهد عيان قائلا:" بدأ رحلته الإذاعية تلك سنة 1940 و لم تتوقف إلا عند منتصف ثمانينات القرن الماضي، عندما غادر مبنى الإذاعة قسرا وهو الذي كان يؤمن تمام الإيمان بأن "الأخلاق تبنى بالتهذيب والإحسان"، وبدأ صوت العقل يختفي شيئا فشيئا لصالح أصوات أخرى عصفت بالخصوصية الجزائرية وأتت على عشرات الآلاف من الضحايا بعد ذلك في أقل من عشر سنوات([8]).

لقد كان موسوعيا بكل المعاني الكبيرة للموسوعية، خبيرا بالموسيقى الدينية والدنيوية. فقد كان الشيخ بوقندورة مفتي المذهب المالكي بالعاصمة يعقد حلقات للذكر بمسجد ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، تطلق عليها تسمية الحضرة أو القصادين، يقوم فيها الحاضرون بإنشاد القصائد الدينية أو ما يعرف بـــ "المديح".

ثم يضيف قوله:"كان الشيخ عبد الرحمان الجيلالي يحضر هذه الحلقات، فتكونت لديه ملكة معرفة الأزجال والموشحات الأندلسية، حتى أصبح خبيرا فيها، رغم أنها معقدة

---

[8] - يشير المرحوم الطاهر وطار إلى العشرية الصعبة " التسعينيات "وما تعرضت له البلاد والعباد من معاناة وظلم..

عروضيا ولها طابعا صوفيا تتشابك فيها أصول ممازجة الألفاظ المشحونة بالشعور العاطفي والديني. وفي مطلع السبعينيات من القرن الماضي اختار أن يحتفل بالذكرى الألف لتأسيس مدينة الجزائر بطريقته الخاصة، عندما ربط تاريخ هذه المدينة بتاريخ مدينتين أخريين، هما مليانة والمدية، فأصدر كتاب خاص بالمدن.

وحسب شهادة الروائي الراحل الطاهر وطار دائما،والذي يبد من كلامه أنه كان يقدر الشيخ حق قدره قال عن الراحل عبد الرحمن الجيلالي:" انه لما نصّب الأول مديرا عاما للإذاعة مطلع تسعينيات القرن الماضي، اقترح عليه إعادة برنامجه فوافق لكنه رفض أن توضع تحت تصرفه سيارة وفضل أن يذهب ماشيا إلى مقر الإذاعة، لكن البرنامج سرعان ما توقف فالزمن تغيّر، والبلاد كانت مقبلة بالفعل على ذلك الشلال من الدم"([9])

ومعرف أن شخصية كعبد الرحمن الجيلالي تتخذ أسوة ونموذج للإصلاح لا يمكن شراءها أو خداعها ،لدرجة أنه رفض أشياء اعتبرها ليست من حقه وهي في الحقيقة من حقه .فرفض أن تخصص له سيارة تحمله ذهابا وإيابا. بينما كان من هم دونه درجة يعتبرونها حقا لا يمكن التخلي عنه بل يجعلونها من شروط التوظيف .

لقد كان وطار يقول: "صار صوت الشيخ عبد الرحمان جزءا من وجداننا، وصارت حصته، هي كل كتابنا المرجعي، الإمام مالك وسيدي خليل، وابن أبي زيد القيرواني.. لا أحد منا يشكك فيما أفتى به الشيخ، بل إن معلمي القرآن، ومن يمكن تسميتهم: بفقهاء الدشرة، وحفّاظ سيدي خليل، يعتمدونه اعتمادا مطلقا"([10])

ويقول الكاتب بعد وفاة المرحومين :"" لكننا أصبحنا الآن مجبرين على الحديث عن الطاهر وطار وعن عبد الرحمن الجيلالي معا، وحتى على ذلك الزمن بصيغة الماضي الذي

---

[9] – كان الروائي الطاهر وطار مدير الإذاعة الجزائرية فاقترح على الشيخ الجيلالي تعديل برنامجه .أو استبداله.

[10] -http :www.youtbe.com/watch?

لن يعود ،وسط غياب تام للحكومة :تشييع"مفتي الجزائر"إلى متواه الأخير([11])
تكريمه :ويقول الأديب الطاهر وطار : "قبل سنتين احتفل الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بعيد ميلاده المائة، ساعتها نشر الروائي الطاهر وطار شهادة بشأنه بعنوان"الشيخ عبد الرحمان الجيلالي ··مائة سنة وما زالت البركة"، ولم تمض سنتان على ذلك حتى رحل صاحب الشهادة ورحل بعدها الذي كتب عنه·". ولله في خلقه شؤون ؟
بعد احتفال عبد الرحمن الجيلالي بعيد ميلاده المائة، وساعتها نشر الروائي الطاهر وطار شهادة بشأنه بعنوان"الشيخ عبد الرحمان الجيلالي ··مائة سنة وما زالت البركة"، ولم تمض سنتان على ذلك حتى رحل صاحب الشهادة ورحل بعدها الذي كتب عنه ·

ثم يضيف متعجبا قوله :" هي سنة الرحيل إذن، رحيل الكبار، بدءا بعبد الله شريّط، مرورا بالطاهر وطار ومحمد أركون، وليس انتهاء عند الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الذي لن نراه بعد الآن ليلة الشك عند حلول رمضان أو عيد الفطر، وهو الذي كان صوته المميز يحيل إلى برنامجه الديني الأشهر "رأي الدين في أسئلة المستمعين"، وبرنامجه الثقافي التاريخي الآخر"لكل سؤال جواب "بعدها مع الأساتذة عثمان بوقطاية، أحمد مكحل ومحمد الأخضر السائحي رحمه الله لفترة طويلة ·

بيد أنّ الراحل ورغم موسوعيته وقيمة منجزاته وعلو كعبه في مجال الموشحات الدينية، إلاّ أنّه مع ذلك بقي في الظلّ يعيش حياة متواضعة، ولم تبرزه الأضواء إلاّ في مناسبات قلائل، إثر فوزه بجائزة الجزائر الأدبية الكبرى قبل قرابة نصف قرن، وتكريمه من لدن الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة في أكتوبر/تشرين الأول 2003، حيث منحه شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة الجزائر،هذا فضلا عن قيام المؤسسة الجزائرية

---

[11] – يقصد الكاتب والشاهد عيان أن عبد الرحمن الجيلالي لم ينل حقه كاملا كإمام او كمفتي الديار الجزائرية ولو سابقا.

للأرشيف بالاحتفال بيوبيله الذهبي([12]) الذي صادف شهر فبراير/شباط من سنة 2007.

ويبدأن عبد الرحمان الجيلالي ورغم ثقل السنون ورحلة العمر الطويلة ، قد ظلّ محافظا على حيويته المعهودة ونشاطه الدائم إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة ،حيث واصل تقديم حصص إذاعية وتلفزيونية، بجانب تدريسه الفقه المالكي في جامعات الجزائر.

ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان وكما قال الشاعر

كل ابن أنثى وان طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول

في موكب مهيب، وري الراحل الثراء عشية الجمعة بمقبرة سيدي أمحمد وسط الجزائر العاصمة، بحضور مكثف لجمع غفير من الشخصيات والمثقفين ورجال العلم والآلاف من مواطني الفقيد الذين قدموا لتوديع أحد كبارأعلام الجزائر في العصر الحديث . الذي كان الجزائريون طيلة عشرات السنين يكتبون له من كل جهات الوطن يسألونه في رأي الدين في أمورهم وكان يرد على الأسئلة من خلال حصته على القناة الإذاعية الأولى فتعلمت منه الجماهير على اختلاف فئاتها وأذواقها([13])

وذكر أبو عمران الشيخ وهو من ابرز علمائنا وهو رئيس المجلس الإسلامي الأعلى حاليا قائلا:"أنه شخصيا داوم على الاستماع لفتاوى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ودروسه منذ سنة 1948، مؤكدا أنه تأثر بأسلوبه ومنهجه الخاص به والمتميز بـــ"الدقة والاختصار" وأضاف أنه استفاد من دروسه التي يلقيها عبر أثير الإذاعة أكثر مما تعلمه وهو يتتلمذ على يد هذا العلامة مباشرة في المعاهد والحلقات، مشيدا بالاختيار الذكي للشيخ الجيلالي بإلقاء دروسه عبر وسيلة إعلامية كالإذاعة الوطنية لتعميم الفائدة

ثم يصف رئيس المجلس الأعلى الإسلامي مدى مكانة هذا العلامة لدى الجزائريين

---

[12] – مصطلح يطلق على الاحتفال بالعيد المائوي، أي ذكرى مرور مائة عام على مولد الجيلالي.

[13] – نقل عن منتدى الأخضرية الافتراضي

وفضله كالقمر في الليلة الظلماء،بل انه احتل مكانه في قلوبهم لدرجة أن أصبحوا ينتظرون طلعته على الشاشة في الوقت المعلوم والمناسبات الدينية، لاسيما ليلة الشك كل سنة ،حيث قال أبو عمران الشيخ بالحرف :" الشيخ عبد الرحمان الجيلالي أطفأ هذه السنة شمعته المائة. لكنه أشعل على مدار حياته الخصبة آلاف الشموع التي لا تنطفئ لتنير دروب الجزائريين في أرضهم الطيبة بضياء الإسلام. انبعث صوته عبر أثير الإذاعة على مدار سنوات طويلة، فاخترق القلوب والعقول بكلام الحق، كما تحولت طلعته البهية عبر شاشة التلفزيون ليلة الشك إلى شقيق لهلال رمضان ترقبه كل العائلات الجزائرية لتبدأ شهرها الفضيل"([14]).

وهذا معناه أن الناس يتشوقون لهذا الرجل المتميز وظهوره مثل شوقهم لهلال رمضان كل سنة .فماذا سيكون موقفها هذه السنة عند حلول الشهر الفضيل.؟

كما أشار الشيخ إلى تكريمه المذكور آنفا بقوله :" منحته جامعة الجزائر دكتوراه شرفية بتوصية من الرئيس عبد العزيز بوتفليقة حفظه الله ، كرمت جامعة الجزائر الشيخ عبد الرحمان الجيلالي بمنحه شهادة دكتوراه فخرية، وقد عبر عن غبطته وابتهاجه الكبير بهذا التكريم الذي اعتبره من أهم المحطات في حياته في سلسلة عمره الطويل".

وبدوره عبّر المدير العام لمؤسسة الشروق الأستاذ علي فضيل في كلمته الافتتاحية عن فرحته وفرحة كل طاقم "الشروق اليومي" باستضافة علماء الجزائر الأجلاء في مقر الجريدة، كما عبر عن عميق سعادته وهو يستقبل الشيخ عبد الرحمان الجيلالي، فقال إنه بركة ورمز شامخ من رموز الجزائر الخالدين، لأنه قضى حياته ينفع الجزائريين بعلمه

---

[14] – تعود الجزائريون على مشاهدة وسماع الشيخ عبد الرحمن الجيلالي كل المواعيد الكبرى ولاسيما حلول شهر رمضان وانتهاؤه . لدرجة أن أصبحت كلمة رمضان مقرونة بهذا الشيخ الموقر لعلمه ولبركته نظرا لطول عمره.

ويفقههم في شؤون دينهم ودنياهم وفق أصول الشرع السليم المعتدل الخالي من التعصب، كما ساهم كثيرا في تنمية الوعي الديني لدى المواطنين الجزائريين في كل مناطق الوطن.

وعاد السيد المدير علي فضيل إلى الوراء عند سنوات الخمسينيات والستينيات، حيث تتلمذ الناس على يدي الشيخ عبد الرحمان الجيلالي من خلال سماعهم الدائم لبرامجه الإذاعية الهادفة، فدخل قلوبهم وأنار عقولهم، واستطاع أن يحول الإذاعة إلى مدرسة للتربية والتوجيه، وقال أيضا إن أبناء جيله كانوا يتشوقون لسماع صوته الجهوري .

وفي الختام يكفي هذا العلامة فخرا كتابه المشهور الذي قال في شأنه،الدكتور عمار طالبي في تصديره للطبعة الجديدة من كتاب تاريخ الجزائر للمرحوم فقال:« إن كتاب "تاريخ الجزائر العام"للشيخ الجليل،والأستاذ الخبير،العلامة عبد الرحمن بن محمد الجيلالي،لمورد لحياة الجزائر،في مختلف أطوارها ووجوهها الاجتماعية والسياسية والعلمية والدينية والأدبية والتقنية والاقتصادية والصناعية، مع تراجم مفيدة لعباقرة هذا الوطن وعلمائها وزعمائها، منذ أقدم العصور إلى أيامنا القريبة سالكا في ذلك منهجا علميا، وما يقتضيه من أمانة تاريخية،وموضوعية،والاعتماد على المصادر الموثوقة، والوثائق الثابت.«...

و هنا نصل إلى أن الشيخ عبد الرحمان الجيلالي التحق ب الإذاعة الوطنية و قدم فيها برامجه التي تجيب على تساؤلات المستمعين الدينية، فاشتهر ببرنامج لكل سؤال جواب الذي كان ركز فيه على مفاخر التاريخ القومي الإسلامي، فاستحسنته الجماهير ونال رضاها، وبسبب نجاحه قررت إدارة الإذاعة إنتاج برنامج آخر هو رأي الدين في أسئلة المستمعين الذي لعب دورا كبيرا في توعية الناس بحكم اعتماده على نهج الإصلاح الديني.

ثم تحولت أحاديثه بعد ذلك إلى دروس ومواعظ دقيقة ومباشرة، مكتوبة بأسلوب متميز سهل الفهم بعيد عن التعقيد. ومع الأيام تحولت الإذاعة ،وبفضل الشيخ الجيلالي إلى مدرسة للتربية والتوجيه، تصلها يوميا عشرات الرسائل، حتى أصبحت برامجه أسبوعية

قارة يجد فيها المستمعون الإجابة عن تساؤلاتهم الدينية والدنيوية على أساس شرعي معتدل. وقد ابتدأت برامجه تلك منذ سنة 1940،واستمرت حتى التسعينيات من القرن الماضي وقد أكد الجميع احتفاظ أرشيف الإذاعة إلى اليوم بكمية هائلة من تسجيلات تلك البرامج إلى اليوم.وبدون أدنى شك إلى الأبد. وهذا ما سيخلد العلامة الراحل.بعد رحيله.

---

*ملاحظة :استعنا في هذه المقالة: ب مدونة الأستاذ بشير خلف ،صحيفة البصائر،الشروق الجزائرية،موسوعة ويكيبيديا
http://ar.wikipedia.org/wiki/

عبد الرحمن الجيلالي(*)

من آثاره، ومن خصائصه في الكتابة

د. محمد العيد تاورته

جامعة منتوري – قسنطينة.

تقوم هذه المداخلة على نقطتين أساسيتين هما:

1 – محاولة إحصاء آثار العلامة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجلالي.

2 – محاولة تلمس القضايا التي اهتم بها في الكتابة، ومحاولة التعرف على أساليب الكتابة عنده من بعض ما قرأناه من آثاره الكتابية.

تمهيد:

لقد ملأ الأستاذ الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي فضاء الجزائر في معظم القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين علما وأدبا، تأريخا وفقها، وأحاديث وفتاوى، ومشاركة في ندوات وملتقيات علمية يصعب إحصاؤها في هذه العجالة، ولذلك جعلنا عنوان هذه المداخلة (***من كتابات عبد الرحمن الجيلالي ومن خصائص أسلوبه في الكتابة***)؛ فالرجل كان من المجتهدين في خدمة وطنه طوال حياته التي امتدت لأزيد من قرن من الزمن لم يتوقف في تلك الحياة عن الإسهام العلمي. ولعل ما كنا نعرفه عنه، ويعرفه معظم جمهور المجتمع الجزائري هو ذلك البرنامج الإذاعي (رأي الدين) والذي كان يبدأه وينهيه بعبارتين لم نسمعهما من غيره بالأسلوب ذاته؛ فقد كان يبدأ أحاديثه بالعبارة الآتية: (أعوذ بالله السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم... وبأسلوب متفرد كذلك، كان ينهي أحاديثه بقوله: وفي هذا القدر كفاية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

(*) توفي رحمه الله بتاريخ صبيحة الجمعة 6 ذو الحجة 1431هـ / 12-11-2010م، ودفن بعد صلاة العصر بمقبرة (سيدي أمحمد بالعاصمة).

إن هذا الأسلوب في إيصال محتوى أحاديثه إلى المتلقي، فضلا عن هيئته وهندامه المعروفين جعلا منه علامة جزائرية، فضلا عن كونه علاّمة الجزائر في معظم القرن العشرين – رحمه الله.

1 – محولة إحصاء آثار عبد الرحمن الجيلالي:

إن الآثار التي عثرنا عليها حتى الآن هي على النحو الآتي، مرتبة ترتيبا تاريخيا من الأقدم إلى الأحدث؛ مع الاحتراز منذ البداية أننا لا نزعم لهذه الإحصائية الدقة، فالرجل قد عمّر - كما تعلمون – ما يزيد عن القرن ولاشك أن آثاره مبثوثة في أكثر من مكان.

وقبل أن نورد هذه الإحصائية نود أن نقف لحظة عند مؤلفاته المستقلة –الكتب- والمشهورة؛ فمن أوائل ما كتب الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي كتابه حول أستاذه محمد بن أبي شنب سنة 1932م، ثم عنايته بتاريخ الجزائر العام الذي أكد في مقدمته أن جملة من الذين يثقون فيه رشحوه لكتابة تاريخ الجزائر، وهو الكتاب الذي يعد عمدة ما كتب؛ إنه كتاب تاريخ الجزائر العام منذ أقدم العصور إلى الآن، وأخر طبعة اطلعنا عليها هي طبعة دار الثقافة في بيروت سنة 1980م، وتقع في أربعة أجزاء ضخمة. ومن آثاره في مجال الكتب المستقلة أيضا كتاب: "تاريخ المدن الثلاث: الجزائر - لمدية – مليانة" بمناسبة عيدها الألفي، وهو كتاب بالاشتراك، إلا أن إسهام الأستاذ الجيلالي يعد الإسهام الأكبر في هذا الكتاب. ولا بد أن نشير هنا إلى أن الأستاذ الجيلالي بالإضافة إلى اختصاصه في التاريخ، فإنه أديب فنان؛ من ذلك أنه كتب مسرحيتين إسلاميتين بعنوان: (المولد والهجرة) اهتدى في كتابتهما بالتاريخ إلا أنه في نهاية المطاف صاحب إحساس فني، وصاحب قدرة على تصور المواقف والشخصيات المسرحية، فضلا عما نجد له من استشهادات بالشعر العربي في بعض المواقف التاريخية تنم عن إحساس جمالي راق.

وفيما عدا هذه المؤلفات المستقلة فإن إحصاء آثاره الذي أشرنا إليه في مطلع هذا الحديث وجدناه بعد ذلك متواصلا على شكل أبحاث ومقالات وندوات علمية نوردها في القائمة الآتية:

- محمد بن أبي شنب، حياته وآثاره.(1)
- تاريخ الجزائر العام: (يشتمل على إيجاز واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع أطواره، وحركاته السياسية، والاجتماعية، والعلمية، والدينية والأدبية، والفنية، والاقتصادية، والعمرانية، والصناعية، مع تراجم العبقريين وأرباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ أقدم العصور إلى الآن).(2)
- تاريخ المدن الثلاث: الجزائر — لمدينة — مليانة بمناسبة عيدها الألفي (دراسات وأبحاث). إعداد ودراسة وتمهيد وتعليق عبد الرحمن الجيلالي.(3)
- المولد والهجرة: مسرحيتان إسلاميتان (في كتاب واحد).(4)
- الجامع الكبير بمدينة الجزائر: معماريا وتاريخيا.(5)
- مسجد سيدي مروان بعنابة "محاضرة".(6)
- تلمسان والقدس الشريف.(7)
- (البيعة ومبدأ الشورى في الإسلام)؛ مشاركة في ندوة علمية.(8)
- أبو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابه: "الدليل والبرهان".(9)
- شخصيات لامعة من الأوراس.(10)
- هؤلاء التوارك الملثمين (بحث) عبد الرحمن الجيلالي.(11)
- نظرة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المرأة.(12)
- من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلاّمة النابغة الشيخ مبارك الميلي (رحمه الله).(13)

- ابن خلدون وعصره. (بحث).(14)
- أسطر حول نشاط الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. "مقال" عبد الرحمن الجيلالي.(15)

2 – خصائصه في الموضوعات وفي الأسلوب:

إذا أردنا أن نجمل اهتمام عبد الرحمن الجيلالي من حيث القضايا والموضوعات فإننا نجد القضايا الوطنية والقضايا الحضارية الإسلامية مجسدة عنده في أحداث كبرى، ومن خلال شخصيات عبقرية تلفت الانتباه إلى قدرات عبد الرحمن الجيلالي في الاهتداء إلى المواقف وإلى الشخصيات التي كان لها تأثير مهم في القضايا الوطنية الجزائرية أو في القضايا الحضارية الإسلامية عبر تاريخ هاتين الأمتين الجزائرية والإسلامية.

ولعل مجرد قراءة أولية لعناوين الآثار التي أوردناها تدل على ما ذهبنا إليه من اهتمام عبد الرحمن الجيلالي، بداية من الكتابة في التاريخ الجزائري والكتابة حول المدن والشخصيات الجزائرية، وأيضا القضايا والمدن الإسلامية؛ إن من يقرأ –مثلا– ما كتب عبد الرحمن الجيلالي عن العلاقة بين مدينتي تلمسان والقدس الشريف، أو من يقرأ ما كتبه عن نظرة (الرسول عليه الصلاة والسلام) إلى المرأة، أو عن رأيه في الشورى والبيعة في الإسلام، فضلا عما عرف به عبد الرحمن الجيلالي من برنامج استمر طويلا وهو (رأي الدين).. إن من يقرأ كل ذلك يدرك العمق الذي كان ينطلق منه عبد الرحمن الجيلالي في آثاره المكتوبة حول الجزائر والوطن الإسلامي.

إن حيز هذه المداخلة لا تسمح لنا بتفصيل القضايا الواسعة والعميقة التي جسدها عبد الرحمن الجيلالي – فيما أحصيناه من آثاره – فذلك يحتاج إلى وقت أطول وإلى جهد أوفر وهو ما لا يتسع لنا الآن، ولعل الفرصة تتاح لنا أو لغيرنا من أجل الوقوف الدقيق والبحث المفصل والإحصاء الشامل لجهود هذا العلامة الجزائري الكبير.

غير أننا لا ينبغي أن نمر دون أن نقف بسرعة عند بعض ما لاحظناه من خصائص أسلوبية وعلمية وإنسانية في بعض ما قرأناه من آثار عبد الرحمن الجيلالي؛ لعل أول تلك الخصائص الإنسانية هي (الوفاء)، يتجلى ذلك في موقفين على الأقل وهما موقفه من أستاذه محمد بن أبي شنب الذي خلد الجيلالي ذكره في كتاب يعد من أهم المراجع حول ذلك العلامة الجزائري الذي نبغ في عشرينيات القرن العشرين رغم ظروف معاكسة لنبوغ الجزائريين في العهد الاستعماري الفرنسي. وأما الموقف الثاني الذي نلمس منه وفاء الرجل وإنسانيته هو موقفه من زوجته (أم غالب) التي كتب حولها فقرات إنسانية وعاطفية في مقدمة كتابه (تاريخ الجزائر العام) في طبعته الثانية؛ فقد وجدناه يعتذر لها عن إغفال اسمها في الطبعة الأولى من ذلك الكتاب، وقد كانت له نعم المعين والمساعد.

ومما يمكن أن يعد خاصية من خصائص الكتابة عند عبد الرحمن الجيلالي هو عنايته بالمواقف الحضارية الوطنية والإسلامية؛ لقد خلد في بعض آثاره أعلاما بارزين ينتمون إلى الحضارة العربية الإسلامية كما خلد مدنا وأحداثا تنتمي إلى هذه الحضارة؛ إن أبحاثه ومقالاته عن المؤرخ الكبير مبارك الميلي، أو عن البشير الإبراهيمي، أو عن ابن خلدون، أو عن مدينة القدس وتلمسان، وغير ذلك من المدن والأعلام.. إن كل ذلك — فضلا عما احتوته كتبه، وبخاصة تاريخ الجزائر العام – إن كل ذلك يجعل من الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي مؤرخا للحضارة الجزائرية، وللحضارة العربية الإسلامية ولأعلامها النابهين.

وهنالك خاصية أو مجموعة خصائص علمية وأسلوبية نعدها أساسية في أسلوب آثار عبد الرحمن الجيلالي وهي خصائص: (سعة العلم، ودقة التفصيل، مع التركيز والتكثيف) وهي خصائص تنسجم مع اختصاصه العلمي في مجال التاريخ، لكنها تشير إلى الجهد الكبير الذي بذله هذا الأستاذ الكبير في البحث والتحصيل الذي ظل متواصلا معهما طوال حياته المديدة (رحمه الله).

وإذا كنا لا نزعم الوفاء الدقيق لاستنباط هذه الخصائص فإننا سنحاول الوقوف بسرعة عند نصين من آثار عبد الرحمن الجيلالي هما: (أسطر حول نشاط البشير الإبراهيمي) و(ابن خلدون وعصره).

خاصية القدرة على التركيز في استنباط الأهم في الموضوعات التي يتطرق إليها والتي يقدمها بوضوح إلى المتلقي في أوجز العبارات وأدقها، وهي خاصية أو صفة لا تتاح إلا لمن أوتي قوة في الذكاء مع طول الممارسة في القراءة والكتابة، مثال ذلك أنه حين كتب عن (أهم أنشطة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي) قال منذ مطلع – مقاله: (يرتكز نشاط الأستاذ الإبراهيمي على شعارات ثلاث: اللغة العربية، والإسلام، والوطن).(1)

ودون أن نغوص في تفاصيل أسباب عناية الإبراهيمي طوال حياته بهذه الشعارات الثلاث – كما سماها عبد الرحمن الجيلالي – فإن أي عارف بكتابات الإبراهيمي وبسيرة حياته وبجهاده في سبيل الجزائر واستعادة أصالتها وهويتها – فإنه لن يجد عناوين أكثر ملاءة وأوجز سبيل في إبراز جوهر فكر الإبراهيمي منها، بله جوهر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية؛ أي من هذه الشعارات التي قدمها لنا الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في مطلع مقاله حول نشاط الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وإذا كان الإنسان – أي إنسان عاقل – في حياته إنما هو يعرف بأمرين أساسيين : الأمر الأول هو أطوار حياته من الولادة إلى الوفاة، والأمر الثاني إنما هو الأثر الذي تركه في حياته والذي يعرف به من قبل الآخرين العارفين بمكانة هذا الإنسان العاقل العامل النافع لنفسه ولأهله ولأمته – فإن الأمرين قد أوجزهما الجيلالي في أسطره حول الإبراهيمي، ومن هنا، فإن صفة أوسمة القدرة على التركيز لدى عبد الرحمن الجيلالي تتجلى أيضا في حديثه عن أطوار حياة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حين أوجزها في مراحل ثلاث فقال: "تتلخص أطوار حياة الشيخ في مراحل ثلاث، فالأولى هي طور النشأة التي هي طبعا طور التربية والتكوين، والفترة الثانية هي في انتقاله إلى الشرق الإسلامي، والمرحلة الثالثة هي عودته إلى وطنه العزيز عليه: الجزائر".

وبالفعل، فإن أي مؤرخ دارس لحياة الشيخ الإبراهيمي لن يجد سبيلا أكثر إيجازا في تلخيص حركة حياة الشيخ الإبراهيمي، حتى وإن تعددت تنقلاته داخل هذه المراحل الثلاث؛ فالإبراهيمي تنقل إلى المشرق الإسلامي مرتين مهمتين، وآب إلى وطنه — العزيز عليه — على رأي عبد الرحمن الجيلالي — أيضا، أوبتين مهمتين، كان لكل منهما أثر مهم في الذهاب والعودة.

والشاهد هنا هو قدرة الأستاذ الجيلالي على تكثيف المعلومة المقدمة إلى المتلقي دون إغراقها في تفاصيل الإطناب.

وهنالك خاصية أخرى في كتابه عبد الرحمن الجيلالي تضاف إلى التركيز والتكيف، وهي خاصية الدقة العلمية التي نجدها بارزة في آثار الجيلالي الكتابية، وهي خاصية لا تتنافى مع خاصية التركيز والتكثيف، بل إنها تتناسب مع كونه مؤرخا ينشد الدقة والدليل والتوثيق، وهذا ما نجده أيضا في مقاله حول الإبراهيمي حين تطرق إلى الحديث عن الأصول التي انحدر منها الشيخ الإبراهيمي منذ الجذع الأول لاستقرار الأسرة في رأس الواد؛ يقول الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في هذه القضية منتهجا أسلوب المؤرخ المدقق والمفصل: "فأما طور النشأة والتربية فإنه كان أمضاه هنا ببلده الأمين رأس الواد حيث مسقط رأسه يوم 14 جوان 1889م، فتربى ونشأ على يد أهله وذويه وأقاربه الأكرمين الذين هم سليل قبيلة أولاد إبراهم بن يحي بن مساهل التي يرتفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله الجذم الأول للأشراف الأدارسة، ومؤسس الدولة الإدريسية بهذا المغرب العربي في القرن الثاني للهجرة".(2)

ثم يستعرض لنا الجيلالي بتكشيف دقيق مراحل التكوين العلمي للشيخ الإبراهيمي وأهم أساتذته، وأهم ما أخذ عنهم من علوم ومؤلفات ذات سند صحيح، وبخاصة ما أخذ في الجزائر عن عمه محمد المكي الإبراهيمي، وما أخذ في القاهرة عن سليم البشري ومحمد بخيت حيث بقي في تلك المدينة الحضارية حوالي ثلاثة أشهر، والتقى فيها أيضا بأمير الشعراء أحمد شوقي.

كان الشيخ الإبراهيمي قد هاجر إلى المشرق سنة 1911م متقفيا أثر والده الذي سبقه إلى المدينة المنورة قبل ذلك بأربع سنوات فارّا من ظلم المستعمر الفرنسي في الجزائر آنذاك.

وحين وصل الإبراهيمي إلى المدينة المنورة كان من أهم وأشهر أساتذته هناك: الشيخ الوزير التونسي، والشيخ حسن أحمد الفيض أبادي الهندي.. وآخرين من كبار العلماء في المدينة المنورة آنذاك.

وهنالك تفتقت قريحة محمد البشير الإبراهيمي فأخذ عن أولئك العلماء، وأخذ — اجتهادا وعصامية أيضا — عن مكتبات المدينة المنورة من كتب ومخطوطات — معظم العلوم العربية والإسلامية، وساعدته في ذلك حافظة نادرة وذكاء وقّاد وقريحة عجيبة إلى درجة أنه أصبح مضرب الأمثال في كل ذلك.

ويتتبع عبد الرحمن الجيلالي مراحل حياة الإبراهيمي في جميع أطوارها بتكثيف ودقة على هذا النحو المركز سواء في الجزائر، أو في القاهرة، أو في المدينة المنورة، أو في دمشق بعد ثورة الشريف حسين بن علي في الحجاز سنة 1916م، ولذلك انتقل ضمن من أمرت السلطات العثمانية انئذ بانتقالهم إلى دمشق سنة 1917م التي أصبح فيها الشيخ الإبراهيمي عالما كبيرا، سواء في التدريس بالمدرسة السلطانية بدمشق أو في مجال الوعظ والإرشاد في المسجد الأموي، حيث جدَّد — كما يقول عبد الرحمن الجيلالي — جدد عهد العلامة الجزائري الشهير أحمد المقري صاحب نفح الطيب في الوعظ والإرشاد تحت قبة النصر في المسجد الأموي، وبخاصة في ليالي شهر رمضان المعظم، فذاع صيته في الأوساط العلمية والرسمية هنالك، وتخرج على يديه علماء كثيرون في تلك العاصمة العريقة.

تحدث الجيلالي في هذا المقال أيضا عن علاقة الشيخ الإبراهيمي بالإمام ابن باديس في المدينة المنورة سنة 1913 بمناسبة رحلة حج ابن باديس وكيف أن ثلاثة أشهر من لقائهما في المدينة المنورة والبقاع المقدسة كانت اللبنة الأولى في فكرة جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين التي ظهرت إلى الوجود في الجزائر بعد ذلك في الخامس من شهر مايو سنة 1931م.

وذكر عبد الرحمن الجيلالي أن للإبراهيمي أدوارا مهمة في إنجاح مشروع الجمعية؛ فهو الذي وضع قانونها الأساسي سنة 1924م، وهو الذي وضع لائحتها الداخلية حين اعتمدت من قبل الإدارة الاستعمارية، بل إن للإبراهيمي أدوارا وطنية أخرى منها أنه كان وراء الدفع لتكوين جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين بتونس، سنة 1934م.

كل ذلك كان منذ أن عاد الإبراهيمي إلى الجزائر في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وكل ذلك كان، وهو يعمل إلى جانب ابن باديس ونائب له بعد تأسيس الجمعية.

وحين أصبح الإبراهيمي رئيسا لجمعية العلماء بعد انتقال عبد الحميد بن باديس إلى رحمة الله بتاريخ 16 أفريل سنة 1940م — ركز عبد الرحمن الجيلالي على أن الإبراهيمي كان همه طوال الأربعينيات من القرن العشرين دعوة المجتمع الجزائري أفرادا وأحزابا إلى الوحدة.

أما بعد رحلة الإبراهيمي إلى الشرق سنة 1952م، وبعد اندلاع الثورة وهو هنالك فقد كان مساندا للثورة بكل ما أوتي من قوة إلى أن كان الاستقلال.

وفي أثناء وجوده في القاهرة رشحته الثورة لعدة مهمات لدى ملوك ورؤساء العرب والمسلمين لصالح الثورة، كما رشحته لعضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولم ينس الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي أن ينوه بكتابات الإبراهيمي وبمواقفه لصالح البلدان العربية ضد الاستعمار فكتب عن الشمال الإفريقي وعن مصر وعن فلسطين، بل وعن العالم الإسلامي، فآزر كلا من باكستان وأندونيسيا، وهما من أكبر الشعوب الإسلامية في القارة الأسيوية.

وينهي الأستاذ الجيلالي حديثه عن الشيخ الإبراهيمي بتنويهه بمكانته في عالم الكتابة والخطابة وبمواقفه إلى جانب الحرية لصالح الإنسانية.

(ابن خلدون وعصره) وخاصية سعة العلم في آثار الجيلالي:

يمكن أن نورد مثالا على هذه الخاصية عند الجلالي في نصه "عبد الرحمن الجيلالي وعصره"، فهو حين كتب هذا البحث(3) تطرق إلى أن هذا العالم قد جاب اسمه وعلمه الأوطان، وتدارست مكانته عبقريات من كل الأجناس والألوان والديانات والأقطار حتى إنه أصبح كما يقول النحاة عن الضمير (أعرف بعد اسم الجلالة)، فما الذي يمكن قوله إذن عن هذه الشخصية العلمية الفذة في كتابات عبد الرحمن الجيلالي؟.

لقد قيل من قبل عن مثل هذه الموضوعات وهؤلاء الأعلام المشهورين: (ما ترك الأول للآخر شيئا) ثم يعتذر لجماعة المستمعين يقول الشاعر العربي زهير:

ما أرانا تقول الامعادا *** أومعادا من قولنا مكرورا

غير أنه لكي يجد منفذا من هذه الدائرة المغلقة، وهذا الموضوع المعروف وماذا يمكن أن يقال فيه يورد لمستمعيه وقرائه قول أحد مشاهير الحضارة والتاريخ حول (إنتاج ابن خلدون من أنه أعظم عمل فكري أبدعه إنسان في أي عصر وأي مكان طوال تاريخ الإنسانية).(4)

وعلى هذا الأساس، فإن مثل هذه الموضوعات أو الشخصيات بقدر ما هي معروفة ومشهورة، بقدر ما تحتاج إلى المزيد من البحث حولها؛ يقول عبد الرحمن الجيلالي:

"فابن خلدون – أو نقول هذا الاسم أو هذه النسبة – هو كما تعلمون، أيها الأساتذة الكرام، علم اشتهر يه غير واحد من نوابغ أسرة عربية حضرمية الأصل أندلسية المهجر بعد الفتح، إشبيلية المقام، تونسية المترل بعد جلاء الأسر الإسلامية من الأندلس أثناء غزوات (فردناند) الثالث في أواسط القرن (13) الميلادي، سنة (646) للهجرة.

وقبل ذلك، كان أول من هاجر إلى الأندلس من هذه الأسرة، هو خالد بن عثمان بن هانيء بن الخطاب، وهناك اتخذ خالد هذا لقب التكبير؛ فعرف عندهم بخلدون – أي خالد الكبير – كما هو المتعارف في لهجة الأندلسيين تعظيمهم أو تضخيمهم للاسم الشخصي؛ فنراهم يقولون لمن اسمه زيد (زيدوي)، ولمن اسمه حفص (حفصوي)، ولمن اسمه عبد (عبدوي).

واشتهر أشخاص كثيرون بهذه الألقاب أو الأسماء؛ فهناك نجد (ابن عبدون)، و(ابن زيدون)، و(ابن حفصون)، و(ابن فرحون)، و(ابن سعدون)، و(ابن خلدون).

وعن (خالد) هذا تفرعت الأسرة الخلدونية هذه، واشتهر أفراد منها بما اختصوا به من ميزة امتازوا بها في ميدان خاص، عرف كل منهم بابن خلدون.(5)

ثم يحصي لنا الأستاذ الجيلالي مشاهير الخلدونيين؛ فمنهم (كُرَيْب بن خلدون) الثائر على دولة الأمويين في الأندلس، والذي تولى الحكم في إشبيلية، ومنهم (عمر بن خلدون الفيلسوف الطبيب)، ومنهم (الحسن بن خلدون) جديد الأخوين الشقيقين (يحي بن محمد بن خلدون) كاتب السلطان بن زيان بتلمسان، وصاحب كتاب بغية الرواد، ومنهم شقيقه هذا الذي نحن بصدد الحديث عنه، وهو: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) المؤرخ الأشهر صاحب (المقدمة) وصاحب كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)؛ انظر المصدر (14) السابق.

ومن هنا نقول إن خاصة سعة العلم، ودقة البحث قد مكنت الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي من إيجاد زاوية يدخل منها إلى هذا الموضوع المعروف والمشهور حول (عبد الرحمن بن خلدون).

ولأن عنوان البحث الذي قدمه عبد الرحمن الجيلالي هو (ابن خلدون وعصره) فلم يفته أن يحدد للقارئ أو المتلقي بدقة وتكثيف حياة (عبد الرحمن بن خلدون) ضمن عصره، فقال: (إن عصر ابن خلدون الذي عاش فيه وعمل خلاله هو، كما تعلمون، النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة، والرابع عشر الميلادي؛ فولادته كانت سنة 732 للهجرة/ (1332) الميلادية، وتوفي بالقاهرة سنة (808) للهجرة الموافقة لسنة (1406) للميلاد، وعاش بهذه الصورة مدة لا تقل عن ثلاثة ارباع القرن إلا سنة واحدة).(6)

ومن الدلائل التي نسوقها على (سعة العلم ودقته) في كتابات الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي – رحمه الله – ما أمْلى به بحثه حول (ابن خلدون وعصره) ونجمل ذلك في النقاط الآتية:

1 – بعد أن تحدث بإسهاب وتفصيل عن تحركات ابن خلدون في الشمال الإفريقي وفي الأندلس في الوظائف الإدارية والسياسية – حدد الفترة التي انقطع فيها للعلم والدرس والتأليف، والتي أعقبت سنة 777 هـ/ و(1375) ميلادية، واستمرت أربع سنوات متواصلة بقلعة بني سلامة المعروفة باسم (تاوغزوت) جنوب وهران بالجزائر، حيث يورد لنا الجيلالي ما ذكره (ابن خلدون) نفسه في هذا الشأن حيث قال: (فأقمت بها أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت (المقدمة) على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة).(7)

2 – حدد المكان الذي انقطع فيه ابن خلدون لكتابة (مقدمته) الشهيرة، والشروع في وضع كتابه الكبير (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، وقال إن ذلك المكان هو "قلعة بني سلامة" المعروفة (بتاوغزوت – Tawaghzout) التي تقع في جنوب مقاطعة وهران من أرض الجزائر).(8)

3 – وهنا يقوم عبد الرحمن الجيلالي بإصلاح خطأ وقع فيه المؤرخ الكبير (محمد عبد الله عنان) حين قال إن (تارغزوت) أو قلعة بني سلامة تقع جنوب إقليم قسنطينة... على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية كما جاء في كتاب عبد الله عنان: (ابن خلدون تراثه وحياته)، ص:59، الطبعة الثالثة، القاهرة، سنة 1959م.(9)

ويعتذر عبد الرحمن الجيلالي بالأدب الجم الذي يتسم به العلماء الكبار – يعتذر للأستاذ عبد الله عنان عن هذا الخطأ الذي وقع فيه بأن (تقرت – Tougourt) هي التي ينطبق عليها وصف ما ذهب إليه عنان في كتابه الأنف الذكر، وليس (تاوغزوت –

Tawaghzout). لأن (تاوغزوت) تقع جنوب غرب وهران وليس جنوب غرب قسنطينة، ثم يضيف بأنه لعل التشابه في اللهجة والنطق والرسم بين (تقرت) و(تاوغزوت) وبخاصة في رسمهما باللغة الأجنبية هو الذي أوقع عبد الله عنان في هذا الخطأ.

4- خصص الأستاذ الجيلالي مدينة (فرندة) - التي تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة وهران، والتي تقع تاوغزوت أو قلعة بني سلامة بنحو سبع كيلومترات إلى الجنوب الغربي أيضا من مدينة (فرندة) – أقول:

5 – لقد خص الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي مدينة (فريندة) بحديث فصل فيه معاني اسمها ودلالاته المحلية واللغوية والحضارية، وذلك لأن (تاوغزوت) أو قلعة بني سلامة التي كتب فيها ابن خلدون (المقدمة) تقع إلى الجنوب الغربي منها بحوالي سبع كيلومترات؛ فقد قيل إن (فريندة) اسم بربري معناه: (إنهم اختفوا هنا)، ولكن من هؤلاء المختفون؟ لا أحد يدري، وقد قيل إن معناها (السيف)، كما قيل إن معناها (الورد الأحمر) و(حب الرمان) و(الشجر) ومن معانيها أيضا طائر يسمى (القطاة) ولكن الأهم هو أن أهلها يقولون إن (الورود) و(الرمان) خاصية من خصائص فريندة، وأن معاجم اللغة العربية تسمى الأرض الشجراء (فريندة) التي جذرها اللغوي (ف.ر.د).

ولا ينسى الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي أن يشير إلى أن الجزائر قد ردت على الإحسان بالإحسان حين جعلت مدينة (فريندة) محل احتفال لتمجيد ذكرى (عبد الرحمن بن خلدون) جزاء ما بذله من جهد عبقري على أرضها حين ألف تلك المقدمة العجيبة التي عمت شهرتها آفاق العالم ذلك شيء من خاصيتي سعة العلم ودقة التفاصيل في كتابات عبد الرحمن الجيلالي.

فرحم الله العالمين الجليلين عبد الرحمن بن خلدون وعبد الرحمن الجيلالي على ما قدماه لأرض الجزائر ولأهلها من كنوز عبقرية خالدة.

هوامش ومصادر:

أولا: الهوامش:

(1) الثقافة: مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، السنة الخامسة عشرة — العدد (87)، شعبان — رمضان 1405هـ/مايو — يونيو 1985م، ص ص(375-383).

ملاحظة: هذا العدد خاص حول: محمد البشير الإبراهيمي.

(2) عبد الرحمن الجيلالي، أسطر حول نشاط الشيخ البشير الإبراهيمي، الثقافة، العدد (87)، الجزائر مايو — يونيو 1985م! ص375.

(3) الثقافة: مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر. السنة الخامسة عشر — العدد (85)، ربيع الثاني — جمادي الأولى 1405هـ/ يناير — فبراير 1985م، ص ص (247-257).

(4) الثقافة، العدد 85، الجزائر، ص247.

(5) عبد الرحمن الجيلالي، ابن خلدون وعصره، الثقافة العدد (85)، ص248.

(6) عبد الرحمن الجيلالي: المصدر السابق، ص249.

(7) المصدر السابق، ص252.

(8) المصدر السابق، ص251.

(9) أنظر: عبد الرحمن الجيلالي، ابن خلدون وعصره. الثقافة، العدد (85)، الجزائر، ص251.

ثانيا: المصادر:

1 — محمد بن أبي شنب، حياته وآثاره. تأليف: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1983م.

وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب صدرت سنة 1352هـ/1932م، في أعقاب وفاة العلامة الدكتور محمد بن أبي شنب سنة 1929م.

ولقد ذكر الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في مقدمة الطبعة الثانية "إن هذا الكتاب هدية منه إلى النشء الجزائري الجديد، سدد الله خطاه"، ويقع هذا الكتاب في طبعته الثانية في 181 صفحة من الحجم المتوسط.

ولقد عاش الدكتور محمد ابن أبي شنب في الجزائر ما بين 1286 – 1347هـ الموفق/ 1869 – 1929م.

2 – تاريخ الجزائر العام: (يشتمل على إيجاز واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع أطواره، وحركاته السياسية، والاجتماعية، والعلمية، والدينية والأدبية، والفنية، والاقتصادية، والعمرانية، والصناعية، مع تراجم العبقريين وأرباب الشرائح من مشاهير الجزائريين منذ أقدم العصور إلى الآن)؛ تأليف: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي رحمه الله. تقع الطبعة الرابعة (سنة 1400 هـ - 1980م من هذا الكتاب) في أربعة أجزاء، طبع دار الثقافة، بيروت – لبنان.

3 – تاريخ المدن الثلاث: الجزائر – لمدينة – مليانة بمناسبة عيدها الألفي (دراسات وأبحاث). إعداد ودراسة وتمهيد وتعليق عبد الرحمن الجيلالي، الطبعة الثانية، الجزائر، 1392هـ / 1972م، مطبعة صاري بدر الدين وأبنائه، الأبيار الجزائر العاصمة.

4 – المولد والهجرة: مسرحيتان إسلاميتان (في كتاب واحد)، تأليف: عبد الرحمن الجيلالي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987م جاء في إهداء هذه الطبعة ما يلي: (إلى غير المتعصبين والمغرضين... إلى المخلصين لمحمد صلى الله عليه وسلم. وجاء في بيان توضيحي لهاتين المسرحيتين في المقدمة ما يلي: (حاولت جهد الاستطاعة في سوق حوادث روايتي (المولد والهجرة) سرد وقائعهما حسب منطوق الرواية التاريخية ونصوصها الواردة في كتب السيرة المعتمدة وتتبعها بالحرف، غير أنه عاقني بعض مقتضيات فنية وأعمال يتطلبها المسرح في جوه التمثيلي فتراني لذلك خرجت في بعض الأحيان عن وضعها وشكلها الطبيعي متماشيا مع واقع المسرح وما يقتضيه في التمثيل).

5 – الجامع الكبير بمدينة الجزائر: معماريا وتاريخيا(بحث)، عبد الرحمان الجيلالي: الأصالة: مجلة ثقافية شهرية تصدر عن وزارة تعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، السنة الثانية، العدد(8) – عدد ممتاز – ربيع الثاني – جمادى الأولى 1392هـ / ماي – جوان 1972م، ص ص(113-127).

6 – مسجد سيدي مروان بعنابة (محاضرة) ألقاها بالمركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة يوم 19 مارس 1975م؛ ورد ذكر هذه المحاضرة في : مجلة الثقافة (الجزائر)، السنة الخامسة، العدد 26، ربيع الأول – ربيع الثاني 1395هـ/أفريل ماي 1975م، ص ص: 153.

7 – تلمسان والقدس الشريف(بحث)، عبد الرحمان الجيلالي، الأصالة، السنة الرابعة، العدد 26، رجب – شعبان 1395هـ/ جويلية – أوت 1975م، ص ص(104-110)، وهذا العدد من الأصالة (خاص) عن تاريخ تلمسان وحضارتها.

8 – البيعة ومبدأ الشورى في الإسلام، مشاركة في ندوة علمية أقيمت بالمركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالعاصمة الجزائر شارك فيها الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي بوصفه باحثا إلى جانب الأستاذ سليمان داود بن يوسف الباحث أيضا، وبمشاركة الأساتذة: أحمد حماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والمهدي البوعبدلي، والسعيد الصالحي، من المجلس الإسلامي الأعلى؛ نشط تلك الندوة الأستاذ عثمان شبوب رئيس تحرير مجلة الثقافة (الجزائر).

ينظر: الثقافة، السنة السادسة، العدد 31، صفر – ربيع الأول 1396هـ/ فبراير – مارس 1976م، ص ص115-116.

9 – أبو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابه: "الدليل والبرهان"، (بحث) بقلم عبد الرحمان الجيلالي، الأصالة، السنة السادسة، محرم 1397هـ/ جانفي 1977م، ص ص162-171؛ عدد خاص عن تاريخ (ورقلة–سدراته) بمناسبة انعقاد الملتقى الحادي عشرة للفكر الإسلامي بها.

10 – شخصيات لامعة من الأوراس (بحث) عبد الرحمان الجيلالي؛ الأصالة: السنة السابعة، رمضان – شوال 1398هـ / أوت – سبتمبر 1978م، العدد (60-61) ص ص103-114؛ هذا العدد خاص عن تاريخ منطقة الأوراس بمناسبة انعقاد الملتقى الثاني عشرة للفكر الإسلامي بعاصمتها باتنة.

11 – هؤلاء التوارك الملثمون (بحث) عبد الرحمن الجيلالي؛ الأصالة: السنة الثامنة؛ رمضان 1399هـ / أوت 1979م، العدد (72) ص ص18-35؛ عدد خاص عن تاريخ منطقة الهوقار، بمناسبة انعقاد الملتقى الثالث عشرة للفكر الإسلامي بعاصمتها.

12 – نظرة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المرأة بقلم عبد الرحمان الجلالي؛ الأصالة: السنة التاسعة، ذو الحجة – محرم 1400 – 1401هـ / نوفمبر – ديسمبر 1980م، العدد 87-88، ص ص61-66.

13 – من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي (رحمه الله) عبد الرحمن الجيلالي؛ الثقافة: مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، السنة الرابعة عشرة، العدد (80)، جمادي الثانية – رجب 1404هـ / مارس – أبريل 1984م، ص ص187-193.

14– ابن خلدون وعصره: عبد الرحمن الجيلالي: الثقافة: السنة الخامسة عشرة، العدد (85): ربيع الثاني – جمادي الأولى 1405هـ / يناير – فبراير، سنة 1985م، ص ص217-257.

15 – أسطر حول نشاط الشيخ محمد البشير الإبراهيمي؛ عبد الرحمن الجيلالي: الثقافة: السنة الخامسة عشرة، العدد (87) شعبان – رمضان 1405 هـ / مايو – يونيو 1985 ص ص375-383.

ملاحق

محمد الأمين العمودي

بقلم الشيخ عبد الرحمن الجيلالي

لقد كانت بداية الثلاثينات من القرن العشرين الميلادي سنوات صاخبة في حياة الشعب الجزائري المجيد. كان الاستعمار يحتفل بالعيد المأوي لاحتلال الجزائر. وكان قبل ذلك بسنوات قد طرد الأمير خالد من الجزائر لموافقة السياسية ضد الاستعمار وكانت الجزائر كلها في حالة مخاض داخلي لا يشعر به إلا في أواخر العشرينات ظهرت في فرنسا حركة نجم إفريقيا تطالب باستقلال المغرب العربي وكان يرأس هذه الحركة السيد مصالي الحاج. وفي نفس الفترة ظهرت حركة جمعية النواب التي كانت تطالب فرنسا بإعطاء الجزائريين حقوقهم.

وفي نفس هذه الفترة كان قد رجع من الشرق ومن تونس ثلة كريمة من العلماء وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد ابن باديس والشيخ العربي التبسي والشيخ محمد مبارك الميلي والشيخ محمد السعيد الزاهري والشيخ الطيب العقبي والشيخ توفيق المدني والشيخ محمد الأمين العمودي .

كل هؤلاء كان يوحدهم غرض واحد وهو إرجاع كرامة هذا الشعب وحريته والتصرف الحر في دينه.

فكان الهدف واحد والطرق مختلفة. كما أن مراكز التحرك كان يمتد على كامل أرض الوطن.فالشيخ عبد الحميد ابن باديس اتخذ لنشاطه مدينة قسنطينة، وأما الشيخ البشير فكان يعمل ضمن مدرسة في مدينة سطيف، وكان الزاهري قد أسس مدرسة في مدينة الأغواط ثم وهران.

وكانت بسكرة مع قسنطينة والجزائر قد أخذت مكان الصدارة في هذه الحركة الهامة، ولكن الخفية في نفس الوقت. وكانت الإدارة الفرنسية تتبع هذه الحركة على كثب. ومما جاء في تقاريرها السرية أنها كانت تتابع بجد ما كان يقوم به الشيخ مبارك

الميلي من النشاط من بناء مسجد ومدرسة في مدينة ميلة أما بسكرة عاصمة الزاب فوجدت فيها حركة نشيطة إصلاحية أيدها بجريدة الإصلاح وكان قائد هذه الحركة هو الشيخ الطيب العقبي وبعض الشباب الوطنيين مثل الشيخ العيد حم علي والأمين العمودي والشيخ العابد الجلالي وغيرهم من شباب بسكرة في تلك الفترة.

ومعرفتي بالشيخ الأمين العمودي فإنها ترجع إلى تلك الفترة أي في أواسط الثلاثينات وكنت آنذاك معلما بمدرسة جمعية الشبيبة الإسلامية وكان معي في التعليم الشاعر الجزائري الكبير الشيخ محمد العيد آل الخليفة وكان يراسل باستمرار كعضو عامل في جماعة بسكرة الأدبية التي كانت تجتمع في ذلك الوقت في حديقة في مدينة بسكرة يسميها لنا محمد العيد " بجنان البايلك ".وكان رحمه الله كثيرا ما يحدثنا عما كان يجري بينهم في بسكرة من الأحاديث الأدبية وما كانوا كلهم يسمون إليه من العمل للنهوض بهذا الوطن.

وفي يوم من الأيام أخبرنا بمجيء الأمين العمودي إلى الجزائر وفي اليوم المعلوم توجهت صحبة صديقه الشيخ العيد لاستقباله في المحطة المركزية في العاصمة.و توجهنا إلى المقهى التي تعرف بمقهى المرابط وهو موجود إلى الآن في شارع عبان رمضان تجاه سينما دنيا زاد. فتناولنا هناك مشروبات وتعرفت هناك على الرجل العظيم والشاعر المفلق والكاتب البليغ والخطيب المصقع باللغتين العربية والفرنسية.

وبعد وصول العمودي إلى الجزائر تكونت جمعية العلماء التي كان كاتبها العام وقلبها النابض. كان رحمه الله بمثابة المحرك في السيارة وكان وقود المحرك هو الأمين العمودي.

إنه تفطن رحمه الله وأرضاه أن دعوة الإسلام تحتاج إلى وسيلة إعلامية لمن لا يحسنون اللغة العربية وقد كان سبقه إلى ذلك الأمير خالد رحمه الله.

فأنشأ العمودي جريدته العظيمة التي كانت تزعزع أركان الاستعمار وأذنابه وكان أسلوبه أسلوبا هجوميا عقلانيا إسلاميا وطنيا يحدث في كل عدد ضجة تتأثر بها الإدارة الاستعمارية أي تأثر.

والغريب أنه رحمه الله كان المدير، وصاحب التحرير، والصحافي والساعي، وبعض الأوقات الموزع للجريدة كان يضحي بضروريات عائلته من أجل هذه الجريدة التي من أجلها النفس والنفيس.

فكان في ذلك الوقت لا يذكر اسم العمودي شعر السامع من هو راسمين بأن وجود الاستعمار في الجزائر في خطر.

هذه شهادة الدكتور فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في حق الأستاذ النابغة محمد الأمين العمومي رحمه الله.

ربض عين الأزرق – الجزائر العاصمة –

يوم الخميس 16 جوان 2005م 09 جمادى الأولى 1426هـ

عبد الرحمن جيلالي

صورة ص1 من المخطوط

ABDERRAHMANE EL-DJILALI

عبد الرحمن الجيلالي

ص 1

لقد كانت بداية الثلاثينات من القرن العشرين
الميلادي سنوات صاخبة في حياة الشعب الجزائري
المجيد. لأن الاستعمار يحتفل بالعيد المئوي لاحتلال
الجزائر. وكان قبل ذلك بسنوات قد طرد الأمير
خالد من الجزائر لمواقفه السياسية ضد الاستعمار
وكانت الجزائر كلها في حالة مخاض داخلي لا يشعر
به إلا الأفراد القليلة [illegible] وأواخر العشرينات ظهرت في فرنسا حركة
نجم افريقيا تطالب باستقلال المغرب العربي وكان
رائد من هذه الحركة السيد مصالي الحاج. وفي نفس الفترة
ظهرت حركة جمعية النواب التي كانت تطالب فرنسا
بإعطاء الجزائريين حقوقهم.

وفي نفس هذه الفترة كان قد رجع من المشرق ومن تونس
ثلة كريمة من العلماء وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد ابن
باديس والشيخ العربي التبسي والشيخ محمد مبارك الميلي
والشيخ محمد السعيد الزاهري والشيخ الطيب العقبي
والشيخ [illegible] والشيخ الأمين العمودي
كل هؤلاء كان يحدوهم غرض واحد وهو إرجاع كرامة
هذا الشعب وحريته والتصرف الحر في دينه.

صورة ص2 من المخطوط

فكان الهدف واحدا والطرق مختلفة. كما أن مراكز
التحرك كان يمتد على كامل أرض الوطن. فالشيخ
عبد الحميد ابن باديس اتخذ لنشاطه مدينة قسنطينة،
وأما الشيخ البشير كان يعمل ضمن مدرسة في مدينة
سطيف. وكان الزاهري قد أسس مدرسة في مدينة
الاغواط ثم وهران.

وكانت بسكرة مع قسنطينة والجزائر قد أخذت
مكان الصدارة في هذه الحركة الهامة ولكن الخفية في
نفس الوقت. وكانت الادارة الفرنسية تتبع هذه
الحركة على كثب. ومما جاء في تقاريرها السرية أنها
كانت تتابع بجد ما كان يقوم به الشيخ مبارك الميلي من
النشاط من بناء مسجد ومدرسة في مدينة ميلة

أما بسكرة عاصمة الزيبان فوجدت فيها حركة نشيطة
إصلاحية أيدتها جريدة الاصلاح وكان قائد هذه الحركة هو
الشيخ الطيب العقبي وبعض الشباب الوطنيين مثل
الشيخ احمد حقي والشيخ الامين العمودي
والشيخ العابد الجلالي وغيرهم من شباب بسكرة في تلك
الفترة.

صورة ص3 من المخطوط

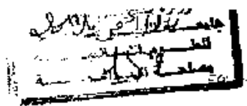
ABDERRAHMANE EL-DJILALI

عبد الرحمن الجيلالي

ومعرفتي بالشيخ الأمين العمودي ولدوها ترجع
إلى تلك الفترة أي في أواسط الثلاثينات
وكنت آنذاك معلما بمدرسة جمعية الشبيبة الإسلامية
وكان معي في التعليم الشاعر الجزائري الكبير الشيخ
محمد العيد آل خليفة وكان يراسل باستمرار
كعضو عامل في جماعة بسكرة الأدبية التي كانت تجتمع
في ذلك الوقت في حديقة في مدينة بسكرة يسميها لنا
محمد العيد "جنان البايلك" وكان رحمه الله كثيرا
ما يحدثنا عما كان يجري بينهم في بسكرة من الأحاديث
الأدبية وما كانوا كلهم يخططون له من العمل للنهوض
بالوطن.

وفي يوم من الأيام أخبرنا بمجيء الأمين العمودي
واقترح علينا صحبة صديقه الشيخ العيد
لاستقباله في المحطة المركزية في العاصمة. و
دعونا إلى المقهى الذي يعرف بمقهى المرابط وهو
موجود إلى الآن في شارع عبان رمضان قبالة سينما
دنيازاد. فتناولنا هناك مشروبات وتعرفت
هناك على الرجل العظيم والشاعر المفلق والكاتب
البليغ والخطيب المصقع باللغتين العربية والفرنسية.

صورة ص4 من المخطوط



ABDERRAHMANE EL-DJILALI

عبد الرحمن الجيلالي

وبعد وصول العمودي إلى الجزائر تكونت جمعية العلماء التي كان كاتبها العام وقلمها الناطق. كان رحمه الله بمثابة المحرك في السيارة وكان وقود المحرك هو الأمين العمودي.

إنه تفطن رحمه الله وأرضاه أن دعوة الإسلام تحتاج إلى وسيلة إعلامية لمن لا يحسنون اللغة العربية وقد كان سبقه إلى ذلك الأمير خالد رحمه [illegible]

ثم نشأ العمودي جريدته العظيمة التي كانت تزعزع أركان الاستعمار وأذنابه وكان أسلوبه أسلوبا مختصرا عقلانيا إسلاميا وطنيا يحدث في كل عدد ضجة تتأثر لها الإدارة الاستعمارية أيما تأثر.

والغريب أنه رحمه الله كان المدير وصاحب التحرير والصحافي والساعي وفي بعض الأوقات الموزع للجريدة كان يؤدي ضروريات عائلته من أجل هذه الجريدة [illegible] من أجلها النفس والنفيس

فكان في ذلك الوقت لا يذكر اسم العمودي إلا يشعر السامع [illegible] بأن وجود الاستعمار [illegible] في خطر.

صورة ص5 من المخطوط

وهذه شهادة الدكتور فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في حق الأستاذ الكاتب محمد الأمين العمودي رحمه الله.

رياض عين الأزرق - الجزائر العاصمة - يوم الخميس 16 جوان 2005م

عبد الرحمن الجيلالي

09 جمادى الأولى 1426

صورة كتاب تاريخ الجزائر



اتسع مدلول لفظ أفريقيا على عهد البيزنطيين، فشمل كل ما دخل تحت نفوذهم من هذه القارة، من برقة إلى طانجة. وبهذا المعنى، استعمله العرب في أول الأمر، ثم بعد ذلك أخذ لفظ أفريقيا يضيق شيئا فشيئا، وبدأ لفظ المغرب في الظهور، فاقتصر اسم أفريقيا على ما يلي مصر غربا إلى بجاية من مقاطعة قسنطينة، الجزائر، ثم يلي ذلك المغرب حتى المحيط. وربما أدخل فيه بعضهم الأندلس. ولا شك أن لفظ المغرب حسب مدلول معناه، هو ما يقابل المشرق، ولهذا أدخل فيه بعضهم مصر الأندلس، وقصره آخرون على المغرب الحالي، وهو الإقليم الذي يلي مصر غربا حتى المحيط، ثم هم يقسمونه أجزاء بحسب الحكومات والولايات كبرقة وطرابلس وأفريقيا، تونس، والمغرب الأوسط، الجزائر، و المغرب الأقصى والسوس.

الدولة القومية الجزائرية أو حكومة الأمير عبد القادر الجزائري

(1248-1264هـ /1832-1847م)

نظام الحكم والإدارة:

لم يلبث الأمير أثر انعقاد البيعة طويلا، حتى بادر بتنظيم الجهاز الحكومي: فاهتم من حينه [1] بترتيب الإدارة وتنظيم دعائم الحكم، وتوطيد معالم الدولة الجزائرية سياسيا

[1]- يرجع تاريخ تأسيس هذه المدينة — على ما في كتاب روضات الأزهار — إلى القرن الثاني للهجرة، حيث كان تشييدها على يد راشد بن المرشد- فتى إدريس الأول — فهي منسوبة إليه. وهي قاعدة بلاد بني راشد، الممتدة من جبل المناور شرقا، إلى جبل كرسوط غربا، ومن القلعة شمالا إلى وادي البنيان جنوبا. وقيل أنها من مؤسسات العهد الزياني، اختطها السلطان يغمراسن بن زيان في القرن السابع

وحربيا واجتماعيا. فسارع أولا إلى تعيين مركز الدولة ودار الإمارة، فجعل ذلك بمدينة ((معسكر)) المشهورة باسم الراشدية [1] بولاية وهران، فكانت هذه هي عاصمة الدولة الجزائرية بعد سقوط مدينة الجزائر بيد العدو. وإذ ذاك أخذ في تكاليف الحكومة، فأسس مجلسا للوزراء وأنشأ آخر للشورى، منطلقا في ذلك عن دستور الإسلام القرآني، وما يقتضيه اختيار الشعب الجزائري المسلم الأبي . فكان مجلس الوزراء يتشكل من عشرة أعضاء، تختلف مسؤولياتهم بحسب اختلاف وظائفهم وتعدد مصالح الدولة واختلاف حاجاتها، فكان فيهم وزير الشؤون المالية، وآخر للداخلية وآخر للخارجية، ولكل من الأوقاف والزكاة والأعشار وزير، وهنالك المكلف بالخزينة الملكية الخاصة، الخ...

أما المجلس الثاني — مجلس الشورى-، فإنه كان مركبا من أحد عشر عضوا، يرأسهم قاضي القضاة، وكلهم كان من ذوي العلم والفضل.

فكانت هذه المجالس صورة حقيقية ومرآة صادقة لانعكاس صور آمال الشعب الجزائري ومطامحه السامية، وبذلك صح لنا أن نقول في صف نوعية شكل الحكومة الجزائرية سياسيا أنه كان ديمقراطيا استشاريا شعبيا، دستوره القرآن. وقسمت المملكة الجزائرية إلى ثمان ولايات : ولاية معسكر وميناؤها بلدة أرزية — غربي وهران -، وولاية تلمسان وميناؤها أرشقول، وولاية مليانة وميناؤها بلدة شرشال، ومقاطعة تيطري وحاضرتها المدية، ومقاطعة مجانة وجعل مركز حكمها بلدة سطيف، ومقاطعة الزيبان ومركزها بسكرة، ومقاطعة الجبال ومركزها برج حمزة ، ثم مقاطعة الصحراء الغربية. وأنشأ في كل مقاطعة دوائر ونجد في جميع هذه المقاطعات والدوائر موظفين برتب مختلفة، كعمال وقضاة وشيوخ وقادة وأغوات، الخ... ونصب في كل من مدينتي معسكر وتلمسان خليفة بن الأمير يشرف على هؤلاء موظفين جميعا.

الهجري- الثالث عشر الميلادي- وجعلها موطنا لجيشه ((الحشم))وأقام بها الحصون لدفع عادية خصومه من بني توجين، ولهذا دعيت باسم ((المعسكر)).

الدولة الجزائرية-التركية العثمانية (920-1246هـ/1514- 1830م)

نظامها الحكومي:

إن أول ما عرفت الجزائر من رؤسائها الأتراك هم جماعة "البيلرباي" ومعناه بأي الأبياء أو أمير الأمراء، وهو لقب يمنحه السلطان العثماني مع كسوة الشرف-قفطان-لأمير الناحية.

والجزائر يومئذ هي إحدى الولايات الثلاث بالإمبراطورية العثمانية التي كان يطلق على رئيسها هذا اللقب، مثل ولاية الأناضول والروميلي بتركية أوروبا.

لبيلر باي الجزائر التصرف المطلق بالمملكة الجزائرية مع الإشراف على ما يليها شرقا إلى الحدود المصرية، بما فيها من ولاية تونس وطرابلس، وهذا معنى تلقيبه برئيس البكوات.

ثم حد من سلطة حاكم الجزائر وأقتصر له فيها على المغرب الأوسط فقط، وخرجت تونس وطرابلس عن حكمه، وبموجب ذلك تغير لقبه ثلاث مرات، فحول أولا إلى الباشاوية، ثم إلى الأغاوية، ثم إلى الداياوية حسب الترتيب التالي:

أ- عصر الفتح التركي من سنة 920-950 هـ/1514-1544م، أي 30 سنة.

ب- عصر البايلاربايات من سنة 950-995 هـ/ 1544-1587م، أي 42 سنة.

ت- عصر الباشاوات من سنة 995-1069 هـ/ 1587-1659 م، أي 72 سنة

ث- عصر الآغاوات من سنة 1069-1081هـ/1659-1671م، أي 12 سنة

ج- عصر الدايات من سنة 1081-1246 هـ/1671-1830م أ 109 سنة.

انفجار الثورة القومية

وأعني بها تلك الثورة القومية العارمة المهولة التي تزعمها مشائخ الطرق الصوفية ضد سلوك بعض رجال السلطة التركية الحاكمة بالجزائر نحو الرعية في إرهاقها بمتطلبات العوائد والضرائب والرسوم، وما قد يكون هنالك من بواعث مذهبية أخرى. فاندفع لهيبها أولا بعين ماضي[1]، قريبا من مدينة الأغواط بالجنوب الجزائر وكانت تحت زعامة الشيخ الصوفي أبي العباس أحمد بن محمد–فتح الميم– بن المختار التجاني صاحب الطريقة التجانية المشهورة، فتصدى لمقاومته مصطفى باي الغرب، فأزعجه من تلمسان إلى قرية أبي سغمون، ولما توفي الباي المذكور وتولى مكان ابنه عثمان،منشئ زاوية ضريح سيدي الهواري بوهران(1214هـ–1799م)، فوشى له بالشيخ التجاني الثائر فبعث إلى أهل أبي سمغون يهددهم ويتوعدهم إذا هم لم يبعدوا التجاني عن بلادهم، ولما اتصل الشيخ بالخبر، وتحقق أن ذلك وقع من الباي خرج مع بعض تلامذته وأبنائه سالكا طريق الصحراء ملتجئا إلى المغرب الأقصى، فدخل مدينة فاس يوم17ربيع الأول سنة1213هـ– 29أغسطس1798م، وبعث برسوله إلى السلطان أبي الربيع سليمان بن محمد يعلمه بصفة هجرته إلى المغرب، وأنه هاجر من بلاده فرارا من جور الترك وظلمهم لاجئا إلى المغرب فأكرم السلطان وفادته وأنعم عليه بالسكنى، وأجرى عليه جراية لينفق منها على نفسه وعلى من معه من الإتباع، فاستقر الشيخ نهائيا بمسكنه في القصر المعروف بحوش المرايات بمدينة فاس، وترك مسؤولية ثورة عين ماضي ملقاة على عاتق أهالي تلك الناحية، فألزمهم الباي بدفع مبلغ من المال قدره سبعة عشر ألف ريال. وذلك ما يقدر بنحو 150000

---

[1] – الأصل في هذا المكان هو حصن إقامة أحد سادة العرب : وهو ماضي بن مقرب من بني بكر أحد بطون كرفة بن الأثبج الهلالي أسسه أيام مقدم الحملة الهلالية إلى المغرب العربي أواسط الخامس الهجري – منتصف القرن الحادي عشر ميلادي – وأجرى به عينا نسبت له، وهنالك كان مسقط رأس الشيخ التجاني الصوفي سنة 1150هـ 1737م.

فرنكا ومعها من الأثاث أغطية وملابس هي من أفخر الثياب وأرفع نسيج الخ. فأرهق القوم ذلك فبعثوا بطلب المعونة من شيخهم بفاس مع إظهار رغبتهم في عودته إليهم، فأجابهم الشيخ برسالة مطولة أوضح لهم فيها موقفه وعذره في انتقاله عنهم ونصحهم بالسمع والطاعة لأميرهم التركي وعدم تعرضهم لعصيانه في كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه، وكان مما جاء في هذه الرسالة ما نصه:

ما هو التاريخ...؟

التاريخ في اللغة بالهمز وبدونه، والتوريخ كذلك بالواو معناه: الوقت، وهو لفظ عربي صميم. أما ماهيته وتعريفه بالحد الاصطلاحي، فهو: علم تعرف به أحوال الماضيين من الأمم الخالية من حيث معيشتهم، وسيرتهم، ولغتهم، وعاداتهم، وتظمهم، وسياستهم.

جعفر بن فلاح الكتامي
(360هـ - 971 م)

القائد الجزائري العظيم ورئيس أركان حروب العبيديين وفتوحاتهم بالمشرق أبو علي جعفر بن فلاح الكتامي نسبة إلى كتامة تلك القبيلة العتيدة الكبرى بالجزائر التي قامت على سواعدها الدعوة الشيعية بالمغرب، أشتهر جعفر بقوة البأس وشدة الشكيمة والبطولة في الحرب، ولما أجمع الخليفة المعز على فتح المشرق بعث به مع القائد جوهر على رأس الجيش الفاتح، فذهبا معا إلى مصر وفتحاها وتولى جعفر وحده فتح بلاد الشام فدخل الرملة عنوة في ذي الحجة سنة 358هـ أكتوبر 969م . وقضى على حكومة ابن طغج، واحتل أيضا طبرية ثم قصد عاصمة الأمويين — دمشق — فاحتلها في شهر المحرم سنة 359هـ - نوفمبر 969م، وحدث بها يومئذ اضطراب وفتن من أهلها فأقمعهم صاحب الشرطة ثم سعى أهلها في الصلح فصالحهم جعفر واستقام له الملك بها، وبعدها نزل إلى الدركة فوق نهر يزيد بظاهر دمشق فابتنى بها قصره العجيب ومكث هناك إلى أن زحف القرامطة على الشام تحت راية رئيسهم الحسن بن أحمد القرمطي المعروف

بالأعصم، فخرج إليهم جعفر وهو يومئذ عليل فانتصر عليهم، ثم وقع تخاذل في جيش جعفر فظفر بهم القرمطي وقتل جعفر في جماعة من أصحابه يوم الخميس 6 ذي القعدة سنة 360 هـ 31 أوت 971 م. قال ابن خلكان : وكان جعفر رئيسا جليل القدر ممدوحا وفيه يقول أبو القاسم محمد بن هاني الأندلس الشاعر المشهور:

كانت مساءلة الركبان تخبرني	عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
أذني بأحسن مما قد رأى بصري	حتى التقينا فلا والله ما سمعت

وكان فيمن تولى إمارة دمشق بعده من الجزائريين : أبناؤه الثلاثة : سلمان وعلي وإبراهيم، وكذلك القائد تموصلت المعروف بطزملت أو طمزان البربري الأسود.

كما اشتهر من أهل مدينة الجزائر في هذا العصر أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الفرج الجزائري المصري، يروي عن ابن قديد، توفي في ذي القعدة سنة 368هـ- جوان 979م.

صورة كتاب محمد بن أبي شنب

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

محمد بن أبي شنب

حياته وآثاره

المؤسسة الوطنية للكتاب

لبيك أيها الشباب الناهض

استجابة لرغبة عدد جم من فتيان الجامعات ومدرسي المعاهد العلمية وطلبة المدارس وغريهم من ذوي الفضل والأدب في الإطلاع والتعرف على حياة نابغة الجزائر المنعم المبرور العلامة الدكتور محمد ابن أبي شنب أول عالم جزائري محافظ فاز بالحصول على كرسي أستاذ جامعي بكلية الآداب الجزائرية في عصر كان العلم فيه محتكرا والمسلم الجزائري بوطنه مضايقا فيه محروما ؟....ونظرا إلى ما يقتضيه الواجب من تلبية رجال البحث والتنقيب والدرس الذين تراهم ضمأى عطاشا للوقوف على آثار المرحوم محمد ابن أبي شنب رغبة منهم في حب الاطلاع على مبلغ مجهوده العلمي ونشاطه الثقافي والفني بعد ان قد مضى على فقده رحمة الله وطيب ثراه ما ينيف على خمسين عاما؟... واليوم وقد صادف هذا التاريخ مضى نصف قرن على طبع كتابنا:" ذكرى الدكتور محمد ابن أبي شنب" والآن وقد نفدت نسخه، فكان ذلك كله مما بعث فينا روح الشجاعة والنشاط للقيام بانتهاز هذه الفرصة التاريخية السانحة، فبادرنا إلى إعادة النظر في الكتاب واجلنا فيه يد العمل فأضفنا إليه يعض المواد التي رأيناها ماسة بالموضوع وأدخلنا في يد العمل فأضفنا إليه بعض المواد التي رأيناها ماسة بالموضوع وادخانل عليه شيئا من التعديل والتصحيح والتنقيح لما قد فاتنا تداركه وإصلاحه في الطبعة الاولى التي صدرت هنا عندنا بالجزائر سنة 1352هـ/1932م واقتحمنا به غمرة هذه النهزة نغتنمها لإعادة طبع الكتاب للمرة الثانية وتجديد نشره بعناية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر وارتأينا أن يكون عنوانه الجديد هو هذا.

" الدكتور محمد ابن أبي شنب، حياته آثاره" وهو مني هدية إلى النشء الجزائري الجديد سدد الله خطاه.

الجزائر ربض: عين الأزرق

محرم 1402هـ/نوفمبر 1981م

بسم الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله

توطئة

ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون.

قرآن شريف س: 21. آ 94

جرت عادة بعض المؤلفين أو الكتاب المنشئين أن يفتتحوا كتاباتهم بمقدمات منها ما هي مسهبة ومنها ما هي دون ذلك، يجعلونها كالمرآة لتجلى مقاصدهم فيها، وينوهوا بمؤلفاتهم ويبالغوا في مدحها وتزكيها، ويرتكبوا كل ما يساعدهم على الرواج الواسع والربح الكثير.

أما أنا فاستغني عن العناوين المزخرفة، والمقدمات المنمقة، واكتفي بأن أقول إنني وضعت هذه الصفحات لأمرين جليلين، أولهما خدمة للعلم والأدب الواضحين في حياة أعظم رجل عالم مسلم سخيت به الجزائر على أبنائها في القرن العشرين، وهو شيخنا المنعم المرحوم "الدكتور محمد ابن أبي شنب" فقيد الوطن والعلم والإسلام، والثاني. قياما بحق واجب وفرض محتم على الأمة الجزائري نحوه عامة، وعلى تلاميذه والمنتفعين بعمله وآثاره والمحافظين على منواله والمقتفين لأثره ومنهاجه خاصة.

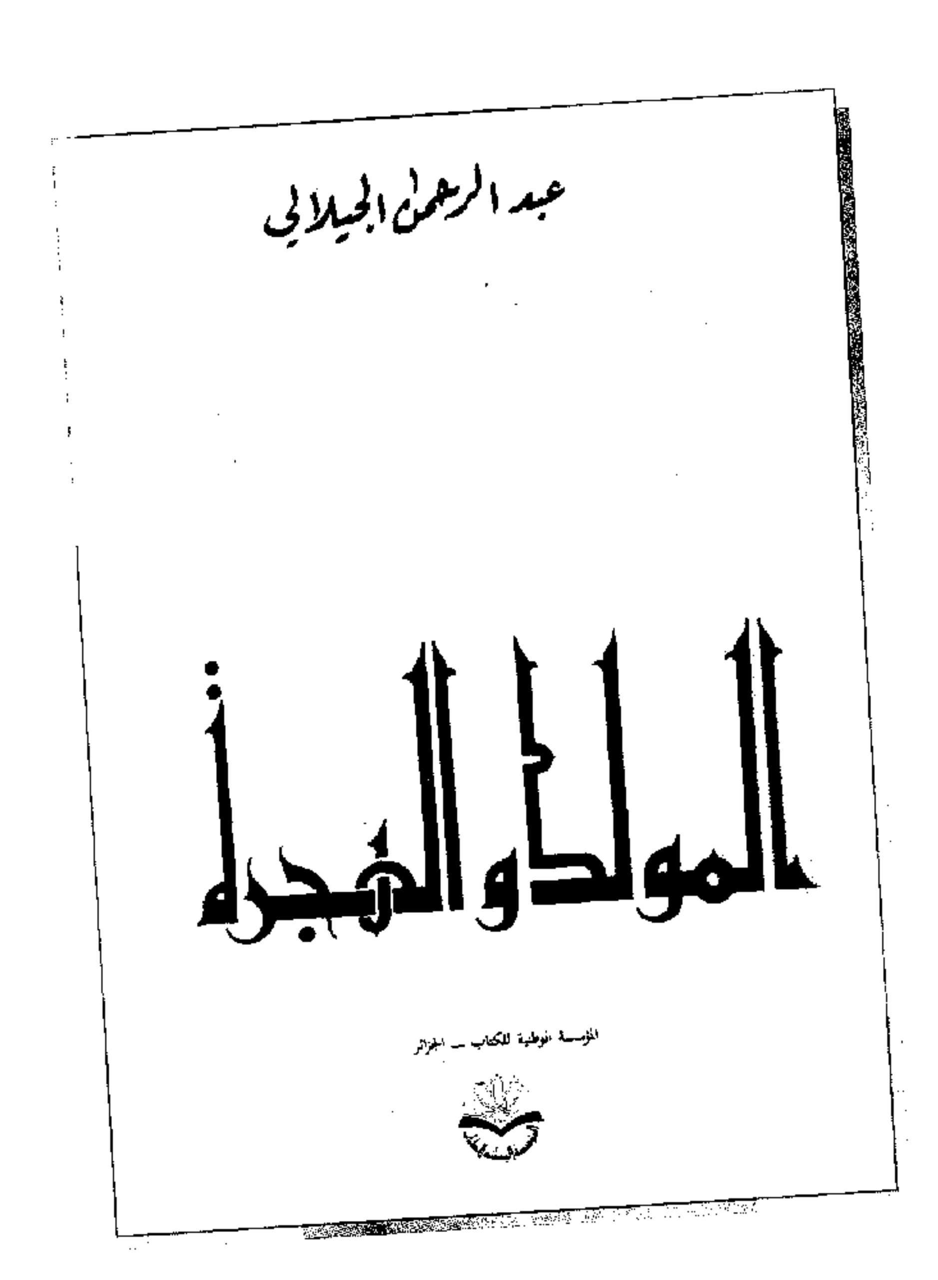
وأكثر العارفين من المعاصرين يعلمون من هو الرجل وما هي آثاره وإن كانوا بتفاصيل جاهلين.

ولعلك أيها القارئ حينما تعير وقتا لمطالعتها تسبر غورها فتقدر قدرها.

ربض: (القبة) الجزائر 1352/3/24هـ/1932م.

محمد بن أبي شنب –حياته وآثاره– المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983

صورة كتاب المولد والهجرة



المولد والهجرة

الفصل الأول

يرفع الستار عن قصر الشاه كسرى انو شروان وهو متهدم من ناحية، ساقط الشرفات .... والشاه داخل إلى قاعة العرش وهو منقبض الصدر قلقا، والوقت ليل، وفي منحى من نواحي القاعة نار موقدة للعبادة، وترى منضدة بجانب المسرح عليها فواكه.

المنظر (1)

كسرى — زنجان

كسرى : داخلا إل بهو العرش رافعا صوته: يا زنجان، يا حاجب.

زنجان : يدخل مسرعا منحنيا : حاضر يا مولاي.

كسرى : ثائرا أما جاء خبر إلى الآن عن الموبذان وعمن دعوناهم من المرازبة وأعيان الأمبراطورية الفارسية ؟

زنجان : بلى يا جلالة الشاه... لقد حضر الآن سماحة الموبذان، وهو ينتظر إذنكم في الدخول.

كسرى : فليدخل.

زنجان : يحي ويخروج

الموبذان : داخلا منحينا : طاب مساؤك سيدي الشاه، تحيت وكرامة.

كسرى : تفضل يا حضرة الموبذان... لعلني أزعجتك في هذه الليلة الليلاء ! ثم.. وأرجوك أن تتحاوز لي عن ذلك قابضا على صدره لما أنا فيه من الضيق !!

الموبذان : إن حياتي كلها لك يا صاحب الجلالة ! وما أنا إلا عبيدك طوع أمرك ونهيك. فيأمرنا الشاه بما شاه فإنه يجدنا عند ظنه !.. مهتما ولا شك أن هذا كان منكم في المصلحة العامة والسهر في منافع الرعية ومصالح الدولة ! ..

كسرى : أصبت في قولك هذا يا حضرة الموبذان، باركت النار فيك من حكيم ! فما أرى والدي أخطأ في اختيارك لمنصبك الرفيع هذا ... ولقد دلتني التجارب وزادتني

الحوادث يقينا بأنك من أهل الكفاءة التامة لإدارة شؤون الأمة والتدبير في حل مشكلاتها !

الموبذان : الفضل لكم سيدي .

كسرى : يا موبذان ! ... أعلم بأني ما دعوتك في مثل هذا الوقت الغير مناسب. والزمن غير المعتاد... وفي مثل هذه الليلة المظلمة الباردة، إلا لتخفف عني ما أصابني من الأرق والقلق !.. ومن هم وغم !... فأرجو أن أجد عندك البلسم الشافي، والترياق المعافي ! يشير إليه بالجلوس : أجلس... إيه الموبذان.

الموبذان : يجلس في اضطراب: وما ذاك سيدي؟... لقد هالني ما تقول ! فما حدث؟ ولا تفوتك الحكمة يا صاحب الجلالة، فإن خير الملوك أرحبهم ذرعا عن الضيق، وأوسعهم صدرا عند الغضب !.

كسرى : صدقت، يجلس .

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - وحدة الرغاية – 1987–

المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر –









الفهرس

حياته وشخصيته

جهوده في الكتابة التاريخية

جهوده في الفتوى

جهوده الإعلامية والأدبية